

مصطفى لطفي المنفلوطي

ماجدولين لن

تحت ظلال الزيزفون

تأليف الكاتب الفرنسي الشهير
الفرنس كار



دار الشرق العربي

بهاوت شارع سورية، بناية درويش

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية
Syrian Story

ماجدولين

لله

تحت ظلال الزيفون

تأليف الكاتب الفرنسي الشهير
ألفونس كار

بقلم المرحوم

مصطفى لطفي المنفلوطي

من ماجدولين الى سوزان

سواء لديّ أقرأت كتابي هذا أم مزقته فهو خطو من كل شيء
يهلك العلم به أو النظر إليه .

كل ما يمكنني أن أطرفك به من الأخبار أن أقول لك إن أشجار
الريبع قد بدأت تنسم عن أزهارها ، وأن النسيم العليل يحمل إليّ
في غرفتي هذه الساعة التي أكتب إليك فيها شلى أول زهرة من
زهرات البنفسج وأول عود من أعواد الزنبق .

ويمكنني أن أخبرك أيضاً وإن كنت لا أعرف لعل هذه
الأخبار معنى - أن الغرفة التي كانت خالية في الدور الأعلى من
منزلنا قد سكنها اليوم فتى اسمه « استيفن » غريب الأطوار في
وحشته ونفوره وانقباضه عن الناس حتى يكاد يظن الناظر إليه
أنه بائس أو منكوب ، فهو ينزل في صبيحة كل يوم إلى الحديقة
وييده كتاب واحد لا يغيره ، فإذا جلس للقراءة فيه علق نظره
بأول سطر يمر به ثم لا يتنقل عنه بعد ذلك ، فهو في الحديقة مطرق
إلى الأرض من حيث يظن الرائي أنه يقرأ في كتاب ، فإذا رآني
مارة أمامه رفع رأسه إليّ وحياني تحية وجيزة ، ثم انتقل من مكانه
وانساب بين الأشجار ، أو صعد إلى غرفته ، لذلك لم تتصل بيني
وبيته معرفة حتى اليوم ، وربما لا يقع شيء من ذلك فيما بعد ،

لأنني لا ألتمس السبيل إلى التعرف به ولا أحسب أنه يلتصقه ،
فإن كنت لا بد سائلة عما يتساءل عنه النساء في مثل هذا الموقف
فأقول لك إن الفتى ليس يجميل ولا جذاب ، بل إن في منظره
من الخشونة والجمود ما ينفر نظر الناظر إليه ، وأحسن ما فيه أني
سمعت ليلة وكانت نافذة غرفتي مفتوحة يغني غناء شجياً مؤثراً
وإن كان لا يجري فيه على قاعدة من قواعد النغم فهو يطرب البؤساء
والمحزونين ولا يعجب الموسيقيين المتقنين ، ولقد تمكن أبي من
محالته منهية فحلفتي عنه أنه من المتعلمين الأذكياء ، وبعد :
فأحسب أني أملكك يا سوزان بحديث يتعلق أكثره بإنسان لا شأن
لي ولا لك معه فلا تعني عليّ ، فهذا كل ما تستطيع أن تملأ به
صفحات كتابها فتاة تعيش في قرينها الصغيرة عيشاً مشابهاً للصور
والألوان : لا فرق بين ليله ونهاره ، وصبحه ومساءه ، لا
تطلع الشمس فيه على مرأى جديد ، ولا تغرب عن منظر غريب .

(٢)

من ماجدولين الى سوزان

الجو رائق ، والسماء مصحبة ، وقرص الشمس يلتهب التهاباً .
والأرض تهتز فتنبت نباتاً حسناً ، والأرض تنتفض عن أوراقها
اللامعة الخضراء ، والهواء الباتر يترقرق فينبعث إلى الأجسام
فيترك فيها أثراً هادئاً لذيلاً ، وكل ذلك لا قيمة له عندي ، ولا
أثر له في نفسي ، فلنني أشعر أن الحياة مظلمة قائمة ، وأن هذا
القضاء على سعته وانفراج ما بين أطرافه ضيق في أعيني من كثرة
الحابل ، وأن منظر العالم قد استحال إلى شيء غريب لا أعرفه

ولا عهد لي بمثله ، فأظل أنتقل من مكان إلى مكان ، وأفر من الحديقة إلى المنزل ومن المنزل إلى الحديقة ، كأني أفتش عن شيء ، وما أفتش عن نفسي التي فقدتها ولا أزال أنشدتها ، فإذا نال مني التعب أويت إلى أشجار الزيزفون في الحديقة لأسرّيح يظلها قليلاً ، فلا يكاد يعلق نظري بأول زهرة يروقني منظرها من بين أزهارها حتى أشعر كأني أنتقل من هذا العالم شيئاً فشيئاً إلى عالم جميل من عوالم الخيال ، نأثغل فيه كما يتغلغل الطائر المحلق في غمار السحب ، وتمر بي على ذلك ساعات طوال لا أعود بعدها إلى نفسي إلا إذا شعرت بسقوط الكتاب من يدي ، فإذا استفتت وجدتي لا أزال في مكاني ، ولا يزال نظري عالماً بتلك الزهرة الجميلة التي وقفت عليها .

يقولون إن فصل الربيع فصل الحب ، وإن العواطف تضطرم فيه اضطراماً فتأنس النفوس بالنفوس ، وتقرب القلوب من القلوب وتمتلئ الحداق والبساتين بجماعات الطير صادحة فوق زواهر الأغصان ، وجماعات الناس سائحة بين صفوف الأشجار ، أما أنا فلا أصدق من كل هذا شيئاً ، فإن أجمل الساعات عندي تلك الساعة التي أخلو فيها بنفسي فأناجيه بهمومي وأحزاني وأذرف من العبرات ما أبرد به تلك الغلة التي تعتلج في صلري .

وأعجب ما أعجب له من أمر نفسي أنني أبكي على غير شيء ، وأحزن لغير سبب ، وأجد بين جنبي من الموم والأشجان ما لا أعرف سبيله ولا مأتاه ؛ حتى يخيّل إليّ أحياناً أن عارضاً من عوارض الجنون قد خالط عقلي فيشد خوفي واضطرابي .

إن الذين يعرفون أسباب آلامهم وأحزانهم غير أشقياء لأنهم يعيشون بالأمل ويحيون بالرجاء ، أما أنا فشقية لأنني لا أعرف لي

دءاء فأعالجه ، ولا يوم شفءاء فأأرجوه .

كل أسباب العيش حاضرة لديّ ، وأبي لا يعرف له سعادة في الحياة غير سعادتي ، ولا هناء غير هنائي ، ولا يعجبه منظر من مناظر الجمال في العالم سوى أن يراني باسمة ، ويرى أزهار حديقته ضاحكة ، بل ربما أغفل أمر حديقته أحياناً حتى تذبل أوراقها وتموت زهراتها في سبيل قضاء مرافقي وحاجاتي ، فأنا إن شكوت فلنأما أشكو بطراً وأشراً وكفراناً بأنعم الله التي يسبقها عليّ ويسلها إليّ ، ففقرانك اللهم ورحمتك ، فلاني ما اعترفت بميميلك ، ولا أحسنت القيام بشكر أباديك .

إني لأذكر يا سوزان تلك الأيام التي قضيناها معاً ، وتلك السعادة التي كنا نهصر أعصانها ، ونجني ثمارها . ونطير في سماها بأجنحة من الآمال والأحلام ، فأندبها وأبكي عليها ، وأحن إليها حين الليل إلى مطلع الفجر والجذب إلى ديمة القطر .

(٣)

من إدوار إلى استيفن

الآن عرفت أنك لا تثق بي ولا تعتمد عليّ وأنك لا تزال تنظر إليّ بالعين التي تنظر بها إلى أولئك الذين آثرت مغاضبتهم والتبرم بهم من أفراد أسرتك ، فقد كتمت عني ما كنت أرجو أن تفضي به إليّ من تبرم ذات نفسك فيما اعترمت عليه من رحلتك لأعرف ماذا تريد وأين تريد ولكني لم أوثر أن أنزل بك في الود إلى المنزلة التي نزلت بي إليها ، فلم أبدأ من أن أكب إليك .

إننا نبتنا معاً يا استيفن في تربة واحدة ، تحت سماء واحدة
يغفلونا ماء واحد وجو واحد ، وما زلنا كذلك حتى شبيتنا فاختلطنا
كما تختلف الشجرتان المتجاورتان في منبتهما ثمرة وشكلا ، ولذلك
أنت تفر مني الفرار كله وتقبض عني ، ولا تراني أسلك فجاً
من فجاج الأرض إلا سلكت فجاً غيره ، لأنك أصبحت تسعد
إلا سلكت فجاً غيره ، لأنك أصبحت تسعد بحياة غير التي أسعد
بها ، وهتأ بعيش غير الذي أهتأ به ، وتطرب لنخمة غير التي تسمعها
مني ، ولا تستطيع أن ترى في وجهي تلك المرأة التي تحب أن
ترى فيها صورتك واضحة جلية لا غموض فيها ولا إيهام .

إنك لا تبغضني يا استيفن ، ولكنك لا تحب أن تراني ، لأنك
تعلم أن لي في الحياة رأياً غير رأيك ، وطريقاً غير طريقك ،
فأنت تخاف أن تسمع مني ما يفجئك في تصوراتك وأحلامك ،
ويكدر عليك لذائذك التي تجدها في العيش في ذلك العالم الخيالي
المظلم ، وتقع بها فيه قناعة الشعراء المحزونين بالعيش بين أشباح
خيالاتهم السوداء .

كن كما تشاء وعش كما تريد ، فستقضي أيام شبابك وستقضي
بانقضائها أمانيك وأحلامك ، وهنالك تنزل من سمالك التي تطير
فيها إلى أرضي التي أسكنها ، فتعارف بعد التناكر وتتواصل
بعد التقاطع وتلتقي كما كنا .

لا بد أن نفرق اليوم لأننا غير متفقين ، ولا بد أن نجتمع بعد
اليوم لأننا ستفق ، فلا بأس أن تكذب إليّ وأكتب إليك ، وأن
تواصل على البعد لإبقاء على تلك الصلة التي بيننا ، واحتفاظاً بها ،
ورعاية لها حتى يأتي ذلك اليوم الذي تجلو فيه عن نفسها وتبرز
من مكمنها .

إن أهلك يعجبون لأمرك كثيراً ، ويرون أنك مكرت بهم ، وأضلكتهم عن مقاصدك وأغراضك فسافرت خفية من حيث لا يعلمون بأمرك ولا بيتك التي انتويتها ، ويقولون إنك ما سافرت على هذه الصورة إلا لأنك عدلت عن رأيك في الزواج من تلك الفتاة التي أعدتها لك ، وعندني أنهم أصابوا فيما يقولون ، وأنتك غطيت فيما فعلت ، لأنك تعلم أن والدك فقير لا يملك من المال أكثر مما يشع لأيام حياته ، ولقد كان لك في هذا الزواج من تلك الفتاة التي اختارها لك حظك من سعادة العيش وهنائه لولا أنك شاعر ، والشعراء يفهمون من معنى السعادة غير ما يفهمه الناس جميعاً .

أخوك يحبك كثيراً ، ولا يزال يحدثني عنك كما أحدثه ، فاذكرنا كما نذكرك واكتب إلينا بكل شيء .

(٤)

خواطر استيقظ

مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق إلا أن تنفجر لمة الظلام عن جبين الفجر ولا أزال ساهراً قلق المضجع ، أطلب الراحة فلا أجدها ، وأهتف بالغمض فلا أعرف السبيل إليه .

إن كان إدوار يسخر مني في كتابه ويهزأ بي ، ويلتقني بيوم أرى فيه أوهاماً كاذبة وأحلاماً باطلة ، ما كنت أحسبه أماناً وآمالاً ، ويرى أن جميع ما أقدره لنفسي من سعادة في الحياة وهناء أشبه شيء بالخيالات الشعرية التي يسعد الشعراء بتصورها ، ولا يسعدون

بوجودها . فلئن كان حقاً ما يقول فما أمر طعم العيش ، وما
أظلم وجه الحياة .

لا .. لا .. إن الذي غرس في قلبي هذه الآمال الحسان لا
يمجز عن أن يتمهدا بلطفه وعنايته حتى تخرج ثمارها وتتلأأ
أزهارها ، وإن الذي أنبت في جناحي هذه القوادم والحوافى لا
يرضى أن يبضني ويتركني في مكاني كسيراً لا أنهض ولا أطيّر .
وإن الذي سلطني كل ما يأمل الآملون في هذه الحياة من سرور
وغبطة ، ولم يبق لي منها إلا حلاوة الأمل ولذته ، لأجل من أن
يقسو عليّ القسوة كلها فيسلبني تلك الثمالة الباقية التي هي ملاك
عيشي ، وقوام حياتي ...

على أنني ما ذهبت بعيداً ، ولا طلبت مستحيلاً . فكل ما
أطمع فيه من جمال هذا العالم وزخرفته ، رفيق آنس بقربه وجواره ،
وأجد لذة العيش في التحدث معه ، والسكون إليه ، وما الرجال
كما يقولون إلا أنصاف مائلة تطلب أنصافها الأخرى بين مخادع
النساء ، فلا يزال الرجل يشعر في نفسه بذلك النقص الذي كان
يشعر به آدم قبل أن تتغير صورة ضلعه الأيسر حتى يعرّ المرأة
التي خلقت له فيقر قراره ، ويلقي عصاه .

وبعد : فأني مقدر من المقدورات نصيب به قوة الله وحكمته ،
وأي عقل من العقول الإنسانية يستطيع أن يدع في تصوراتهِ
وتخيلاته الذهنية فوق ما تدع يد القدرة في مصنوعاتِها وآثارها ،
وهل الصور والخيالات التي تمتلئ بما اذهاننا وتموج بها عقولنا إلا
رسوم ضئيلة لحقائق هذا الكون وبلائه ، ولو أن سامعاً سمع
وصف منظر الشمس عند طلوعها ، أو مهبط الليل عند نزوله ،
أو جمال غابة من الغابات ، أو شموخ جبل من الأجيال ، ثم

رأى بعد ذلك عياناً ، ما كان يراه تصوراً وخيالاً ، لعلم أن جمال الكائنات فوق جمال الصورات وحقائق الموجودات فوق هواتف الخيالات ، لذلك أعتقد أنني ما تخيلت هذه السعادة التي أقدّرها لنفسي إلا لأنها كائن من الكائنات الموجودة وأنها آتية لا رب فيها .

إن اليوم الذي أشعر فيه بجنّة آمالي ، واقطاع حبل رجائي ، يجب أن يكون آخر يوم من أيام حياتي . فلا خير في حياة يحياها المرء بغير قلب ، ولا خير في قلب يخفق بغير حب .

(٥)

الحب

نزل استيفن صبيحة يوم من الأيام إلى حديقة المنزل فرأى «مولر» والد ماجدولين واقفاً على رأس بعض الجداول متكئاً على فأسه فلم ير بد من أن يحبه فحياه بتحية حيي بأحسن منها ؛ ثم أراد أن يستمر أدراجه فرآه ينظر إليه نظرة المستوقف ، ورأى كأن كلاماً يتحير في شذقيه فاستحيا أن يمضي لسيبله فوقف ، فقال له مولر : ما أجمل شمس هذا اليوم وما أصفى سماءه ، فأراد استيفن نفسه على كلمة يصل بها الحديث بينه وبينه فلم ير شيئاً أقرب إلى ذهنه من أن يسأله عن ابنته ، ثم بدا له أنه إن فعل أرايه وألقى في نفسه أمراً غير الذي يريد ، وهي المرة الأولى التي خطر له فيها أن في سؤال الرجل عن حال ابنته شيئاً غريباً ، أو أمراً مريباً ؛ ثم استمر مولر في حديثه يقول : إن منظر الطبيعة في هذه الساعة جميل جداً لا يكدره عليّ إلا تلك الرعدة التي أشعر أنها تتمشى في أعضائي ، فما أمر مذاق الشيخوخة ، وما

أثقل مؤنثها ، وسلام على الشباب وعهوده الزاهرة أيام كنت
لا أحفل بنكباء ولا رمضاء ، ولا أبالي أن أبكر في صبيحة كل
يوم تبكير الغراب إلى قمم الجبال وشواطئ الأنهار عاري الرأس
حافي القدم ، أرح وألب وأثائر طرائد الصيد في مسارحها
وملاعبها ، فأصبحت ولم يبق لي من تلك الذكريات إلا وفوفي
في هذه الضاحية تحت هذه الشمس المشرقة أنسج من خيوطها
البيضاء كساء أنقي به هذه الرعدة ، وأمتع نظري بروية الفتيات
الصغيرات صواحب ماجدولين وهن يلعبن معها فوق تلك الهضبة
الثلجية . وهنا وجد استيفن مكان القول ذا سعة فقال : إن ماجدولين
لم تنزل اليوم كمادتها فلعلها بخير ، قال : نعم ، هي بخير ، ولكن
ضيقت من أقرباتنا نزل بنا أمس فلم أر بدأ من أن أكل إليها أمره
والعناية به فتركتهما وذهبت لشأني ، وإن كنت أعلم أن ماجدولين
ليس في استطاعتها الصبر عن النزول إلى الحديقة ، ولا يقنعها
من الشمس تلك الخيوط البيضاء التي تنحدر إليها من نافذة غرفتها .
ثم ذهبنا في الحديث بعد ذلك مذاهب مختلفة ، وإنهما وكذلك
إذ فتح باب المنزل ، وإذا ماجدولين وأرشميد مقبلان يحدهما
فتهلل ، وتحدثه فيتسم ، وكأن منظرهما منظر عاشقين يتغازلان ،
لا قريبين يتسامران ، فخيّل لاستيفن أن هذا المشهد الذي يشهده
غير مستحسن ولا مستعذب .

ثم اقتربا منه فصدف عنهما يتلهى بالنظر إلى بعض الزهرات
وود لو وجد السبيل إلى الهرب منهما لولا أنهما اعترضتا طريقه
فسلما عليه فرد رداً فاتراً .

ثم تركهما مكانهما وانحدر إلى خيمته من الخمائل ، فما خطا
فيها بعض خطوات حتى سمع القتي يغرب في الضحك ، فما

شك أنهما في شأنه ، وأنه قد أصبح موضوع هزئهما وسخريتهما ، وأنهما ماضحكا إلا للعبث به والزراية عليه ، فأحس في قلبه بديب البغض لذلك القتي ، وود يجمع الأتف لو وجد السبيل إلى منزلته في ميدان خصام يضربه فيه ضربة تهشم أنفه وتخضب الذي فيه عيناه ليقنعه أنه ليس سخرية الساخر ، ولا أضحوخة الضاحك .

ثم عاد إلى نفسه يسألها عن السبب في انقباضه ووحشته ، وعن تلك الحال الغريبة التي ألت بفؤاده منذ الساعة ويقول : مالي ولهذا القتي ؟ وبأي حق أحمل له بين جنني ما أحمل من الضغينة والموجدة ؟ فما أنا بعاشق للفتاة فأغار منه عليها ! ولا هو بمزاحم لي على هوى فأبغضه فيه ! ولم يزل يسأل نفسه أمثال هذه الأسئلة فلا نجية ، ويراجع عقله فلا يهديه ، حتى عرف أنه لا يسمع خارج الخليفة صوتاً فبرز من مكمنه فلم ير أمامه أحداً فخرج من الخليفة هائماً على وجهه بين الغابات والأحراش حتى أدبر النهار فعاد إلى المنزل وصعد إلى غرفته ، وإنه ليمر أمام باب غرفة ماجدولين إذ سمع صوت حديث فذكر ما كان قد نسيه ، وعلم أنها تسمر مع قريبها أرشميد ، وأنه لا بد أن يكون سعيداً بهذا الحديث وهذه الخلوة ، فنفس عليه ذلك ، ولا ينفس الإنسان على صاحبه شيئاً يكون في نظره حقيراً ، فترث في مشيته قليلاً حتى علم أنه إن دنا من باب الغرفة لا يشعران بموقفه ، فدنا منهما وأنشأ يتسمع حديثهما فلم يفهم كلمة مما يقولان ، ثم انقطعاً عن الحديث وأنشأت ماجدولين تعني غناء شجياً قد يكون غديلاً للبيدأ في نفس استيقظ لولا أن أذنأ أخرى غير أذنه تراحمه على سماعه ، ثم انقطع الغناء أيضاً فسمع خفق نعال تتقدم نحو الباب . فابتعد عن مكانه حتى خرج القتي وخرجت ماجدولين وراءه تشيعه في غلالة رقيقة بيضاء لا تلبسها الفتاة إلا بين يدي

عشيقها أو من لا تحتشمه من ذوي قرباها ، فرأى في وجهها صورة جديدة غير التي كان يراها من قبل ، وأحس في نفسه بشيء غير الذي كان يحس به عند رؤيتها ، ثم عادت إلى الغرفة وأغلقت الباب وراءها فعاد إلى موقفه الأول ، وما زال راكماً أمام بابها حتى مشت جنوة النهار في فحمة الليل ، فصعد إلى غرفته ، وقد علم أن الذي قام بنفسه منذ اليوم ليس الهذيان ، ولا الجنون ولا الوسواس ، ولا حرارة الحمى كما كان يظن ، وإنما هو الحب !

(٦)

الدعوة

دخل مولر على ابنته ذات يوم فقال : يا بنية إني دعوت اليوم جارنا الذي يسكن في الغرفة العليا من منزلنا إلى العشاء عندنا في الساعة السابعة فأعدي له الطعام ، واعلمي أنك ستغنيان في هذه الليلة فقد وعدته بذلك ، وقد لقيت من كرم هذا الفتى وعلو همته وشدة عارضته وكثرة ذكائه وسعة علمه بالنبات وطبائعه ما حبيبه إليّ ، وأنزله من نفسي المنزل العليا ، ولا بد أن أتخذة صديقاً ، وأن تكون تلك الدعوة فائحة تلك الصداقة ، ثم تركها وخرج إلى الحديقة وظل مشغولاً بشأنه فيها حتى مالت الشمس إلى مغربها فعاد إلى المنزل وجلس إلى نافذة غرفته المطلّة على الحديقة ينتظر ضيفه ، وإنه لكلّ ذلك إذ رآه خارجاً من باب الحديقة يعدو عدواً شديداً ، وفي يده رسالة مفضوضة فهتف بابنته يقول : يا مجبولين ، ما أحسب إلا أن جارنا قد حيل بينه وبين الوفاء بوعده فقد رأيته الساعة خارجاً يعدو من باب الحديقة ، ثم رأيته

قد سلك تلك الطريق التي لا ينتهي فيها السائر إلى غرض إلا بعد
سفر عشرة أميال ، فقالت : لا بد أن يكون قد عرض له شأن
ما كان يقدره في نفسه . فلا بد أن ننتظره حتى يعود . ثم جلسا
صامتين ، هذا يدخن لفاقة وتلك تحيط ثوبها ، حتى علما أنه
لن يعود ، فقاما إلى العشاء ، ثم إلى المنام .

(٧)

الزيارة

جلس مولر إلى ابنته ، فنظر نظرة في النجوم ، وقال : ما
أحسب إلا أن السماء ستمطرنا في هذه الليلة مطراً غزيراً يبلل
هذه التربة الظامئة ، ويملاً هذه البقاع الجرداء ، فما أجمل الربيع ،
وما أجمل غيوثه المنهلة ، وما أجمل أرضه بعد أن يكسوها الغمام
من نسج يده تلك الغلائل الخضراء ، فقالت ماجدولين : لا تنس
يا أبت أن كثيراً من ضعفاء السابلة وطرائد الليل يعانون في مثل
هذه الليلة الماطرة من تدفق الفيوث فوق رؤوسهم واعتراض
الوحول في طريقهم ، وبعد الشقة عليهم ما لا طاقة لهم باحتماله ،
فوارحمتاه لهم إن الشقاء كامن لهم في كل شيء حتى في الشؤون
التي يسعد بها غيرهم ، فاكأب مولر وقال : نعم يا ماجدولين
لإنهم أشقياء بؤساء ولا بد أن يكون استيقن واحداً منهم ، فقد
مر المزيج الأول من الليل ، ولم يعد إلى المنزل حتى الساعة بعد
ما قضى ليلة أمس خارجه ، فأخذت هذه الكلمة مكانها من نفس
ماجدولين فأطرقت برأسها تغلب صحائف كتابها ولا تقرأ منه
شيئاً ، وإنهما لكذلك إذا طارق يمتحن الباب خففاً ضعيفاً ،

فاضطربت ماجدولين ودهش مولر وقامت جتيفاف إلى الباب
فتحتته فإذا استيفن مائل بعثته فاستاذن ودخل ، وهو يقول :
عفواً يا سيدي إن كنت ترى أنني لم أف لك بوعدى فقد أرسل
إليّ أخي كتاباً يدعوني فيه إلى مقابلته على الحدود لتوديعه قبل
سفره إلى الحرب ، فأعجلني كتابه عن كل شيء حتى عن اعتذاري
إليك فمشيت إليه عشرة أميال لا أتريث ولا أتند حتى بلغته فودعته
وداعاً جمع بين السرور له والحزن عليه . أما السرور فلأنني
رأيت فرحاً مغتبطاً برحلته يغني أنشودة الحرب مرة ، ويلعب
جواده أخرى ، ويمشي مشية الخيلاء بن ريش قبعة وخمائل
سيفه ، وأما الحزن فلأنني أخاف أن يسيقي القلدر إليه فيحول بيني
وبينه ، فأصبح في هذه الحياة غريباً منفرداً ، لا أجد بين هذه
القلوب الخالقة حولي قلباً يحزن لحزني ، ولا بين هذه
العيون الناضرة إليّ عينا تبكي ليكائي ، وهنا ذرفت من عينه دموع
كادت تبكي لها ماجدولين ، ولكنها لم تفعل ذلك حياءً وخجلاً ،
وألقت عليه نظرة عطف ورحمة من حيث لا يشعر ، حتى إذا
التفت إليها استردت نظرتها وألقتها على صفحة كتابها ، فقال
مولر : لا تجزع يا بني فالله أرحم بك من أخيك وأرحم بأخيك
من نفسه ، ثم أخذ ييده إلى مائدة الشاي وجلسا يشربان معاً وأنشأ
مولر يتحدث صاحبه عن الشاي ومفرسه ، ومنبته وأعواده وأوراقه ،
وأنواعه وألوانه ، وطريقة طبخه وأصل كلمته ومصدر اشتقاقها
وآراء علماء النبات في ذلك وردود بعضهم على بعض وردوده
هو عليهم جميعاً ، وما زال يثرثر في ذلك ويسهب طائناً أن استيفن
حاضر معه واستيفن عنه في شغل بما يختلس من نظرات ماجدولين
وما تختلس من نظراته حتى فرغاً من شأنهما ، فاقترح مولر على
ابنته أن تغني لهما صوتاً فأنشأت تغنيه بنغمة تحالطها رعدة الخلائف

أو رقة المحزون ، فما أتت عليه حتى طرب له استيفن طرباً ملك
عليه قلبه وأحاط بمواطنه ومشاعره ، وشمر كأن القضاء يدور
به ، وكأن قد بدلت الأرض غير الأرض والسماوات ثم خاف
أن يمتد به شوطه إلى أبعد من ذلك فتناهض للقيام فمشى معه
مومر إلى الباب يشيحه ويقول : زرنا يا استيفن كلما بدا لك أن
تفعل ، فما دون مزارك باب موصد ، فانصرف بقلب غير قلبه ،
وعقل غير عقله ، وحال بين جنبه غريبة لا عهد له بمثلها
من قبل .

(٨)

المرأة

قضت ماجدولين ليلتها راكعة في معبدها مستغرقة في صلاتها
تدعو الله تعالى أن يعينها على أمرها ، وينير لها ظلمة هذه الحياة
الجديدة التي بدأت تسير فيها ، وقد ألت بنفسها في تلك الساعة
عاطفة غريبة متنوعة الألوان مختلفة الأشكال ، كأنما هي مزيج
من الحب والخوف والسرور والحزن والأمل الواسع ، والرجاء
الخائب ، فكانت تنسم مرة حتى تلمع ثناياها وتبكي أخرى حتى
يبتل رداؤها ، ولا تعلم ما الذي أضحكها ، ولا ما الذي أبكها
ولم تزل على حالها تلك حتى حلق طائر الكرى فوق أجفانها ،
فاضطجعت في مصلاها ، وأسلمت روحها إلى خالقها .

أما استيفن فقضى ليله جالساً إلى نافذة غرفته يقلب وجهه في
السماء كأنما هو يساهر كواكبها ونجومها ، ويفضي إليها بما ألم

بنفسه في تلك الساعة من سروره إلا أنه أصبح يشعر في نفسه ببرد الراحة من البحث على ضالة غرام ظل ينشدها ويتعلق بأثارها عهداً طويلاً حتى وجدها . وأن نفسه التي كانت حبيسة بين جنبيه قد أشرقت عليها شمس الحب فانتعشت ورفرفت بجناحيها في الفضاء . فأنشأ يحدث نفسه ويقول : أحملك اللهم فقد ظفرت بالحياة التي كنت أقدرها لنفسي ، ووجدت المرأة التي كنت أصورها في مخيلتي ، وما المرأة إلا الأفق الذي تشرق منه شمس السعادة على هذا الكون فتنير ظلمته ، والبريد الذي يحمل على يده نعمة الخالق إلى المخلوق ، والهواء المتردد الذي يهب الإنسان حياته وقوته ، والممرج الذي تعرج فيه النفوس من الملأ الأدنى إلى الملأ الأعلى ، والرسول الإلهي الذي يطالع المؤمن في وجهه جمال الله وجلاله ، ففي وجه هذه الفتاة التي عثرت بها اليوم قد عثرت بجاني وسعادي ، وبقيتي وإعاني .

وكان يخيل إليه وهو يحدث نفسه بهذا الحديث أن الحب الذي ملأ قلبه قد فاض عنه إلى جميع الكائنات التي يراها بين يديه ، فكان يرى في صفحة السماء صورة الحب ، ويسمع في حفيف الأشجار صوت الحب ، ويستروح في النسيم المترقق رائحة الحب ، ويرى في كل ذرة ثغراً باسماء ، وفي كل نائمة عوداً ناعماً .

ولم يزل يهتف بهذه التصورات حتى انحدر برقع الليل عن وجه الصباح فهجع في مرقده قليلاً . ثم قام فزل إلى الحديقة يترب نزول ماجدولين إلى منتزهاتها فلم تنزل حتى أخذت الشمس مكانها من كبد السماء ، فرا به من أمرها ما رابه فلم ير بداً من زيارة مولر فمشى إلى المنزل بقدم مضطربة وقلب خفاق حتى بلغ الباب فقرعه ، ثم شعر أن شعبة من شعب قلبه قد سقطت

بين أضلاعه ، وأن لسانه قد التوى عليه فأصبح لا ينطق ولا يبين
فقدم على أن لم يكن قد سلك سبيلاً غير تلك السبيل ، وتمنى لو
فرت الخادم قليلاً في خطواتها إليه حتى يستجمع رويته وأثاته ،
ويسترد إليه ما تفرق من شمله ، فكان له ما تمناه ولم تفتح جنيفاف
الباب إلا بعد فراغها من شأن كان لها ، فسلما أين مولر فمشت
أمامه إلى قاعة الأضياف ثم تركته وذهبت لتخبر سيدها بمكانه ،
وكان يقرأ في قاعة الكعب ؛ فلما خلا استيقن بنفسه أخذ يدور
بعينه في جوانب الغرفة فرأى على مقربة منه باباً مفتوحاً يلوح
من ورائه سرير قائم ، فعلم أنه مخدع ماجدولين ، فتسمع فلم
ير أحداً فهاجه الشوق إلى اقتحامه فافتحمة ، وهو يعلم أنها
المخاطرة بعينها ولكنه كان على حال لا ينتفع فيها بما يعلم ، فدخل
واقرب من السرير فوجد الفراش لا يزال مشعثاً ، ولكان رأس
ماجدولين من الوسادة لا يزال منخفضاً ، ورأى بين يدي السرير
حوضاً مملوءاً ماء وإلى جانبه كرسي قد انتشر فوقه رداء مبتل ،
ثم نظر إلى الأرض فرأى بللاً يمثل أقداماً صغيرة ، فعلم أن في
هذا السرير كانت ماجدولين نائمة ، وفي هذا الماء كانت تبرد
وبهذا الرداء كانت تتمسح ، وعلى هذه الأرض كانت تنتقل ،
فجمد في مكانه بجمود الصم في هيكله ، وأخذ يقول في نفسه
لقد سعد السرير الذي لامسها ، والرداء الذي ضمها ، والأرض
التي لثمت أقدامها ، والماء الذي انحدر على جسمها ، ثم مشى
إلى الرداء المنتشر فأخذ يلثمه كما يلثم العابد المتشدد ستائر معبده .

وتهاقت على الأرض يقبل آثار تلك الأقدام . ثم خيل إليه
أنه يسمع من ورائه صوتاً فرجع إلى نفسه وعاد منفثاً إلى مكانه
الأول ، فما لبث إلا قليلاً حتى دخل عليه مولر فحياه وقال له :
عفواً يا استيفن فقد شغلني عنك أني كنت أفتش في قواميس اللغة

عن أصول أعلام نباتية ما زلت معنياً بأمرها منذ اليوم ، فهل لك أن تكون عوناً لي عليها على شرط أن لا تفارق منزلي قبل الغداء ، فابتسم استيقن ابتسامة الرضا والقبول ، لأنه علم أنه سيقضي وقتاً طويلاً في منزل ماجدولين . ثم ذهباً معاً إلى قاعة الكتب فلما أخذنا مكانهما منها أنشأ مولر يسرد على صاحبه تلك الأعلام التي يقول إنها تشغله ويشرح له مدلولاتها وما رآه علماء النبات في مصادر اشتقاقها وما بدا له في المآخذ عليهم ؛ فإذا ورد في كلامه اسم كتاب قام إلى خزانة الكتب واستخرجه وتصفح أوراقه حتى يجد الكلمة التي يريد بها فيتلوها بنغمة الهازيء الساخر ويقول : هكذا يرى الأستاذ فلان ! أما أنا فأرى غير ما يراه ، وماذا عليّ إن بدا لي غير ما بدا له فالعلم ليس وفقاً على المؤلفين والمدونين ! وإنما هو قرع الحجّة بالحجة ودفع الرأي بالرأي .

وما زال يهملر في حديثه هدير الجمل المخشوش واستيقن لاه يردد النظر إلى باب القاعة من حين إلى حين عله يرى ماجدولين داخله ، فقال له مولر : أراك تنظر إلى الباب كثيراً كأنك تخاف أن يلبح علينا الغرفة والحب فيكدر علينا خلوتنا ، فاعلم أنه ما من أحد في هذا المنزل يستطيع أن يخالف أمري ويقترح عليّ باب قاعتي من غير إذن ، وهنا صاحبت الخادم تدعوه إلى الغداء فلم يقطع حديثه ، فصاحت به مرة أخرى فنهض متثاقلاً ومشى متباطئاً لا يقطع حديثه حتى وصلا إلى غرفة الطعام ، فراح استيقن أنه لم ير حول المائدة غير مقعدين ، فعلم أن أحدهما له ، وأن الآخر لا يمكن أن يكون لأحد غير مولر ؛ فوجم وجوم الخزير المكتئب واستمر يأكل صامتاً لا يتحدث ولا يصغي إلى حديث حتى فرغاً ، فقال له مولر : لقد أراد الله بي خيراً إذ أرسلك إليّ في هذا اليوم فقد كدت لا أجد لي في هذه الوحدة مؤنساً ،

ولا على هذه المائدة رفيقاً ، فإن ابنتي سافرت منذ الصباح لزيارة
إحدى صواحبها ولا أحسبها راجعة قبل المساء فهل لك أن تنزل
الحديقة لترتاض فيها قليلاً ؟ فزلا ، فما أمعنا فيها إلا قليلاً
حتى سمع مولر صوت الخادم تصيح به من النافذة أن قد عادت
سيدتها ، فمد يده إلى استيفن مودعاً وتركه مكانه حائراً مشلولهاً
ويس وراء ما به من الهم غاية .

(٩)

الحيرة

كان من أمر استيفن بعد ذلك أنه كلما رأى ماجدولين في
الحديقة فر من وجهها ، وسلك طريقاً غير طريقه ، ليخلو بنفسه
لحظة يصور فيها الموقف الذي يقفه بين يديها ، والتحية التي يحمل
به أن يحميها بها ، فلا يصل إلى ما يريد من ذلك حتى يراها راجعة
أدراجها إلى المنزل ، فكان يحمل في سبيل ذلك من الهم ما يقلق
مضجعه ويظيل سنده ، ويحول بينه وبين قراره ، فلا يرى بداً
من القرار بنفسه إلى الغابات والأجمات والهام على وجهه في
قمم الجبال ، وعلى ضفاف الأنهار ليرّوح عن نفسه بعض ما ألم
بها ، واستمر على ذلك أياماً طوالاً لا يمشي في الحديقة ولا يرى
ماجدولين ولا يزور مولر ، حتى تلفت نفسه ، وذهب به اليأس
كل مذهب ، فعاد يوماً من بعض مذاهبه محمواً لا يكاد يتماسك
ضعفاً واضطراباً فلزم غرفته أياماً يعالج داء قلبه وداء جسمه ما
لا طاقة له باحتماله .

وكانت جنيف قد ألت بحيلة حاله فكشفت بها سيدتها فصعد

إلى غرفته ليعوده فرآه مستيقظاً بعض الاستفاقة فسأله عما به فانتحل له عنراً فجلس إليه بحادثه ساعة ، فلما أراد القيام مد استيقن يده إلى طاقة بنفسج كانت في آتية إلى جانب وسادته وقال له : إني جمعت هذه الطاقة للماجدولين لأنني أعلم ولعها بالغريب المستطرف من الزهر ، فلعلك تنوب عني في تقديمها إليها ، فأخذها مولر شاكرأ وانصرف .

ومرت بعد ذلك أيام كان فيها استيقن بين يأس الحياة ورجائها حتى أدركته رحمة الله فأبل من مرضه فزل إلى الحديقة وقد استقر في نفسه العزم على أن لا يفر من وجه ماجدولين إذا رآها وأن يتقدم نحوها فيحييها ويحادثها ، وينفض لها جملة حاله ، ولم يلبث أن رآها مقبلة عليه وجهاً لوجه فلم ير سبيلاً للقرار من بين يديها ، فحياها فحيته ثم أغضى فأغضت ، فلم ير بداً من المخاطرة بكلمة يخرج بها من هذا الصمت المعيب ، فاستنصر قوته وتجمع تجمع من يريد الوثوب فوق هوة عميقة ، وأراد أن يقول شيئاً فسمعها تتكلم ، فاستفاق وحمد الله على أن كفاه تلك المروءة ، قالت : أراك يا سيدي شاحب اللون ، خائر النفس فلعلك عاجلت من مرضك هذا عناء كبيراً ، قال : نعم ، قالت : أشكر لك يا سيدي هديتك الثمينة التي بعثت بها إليّ ، ولقد أعجبتني منها أن تلك الزهرة هي أحب الزهور إليّ ، فكأنما ألهمت ما في نفسي ، وإني أعجب لشعرائنا في إغفالهم ذكر هذه الزهرة في أشعارهم كما ذكروا غيرها مما لا يقوم مقامها ، ولا يكافئها في حسنها وروائها ، ولا أذكر أنني قرأت لأحد منهم شعراً فيها إلا قطعة صغيرة لشاعرنا جيّ ، وهنا وجد استيقن متسعاً في الحديث عن الشعر والشعراء ، والنبات والزهر ، فاستمر يحادثها ساعة حتى حان وقت رجوعها فودعته وانصرفت ، فصعد إلى غرفته وقد

عزم أن يرسلها فيما عجز عن مقاضتها فيه .

(١٠)

من سوزان الى ماجدولين

كنا قد عزمنا على أن نزورك في قرينك يا ماجدولين أنا ووالدي
فحدث حادث حال بيننا وبين ذلك : دعانا أحد الاصدقاء لزيارته في
بلدته ، وهي على بعد ثلاثة فراسخ من قرينتا ، ولا تبعد عن قرينك
إلا قليلا فذهبنا إليه صبيحة يوم وقضينا في منزله عدة ساعات
حتى إذا زلفت الشمس عن كبد السماء خرج القوم إلى الحلاء
للتزه في غاباته وأجماته ، وأنت تعلمين فيما تعلمين من أمري
أنني لا أجد في نفسي تلك اللذة التي يجدها الشعراء المتخيلون في
جمال الطبيعة وحسنها ، وبهجتها وروائها ، ولا أغتبط بما يغتبطون
به من منظر الغابات والأحراش والجبال والآكام ، ولا أطرب
لحرير الماء ، ودوي الريح ، وهزم الرعد ، وحرارة الشمس ،
ووعث الطريق ، وخشونة الأرض ، واقتحام الصخور ، والتعرُّ
بين أغوار الفلاة وأنجادها ، كما يطربون ، ولكنني لم أر بدأ
من مصانعتهم ومجاملتهم ، فمشيت صامتة ومشوا يتحدثون بحمال
الحياة القروية ، ويتملحون بعيش العزلة بين سكوك الطبيعة
وهلوئها ، وجمال الكائنات وجلالها ، والله يعلم أنه ما من أحد
منهم يعلم من نفسه أنه صادق فيما يقول ، أو أنه يتمنى لنفسه
ذلك الشقاء الذي يحسد الأشقياء عليه ، فكان مثلهم في ذلك كمثل
أولئك الكتاب المرايين الذين يكتبون الفصول الطوال في مدح
الفلاح ، والتنويه بذكره ، والثناء على يده البيضاء في خدمة المجتمع
الإنساني ، حتى إذا مر ذلك المسكين بأحدهم وأراد أن يمد يده

لمصافحته تراجع وكهكف يده ضناً بها أن تلوثها بأقذارها تلك اليد السوداء .

وما زلنا كذلك حتى بلغنا شاطئ النهر فراعنا أن رأينا هنالك جمعاً عظيماً من الناس يتدفع فوق الشاطئ الآخر تدفع الموج المتراكم ، ويشير إلى الماء بأصبعه وينادي : الغريق الغريق ، النجدة النجدة ! فالتفتنا حيث أشاروا ؛ فإذا رجل بين معترك الأمواج يصارع الموت والموت يصصره ويغالب القضاء والقضاء يغلبه ، يطفو تارة فيمد يده الى الناس فلا يجد يدأً تمتد إليه ، ويرسب أخرى حتى تنبسط فوقه صفحة النهر فتحسبه من الها لकिन ، وما زال يتخبط ويتشبث ، ويظهر ، ثم يختفي ، ويتحرك ثم يسكن ، حتى كلّ ساعده ، ووهت قوته ، وابيضت عيناه ، واستحال أديمه ، ولم يبق أمام أعيننا منه إلا رأس يضطرب ، ويد تتخلىج ، فيبكي الباكون وأعول المعولون ، ونظر الناس بعضهم الى بعض كأنما يتساءلون عن رجل رحيم ، أو شهيم كريم ، وإنهم لكذلك إذا رجل عار يدفع الجمع بمنكييه ، وينزلق بين الناس انزلاق السهم إلى الرمية ، حتى ألقى بنفسه في النهر وسيح حيث هبط الغريق فهبط وراءه ، وما هي إلا نظرة والتفاتة أن انفرج الماء عنهما فإذا هما صاعدان ، وقد أمسك الرجل بذراع الغريق . فكبر الناس إعجاباً بهمة المخلص ، وفرحاً بنجاة المسكين .

ولكننا ما كدنا نستفيق من هذا المنظر المحزن حتى راعنا منظر آخر أجل منه وقعاً وأعظم هولاً ، فقد رأينا الغريق كأنما جن جنونه فظن أن مخلصه يريد به شراً ، وأنه ما أمسك بذراعه إلا وهو يريد أن يهوي به إلى قاع الماء فيعيده سيرته الأولى ، فأقلت منه وضربه بجميع يده في صدره ضربة شديدة ، ثم أنشب أظافره

في عتقه ولفه بساقيه لفة خلنا أن عظامه تن لما أنبأ ، فاستأس
الرجل وعلم أنه هالك ما من ذلك يد ، فرفع يديه إلى السماء
وهتف بإسم أظنه اسمك يا ماجدولين ، فلم أفهم ماذا يريد ،
ولا من هي تلك التي يريد ، ثم ما لبثا أن هوى الماء بهما ، وجرى
بجراه فوقهما ، فحقت القلوب ، ووجفت الصدور وخفت
الأصوات وامتدت الأعناق ، وتوالت الأحشاء وترايلت الأعضاء ،
ومشى اليأس في الرجاء مشي الظلام في الأضواء ، ومرت على
ذلك دقائق لا تضطرب فيها موجة ، ولا تهب نسمة ، ففزعت
إلى أبي ذاهلة حائرة وقلت : أيتعذب الغرقى كثيراً في مصارعة
الموت ؟ فبكى ليكائي ، وقال : نعم يا بنية ، ولقد يبلغ الأمر
بعضهم أن يدور يده في قاع الماء يفتش عن حجر يضرب به
رأسه ضربة قاضية يستريح بها من الآلام والأوجاع . فركعت
على كتيب من الرمل ورفعت إلى السماء يدي وقلت اللهم إنك
أعدل من أن تجازي بالإحسان سوءاً وبالخير شراً ، فلقد أبلى هذا
الرجل في إنقاذ هذا الغريق بلاء حسناً ، وبذل في سبيل ذلك من
ذات نفسه ما ضمن به الناس جميعاً ، فامدد يدك البيضاء التي
طالما مدتها لإنقاذ البائسين واكشف عنه كربته التي يعالجها إنك
أرحم الراحمين .

ثم استغرقت في دعائي ، فلم أعد أشعر بشيء مما حولي ،
حتى سمعت ضجة على الشاطئ فاستيقظت ، فإذا النهر يتشاب
عن الرجل ، وإذا الرجل صاعد وحده حتى بلغ سطح الماء فهتف
به الناس : أن انج بنفسك فقد أبليت ! فأبى عليه كرمه ووفاءه
أن يكون قاسياً أو متقماً ، فألقى بنفسه في الماء مرة أخرى ،
وداد بالغريق بحمله على كتفه ، وما زال يسبح به حتى بلغ الشاطئ
فسقطا جميعاً . فتولى القوم أمرهما ، وما زالوا بهما حتى أفاقا ،

فمشى الغريق إلى مخلصه بعد ما ألم بقصته معه يتوجع له ويمسحه ،
ويشكر له يده عنده ، ويعتذر له عن ذنبه إليه ، ثم انفض الجميع ،
وبقي الرجل وحده فليس ثيابه ، ثم مشى يتحامل على نفسه إلى
شجرات بنفسج كن على الشاطئ فأخذ يقتطف من زهراتها
ويضعها في منطقتة ، كأنما يريد أن يتخذ منها طاقة يجعلها لتلك
الحادثة تذكاراً ، فركناه على حالة وعدنا إلى المنزل صامتين
محزونين ، وقد فاتنا ما كنا نؤمل من زيارتك في ذلك اليوم .

لا أستطيع أن أكتب إليك غير هذا ، فقد أصبحت لا
أذكر تلك الحادثة إلا وأجد لذكرها من الألم في نفسي ما
يخيل إلي أنها حاضرة بين يدي ، وربما كتبت إليك فيما بعد ،
والسلام .

(١١)

المكاشفة

مال ميزان النهار ، وانحدرت الشمس إلى مغربها ، ودب
الظلام في الأضواء ديب البغضاء في الأحشاء وسكن كل صوت
إلا صوت العصافير المزدحمة على أبواب أعشاشها . وجلس
استيفن في الحديقة تحت ظلال أشجار الزيزفون يترقب نزول
ماجدولين . وقد كتب لها كتاباً نطق فيه قلمه بما عجز عنه لسانه ،
فنشره بين يديه وأنشأ يقلب نظره فيه فخيّل إليه أنه غير مستعذب
ولا سائق ، وأن في كل جملة من جملة موضع ضعف ، فاستقر
رأيه على أن يطويه حتى يكتب لها خيراً منه ، ثم رآها مقبلة نحوه
تحمل في يدها كتاباً ، فلما دنت منه ابتسمت له وقالت له : أتذكر

يا سيدي مكان الشجرات التي اقتطفت منها زهرات البنفسج
التي أهديتها إليّ؟ فاضطرب لسؤالها ، وقال : نعم ، إنها على
ضفة نهر صغير يبعد عنا فرسخاً أو فرسخين ، قالت : اقرأ هذا
الكتاب فإن لك فيه ذكراً ؛ فأخذ منها كتاب سوزان في حادثة
الغريق وأمر نظره عليه مراراً فعرف كل شيء فرده إليها صامتاً
وهو لا يدري ماذا يقول ، فقالت : إنك تكتم عني نفسك يا
استيفن فقد عرفتك وعرفت يدك البيضاء في حادثة الغرق وبلاءك
فيها وما عابجت من آلام الحمى على أثرها ، ثم مدت يدها إليه
فصافحته ، فلم يكن بين تلامس كفيهما ، وخفوق قلبيهما ،
إلا كما يكون بين تلامس أسلاك الكهرباء واشتعال مصابيحها ،
وليثا بعد ذلك ساعة صامتين لا ينطقان ، إلا أن في الجبين لغة
لا تقرأها إلا العيون ، فقرأ استيفن في وجه ماجدولين لوحة الحب
وألَم الحزن ، واضطراب الجأش وحيرة النفس ، وقرأت في وجهه
الحب والسعادة والدهشة والسرور المتلألئ والدمع المترقق فهاجها
هذا المنظر فأرسلت من محاجرها أول دمعة من دموع الحب ،
فبكى لبكائها وحنا عليها حنو المرضعات على القطم ، وشعر في
نفسه وقد ضمها إليه بتلك العاطفة اللذيذة التي يجدها الغريب النائي
عن أهله وجيرانه إذا لاقى في مطارح غربته غريباً مثله يأوي إليه ،
ويحنو عليه ، ثم أخذ يدها فألصقها بكبده كما يفعل المريض بيد
عائده ليدله على موضع ألمه ، وكأنما هو يقول لها : إن لغة اللسان
لا تكشف لك عما اشتملت عليه أضالعي من الوجد بك ، والحنين
إليك ، فالسمي قلبي بيلك لتعرفي مكتونه ، وتكشفي غامض سريره ،
ثم خر راکماً بين يديها وقال : أتحييني يا ماجدولين ؟ فلم تجب ،
فأعاد كلمته فاستمرت في صمتها ، فمد يده إليها ضارِعاً وقال :
رحماك يا ماجدولين ، إنني أخاف أن أكون في حلم ، وأن تكون

هذه السعادة التي أراها بين يدي خيلاً من الخيالات الكاذبة التي كانت تترأى في أحلامي الماضية فأغبط بها وأسكن إليها حتى إذا ما استيقظت وجدت يدي صفراً منها ، فأسمعني كلمة الحب لأعلم أنك حاضرة لدي ، وأني لست واهماً ولا حالماً .

ومرت بهما على ذلك ساعة لا يعرف مكانها من نفسها إلا من مرت به في يوم من أيام شبابه ساعة مثلها ، فقد كانا يشعرا -
أنهما في معزل عن العالم ، وأن مكانهما من تلك الحديقة في انفرادهما وسكونهما وهنأتهما وغطتهما مكان آدم وحواء من جنتهما ، قبل أن يأكلا الشجرة ويهبطا إلى الأرض ، وأن روحهما قد تجردت عن جسمهما فطارت ترفرف بأجنحتها في فضاء الملاء الأعلى ، فرأت مدارات الشمس في أفلاكها وحركات الكواكب في منازلها ، ومرت بين صفوف الملائكة ، وسمعت زجلها وتسييحها تحت قوائم العرش ، ودخلت جنة الخلد فرأت حورها وولدانها ، ولؤلؤها ، ومرجانها ، وروحها وريحانها ، فلم يستيقظا من غمرتهما حتى سمعت ماجدولين صوت جنتياف تناديا ، فمدت إليه يدها مودعة وهي تقول : غداً في مثل هذه الساعة في هذا المكان ، فمد يده إليها ذاهلاً لا يعلم ماذا يراد به ثم مضت ومضى بنظراته على آثارها حتى اختفت آخر طية من طيات رداثها الأبيض ، فجمد في مكانه ساعة لا يتحرك ولا يلتفت كأنما يتخيل أنها لا تزال جالسة بين يديه ، فلما سمع خفق بابها دار بعينه حول نفسه يمتة ويسرة فعلم أنه جالس وحده .

النشوة

خرج استيفن بعد ذهاب ماجدولين هائماً على وجهه يعدو في عرض الفضاء يتحدر إلى يمينه مرة وإلى يساره أخرى ، وكأنما يريد أن يشهد الأرض والسماء ، والبحار والأنهار ، والجبال السماء ، والسهول الفيحاء ، والحيوان الناطق ، والجماد الصامت ، على سروره وغبطته ، وكان يشعر في نفسه أن السعادة التي نالها هي فوق ما يحتمل طوقه . فكان كلما مر بأحد من الناس حدثته نفسه أن يفضي إليه بقصته ليحمل عنه جزءاً من سعادته ومر بأطفال يلعبون فجمعهم حوله وأخذ يقبلهم واحداً بعد واحد ، ثم نشر عليهم كل ما معه من المال ، ويوده لو ملك مفاتيح الأرزاق فأسبغ على الناس جميعاً أنعمه وآلاءه فمحا بؤسهم وشقاءهم ، وما زال يتغلغل في أحشاء الظلام متيامناً متياسراً صاعداً منحدراً ، حتى رأى باب الحديقة مفتوحاً بين يديه فاقتحمه ومشى إلى مكانه الأول فجلس فيه وأخذ ينظر إلى شعاع النور المنبعث من بين ستائر غرفة ماجدولين فخيّل إليه أنه يرى قيامها وقعودها ، وجيئتها وذهابها ، ويسمع خفيف ثوبها ، ونخشخشة أوراق كتابها ، حتى انطفأ المصباح ، فصعد إلى غرفته وجلس إلى مكتبه يكتب إليها كتاباً طويلاً ، ثم نال منه التعب فقام إلى سريره ونام نوماً هادئاً لذيلاً حلم فيه أحلاماً ما رأى مثلاً بعد ليالي طاف بها الحزن .

(١٣)

من استيفن الى ماجلولين

لا أزال أشعر حتى الساعة بجمال ذلك المقام الذي قمته بين
يديك أمس ولا أزال ألمس صدري يدي لأعلم أين مكان قلبي
من أضياعي غفافة أن يكون قد طار سروراً بتلك السعادة التي هي
كل ما يتمنى المحب أن يكون ، والتي لا أعتقد أن أبناء الخلود
يقدرون لأنفسهم في دار نعيمهم خيراً منها ، ولو أن لأمرى
أن يعبد من يسدي إليه أفضل النعم وأسبغها ، وأجمعها لكل خير
وبر ، لوجدتني يا ماجلولين ساجداً بين يديك في كل مطلع شمس
سجود العبد الشاكر للإله المتعم .

إن الله لم يهبني نعمة الجمال التي وهبك ، ولم يجعلني بمثل ما
جملك به من رقة الحس وعذوبة النفس ، فإن أنت أحببتني فقد
أحببت فتي مجرداً من مزايا الفتيان ، لا يستطيع أن يمت إليك
بمثل ما تتمين به إليه ، ولا أن ينيلك من السعادة ما أنلته منها ،
فإن كنت ترين أن الإخلاص في الحب والوفاء بالعهد ، وهبة
النفس هبة خالصة بلا ندم ولا أسف ، مزية أستحق لها محبتك ،
فها أنلها أقدمها بين يديك ، فقبلها مني وقولي إنك سعيدة .
كما أنا سعيد بك .

(١٤)

العهد

قدم استيفن كتابه إلى ماجلولين يداً بيد فدهشت حينما رآته

والأقت عليه نظرة الحائر المتردد ، فنظر إليها استيفن نظرة المتوصل المستعطف ، فتناولته منه وخبأته في ثنايا صدرها ، وقالت : أصحيح يا استيفن ما حدثني به سوزان في كتابها أن اسمي كان آخر كلمة هفتت بها في الساعة التي كنت تحسب أنها آخر ساعاتك في الحياة ؟ قال : نعم ، ولقد نلت ببركة هذا الاسم ما كنت أقدر لنفسي من النجاة عندما هفتت به ، فقد علمت أن الله ما منحك هذه المنحة من الجمال ولا جملك بما جملك به من محاسن الخلال ، إلا وأنت آخر بنات حواء عنده ، وأكرمهن عليه ، فهو أضن بك من أن يرح قلباً يحقق بحبك ، أو ينخرس لساناً يهتف بذكرك ، فعذت باسمك في شدي كما يعوذ المؤمن في شدته باسم الله ، فكان لي خير معاذ وملاذ ، قالت : إنك قد لقيت في شدتك هذه عناء كبيراً ، ولقد كنت فيما فعلت من القوم المحسنين ، قال : فلما كنت محسناً قبل اليوم ، ولكنه الحب ملأ القلب رحمة وحناناً ويصغر في عينيه عظام الأمور وجلالها ويوحى إليه أفضل الأعمال وأشرفها . أما ما لقيت في ذلك اليوم فقد كان فوق ما يحتمل المحتمل ، فقد خيل إليّ أنني أهوى في منحدر لا أعرف له قراراً ، وأن جسمي يتفتح عن روحي تفتحاً فتملس منه إملاس الفرخ من يبيضته ، فلما ذكرتلك استروحت من ذكراك ما استروح يعقوب من قميص يوسف ، فلما نجوت علمت أنك سبب نجاتي ، فما بلغت الشاطئ حتى جمعت تلك الزهرات فأرسلتها إليك تذكيراً لتلك النعمة السابقة التي أسديتها إليّ ، فمدت يدها إلى صدرها ، وأخرجت منه طاقة زنبق وقالت : إن أبي قد جمع لي بها هذه الأزهار صباح هذا اليوم فأنا أقدمها إليك ردّاً لحنيتك التي حيينني بها ، فتناولها منها ونثرها بين يديه وأخذ يولف بين أشاتها وينظمها في سلك مستدير حتى صارت إكليلاً جميلاً

فوضعه على رأسها وقال : إن من يرى هذا الإكليل الزاهر فوق هذا الجبين الساطع لا يرى إلا أنه إكليل عرس على رأس عروس فأخذت كلمته هذه مأخذها من نفسها فأطرقت قليلاً ، ثم رفعت رأسها فإذا دمة رقاقة تترجح في محجرتها . فقال : لا تبكي يا ماجلولين ، فما في قوى في هذا العالم كلها قوة تستطيع أن تحول بيني وبينك ، قالت : إنما أبكي خوفاً من الحب ، وما أنا إلا فتاة مسكينة منقطعة أشعر بالحيرة التي تشعر بها كل فتاة لا أم لها ترشدها ولا ناصر لها يعينها ، قال : ألا تعتقدين أن قلبك نقي طاهر ؟ قالت : ذلك ما أعتقده وأشهد الله عليه ، قال : إذن فالله هو الذي ينصرك ويعينك ، وهو الذي يأخذ بيدك في حيرتك وينير لك السبيل في ظلمات هذه الحياة ، لا تخافي من الحب يا ماجلولين ، ولا تخافي من غضب الله فيه ، واعلمي أن الذي خلق الشمس وأودعها النور ، والزهور وأودعها العطر ، والجسم وأودعها الروح ، والعين وأودعها النور ، قد خلق القلب وأودعه الحب ، وما يبارك الله شيئاً كما يبارك القلبين الطاهرين المتحابين لأنهما ما تحابا إلا إذعاناً لإرادته ، ولا تعاقد إلا أخذاً بسته في عباده ، فاملدي إليّ يدك وأقسمي بما أقسم به أن نعيش معاً . فإن قدر لنا أن نفرق كان ذلك الفراق آخر عهدنا بالحياة ، فمدت إليه يدها فقبضها وتعاهدا ، وكانت الشمس قد انحدرت إلى مغربها فافترقا .

(١٥)

من إستيفن إلى ماجلولين

كتبك إليك كثيراً فلم تكتبي إليّ كثيراً ولا قليلا ، لأنك

تعتقدين ما يعتقد كثر من النساء من أن المرأة التي تكذب إلى حبيبها كتاب حب آثمة أو غير شريفة ؛ أما أنا فأعتقد أنها إن لم تفعل فهي مرائية مصانعة لأن المرأة التي وهبت قلبها هبة خالصة لا يحالطها شك ، ولا رية ، لا ترى مانعاً يمنعها من أن تكذب لحبيبها في غيبته ، بمثل ما تحدثه به في حضرته .

إن الحيلة في الحب رأي تراه لنفسها المرأة البغي التي تتخذ لما كل يوم حياً تقسم بين يديه بكل محرقة من الإيمان أنها ما فتحت باب قلبها لزائر قبله ، فهي تخاف أن تسجل يدها على نفسها في يومها ما يفسد عليها أمرها في غدها ، أما المرأة الشريفة فما أغناها من ذلك كله ، لأنها تحب فتخلص فتقول ، فتكتب ما تقول .

أكتب إليّ يا ماجدولين ، فإن الذي يستطيع أن يكتم سر حديثك لا يعجز عن أن يكتم سر كتابك ، واعلمي أن رجلاً غيبي ذلك الذي يتخذ من رسائله سيفاً يجرده فوق عنقه ، إن بدا لك في الفرار منه رأي ، وإن فتاة غيرك تلك التي ترضى لنفسها أن تهب قلبها إلى رجل يتجر بأسرار النساء .

(١٦)

البحيرة

مضت على استيفن وماغدولين بعد ذلك أيام كانا يلتقيان فيها في المنزل أو في الحديقة أو في الغابة أو على ضفة النهر ، وكثيراً ما كانا يجلسان بجانب شجرات البنفسج ، ويذكران حادثة النهر ،

وطاقة الزهر ، وأحياناً كانا ينزلان في زورق صغير يسيران به في
البحيرة ساعة أو ساعتين ، ثم يعودان .

فنزلا في الزورق يوماً ، وكانت الشمس قد لبست ثوبها الثالث ،
ثم ما لبثت أن هوت إلى مستقرها على أن ترسل من خلفها سليلها
القمر . إلى هذا الوجود ليقوم عنها بحراسته حتى تعود إليه ، فأمعنا
في البحيرة . وكانت هادئة ساكنة كصفحة المرأة ، وكان النسيم
بارداً رطباً يترقرق فيلامس الوجوه بخفة كما تلامس يد الحساء
وجه حبيبها ، وقد سكن كل شيء إلا صوت قطرات الماء المنحدرة
من المجاذيف إلى البحيرة وتقيق الضفادع من حين إلى حين ، ثم
هتك القمر ستر الظلام وأرسل أشعته الزرقاء إلى الزورق والبحيرة
والشاطئ ، وما وراء ذلك ، فكانا يريان على ضوئه بعض الأشجار
كأنها أشباح متحركة ، ويتخیلان أن عيون الحشرات السارية بين
لفائف الأعشاب شرر يتقدح . فلذ لهما هذا المنظر البديع ، وذلك
السكون العميق ، وتلك الوحدة التي لا يكدرهما عليهما مكلد ،
وتركا الزورق يمشي بهما حيث يشاء . وينحدر كما يريد ، وأنشأ
يتحدثان ؛ فقال استيفن : إني أؤثر يا ماجدولين أن يكون البيت
الذي نسكنه في المستقبل على شاطئ بحيرة كهذه البحيرة ، وأن
يكون لنا زورق أوسع من هذا الزورق وأجمل منه شكلاً نقصي
فيه الليالي المقمرة بين الرياضة والصيد والاستحمام . ولا بد أن
يكون للمنزل حديقة صغيرة نغرس بها ما نشاء من الكروم والأعشاب
والأزهار والأنوار . وسأناول بنفسني غرس شجرات البنفسج لك .
وسأنشر على جدران الحديقة والمنزل غلاثل رقيقة من الخضرة
اليانعة ، أما المنزل فأرى أن يكون مشتملاً على طبقتين ، طبقة
عليا يكون فيها أربع غرف : غرفة للأضياف ، وأخرى للمكتبة ،
وأخرى للملابس ، وصمت لحظة ، ثم قال : أما الرابعة فهي

التي تكون لي ولك ، فاحمرت ماجدولين خجلاً ، ثم قالت :
لقد فاتك أن تذكر غرفتيين آخرين . إحداهما لأخيك والثانية
لأبي . قال : نعم ، لقد فاتني ذلك فلا بد إذن أن تكون الطبقة
العليا مشتملة على ست غرف ، أما الطبقة السفلى فتشتمل على قاعة
الطعام ومخزن المؤونة وبيت الخدم والحمام . إلى ما يلحق ذلك
من مرافق البيت وحاجاته . قالت ، لقد فاتك أيضاً أن الحديقة
لا يجعل منظرها إلا إذا كان في وسطها حوض صغير يتدفق ماء
نميراً ، قال : نعم وستستخدمه لتربية الأسماك الملونة ، ولا يفوتنا
أن نحوطه بسياج عال من الأغصان المشبكة وقاية لأطفالنا الصغار .

فأخذت هذه الكلمة مأخذها من نفس ماجدولين ، واصفر
لها وجهها ، ثم أطرقت برأسها طويلاً ، فحنا عليها استيفين وسألنا
عما بها ، فرفعت رأسها فإذا هي تبكي ، فقال : ما بك يا ماجدولين ؟
قالت : إن الدهر يا استيفين أضن بالسعادة من أن يهبها كلها لشخص
واحد ، وأخاف أن نكون كاذبين في آمالنا ، أو مخطئين في تصور
مستقبلنا ، فليت الدهر — إن كان يعلم أنه سيحول بيتنا وبين
سعادتنا في المستقبل ويكدر علينا صفو عيشنا بفاجعة من فواجعه
أو نازلة من نوازله — أن يمد إلينا يده في هذه الساعة فيستل حياتنا
من بين يدي أجلتنا لتخف في أفواهنا سرارة الموت ؟ قال : لا
تخافي يا ماجدولين ، فإن سلطان الدهر لا تمتد يده إلى مواقف
الحب إلا إذا أراد المحبون أنفسهم أن يكون له هذا السلطان عليهم ،
فكوني معي أنتخذ من حبك عدة أنازل بها حوادث الدهر وأرزائه ،
وأفسد عليه حوله وقوته . فصمتت واجمة ، ثم ألقت نظرها
على البحيرة ومجرى الزورق منها وقالت : لو أن لأمرئ أن يتمنى
لنفسه ما يشاء لتمنيت أن يكون هذا الطريق الذي نسير فيه طريق
الأبدية وأن يظل هذا الزورق مطرد بنا في مسيره لا يقف في طريقه

شيء حتى يلج بنا أبواب السماء .

ثم تنفست الصعداء وقالت : حسبنا يا استيفن ، فقد أوشك القمر أن يغيب ، وأنا لا أحب أن أرى مغيبه ، لأنني أخاف أن تغرب سعادتنا بغروبه ، فنظر إليها واجماً مكتئباً كأنما دار بنفسه ما دار بنفسها من المخاوف والأوهام ، ثم قام الى المجاديف يحركها واضطجعت تحت قدميه ، وما زالاً حتى بلغا الشاطئ ثم مشيا حتى بلغا المنزل ، فلما أرادا أن يفرقا أدنى يدها من فمه يحاول أن يقبلها ، فأبت قبلها في جبينها فارتعدت ، وألقت عليه نظرة عتب أدخلت من نفسه مأخذاً وانصرفت .

(١٧)

من ماجدولين إلى استيفن

ماذا صنعت يا استيفن ؟ إنك سلبتني الليلة الماضية راحتي وسكوني ، فلاني كلما تذكرت تلك القبلية التي وصمت بها جيني شعرت كأن ناراً مشتعلة تتأجج بين أضالعي ، وأن صحيفتي التي لم تزل يضاء حتى ليلة أمس قد أصبحت تضطرب في يياضها الناصع نقطة سوداء ، فأحاول أن أطردها من أمامي فأكون كالأرمد الذي يحاول أن يطرد الغشاوة السوداء عن عينيه فلا يستطيع ، لقد سكبت عيناك كثيراً من العبرات ، وتوسلت كثيراً إلى الله تعالى أن يغفر لي ذنبي ، ولا أدرى ما هو صانع بي ، ولا كيف أستطيع أن أقف بين يديه يوم الحساب بهذا الجبين المسود من الإثم ، وهذا الوجه المحمر من الخجل ؟ لا أكتمك يا سيدي أنني لولا أن عزيت نفسي عن هذه التوبة بأنك أدخلت مني تلك القبلية أخذاً ، ولم أمنحها لك

منحة ، فقتلت نفسي يدي . لا تعد إلى مثلها يا استيفن إلا إذا
أردت أن تراني يوماً من الأيام بين يديك جثة هامدة .

(١٨)

من استيفن إلى ماجدولين

ما كنت أعلم قبل اليوم أن الفتاة التي تحب ، وتعاهد من تحب :
وتقسم بين يدي حبيبها بين الإخلاص والوفاء على أن تكون له
كما يكون لها ، وألا تجعل ليد غير يد الموت سيلاً إلى التفريق
بينهما - تستكثر عليه قبلة شريفة يأخذها من جبينها كما يأخذها
الأخ من جبين أخته ، والمتعبد من يد كاهنه .

ما أحسب إلا أنك قد خدعت نفسك بنفسك يا ماجدولين
حين ظننت أنك عاشقة ، وما أنت من الحب في شيء لأن الفتاة
التي تحب لا ترى بأساً في أن تمنح قبلة لحبيبها منحة ، ولا تنتظر
أن يأخذها منها أخذاً .

الآن عرفت أن بكاءك بين يدي ، واضطراب يدك في يدي ،
وخفوق قلبك عند رؤيتي ؛ إنما كان أثراً من آثار الخوف لا مظهراً
من مظاهر الحب ، وأن عطفك عليّ وتحبيك إليّ ولصوقك بي ،
لم يكن لأنك كنت تحبيني ، بل لأن فتاة مسكينة ضعيفة مثلك لا
بد لها أن تشمر بالليل إلى كل رجل قوي يجانبها .

تقولين لي أنك قضيت ليلك أمس معذبة ، لا يهنا لك مضجع ،
ولا ينتمض لك جفن ، أما أنا فأقول لك : إني لم أقص في حياتي
ليلة أهناً من تلك الليلة ، لأني بت أنجيل تلك القبلة التي تناولتها

من جيبتك كأنها ثغر منضد ينتم إليّ أرق ابتسام وأعذبه ، فاشعر
بروح الحب تدب في أعضائي ديبب الحميا في وجه شاربها ، أما
اليوم فلإني أصبحت أتحيلها تمثالاّ جامداً من الحجر الصلد ماثلاّ
بين يدي لا يتحرك ولا ينطق .

عفواً يا ماجدولين . فلإني ما تناولت تلك القبلة من جيبتك إلا
وأنا أعتقد أنني أقبل زوجتي لأنني لا أرى فرقاً بين عهد الإخلاص
الذي يؤخذ بين يدي الحب وعقد الزواج الذي يعقد بين يدي
الكاهن . وأشكر تلك الساعات القليلة التي سعدت فيها على يدك ،
وإن كانت سعادة موهومة . ويمكنني أن أقول لك إنني ما تقضت
— حتى الساعة — ذلك العهد الذي عاهدتك عليه ، وإني لا أزال
أحبك كما كنت ، لأنني ما كنت أحبيتك لأجازيك على حب بمثله ،
ولا لأتلك جميلة أو عاقلة أو ذكية ، ولا لشيء مما يحب الرجال
له النساء ، بل أحبيتك للحب نفسه والسلام .

(١٩)

من ماجدولين إلى استيفن

عمواً يا استيفن فما كنت أحسب أن كلمتي بالغة منك ما بلغت ،
أو أنها ذاهبة بك هذه المذاهب كلها ، فاغفر لي ذنبي ، فوالله ما
احتفظت بعرضي إلا لك ، ولا منعتك نقمي اليوم إلا لأبلغها
لك غداً ، أنت اليوم حبيبي ، وغداً تكون زوجي ، وكل ما
صنعتة أنني توسلت إلى حبيبي أن يزفني طاهرة نقية إلى زوجي ،
أما الخلداع الذي تذكره في كتابك فأنا أعتقد أنك تعلم من أمري
غير ما تقول ، ولكنك غضبت فقلت غير ما علمت .

(٢٠)

من مولر إلى استيفن

أكتب إليك كتابي هذا وبدي ترتعد خجلاً ، ونفسي تسيل حزناً ، لأنني ما كنت أقدر في نفسي أن ستمر بي ساعة من ساعات حياتي أرى نفسي فيها مضطراً أن أقول لصديقي الذي أجله وأعظمه وأنزله من نفسي خير منزلة : إنني لا أستطيع أن أستقبلك في منزلي بعد اليوم ، بل لا أستطيع أن أحتمل بقاءك في المنزل الذي أسكنه وتسكنه ابنتي لأن لي شرفاً أبقي عليه أكثر مما أبقي على صداقة الأصدقاء ، على أنني أرجو ألا تزال تعلني صديقك المخلص إليك ، كما إنني لا أزال أعتك كذلك ، وإن فرقت بيننا الأيام .

(٢١)

حديث

جلست ماجولين في غرفتها تخطط ثوباً لها ، ربما كانت تعده لليلة عرسها فنلت إبرتها من يدها فرفعت رأسها فوجدت أبوها - ماثل - باب الغرفة فدهشت لمواجهه وراعها منظر سكوته وجموده . ثم مشى إليها بقدم مطمئنة حتى وضع يده على عاتقها وقال : أتعلمين يا ماجولين أنني أرسلت جنيفاف الساعة بكتاب إلى استيفن أمنعه فيه من دخول بيتي ، بل أمنعه من البقاء في منزلي ؟ قالت : لا أعلم من ذلك شيئاً ، ولا أعرف لصنيعك هذا سبباً ، قال : لا سبب له إلا أنه يحبك ، قالت : إنه لا يحبني ، ولكنه يجب أن

يتزوج بي ، قال : ذلك ما لا أريد أن يكون ، قالت : ولماذا ؟
قال : لأنه لا يصلح أن يكون زوجاً لك ، قالت : أنا أعلم أنك
اتخذته لنفسك صديقاً ، وأنت تعرف له مكانه من الفضل والنبل ،
فكيف ترضى أن تتخذ لنفسك صديقاً من لا ترى أنه لا يصلح
أن يكون لابنتك زوجاً ؟ قال : إني أصادقه لأنه شخص كريم ،
ولا أحب أن أصاهره لأنه بائس فقير ، فقد عثرت بكتاب سقط
منه ققراته فعرفت أنه لا يملك ما يقوت به نفسه فأحرى ألا يملك
ما يقوت به أهله ، قالت : إنك حدثني عنه أنه فتى ذكي متعلم ،
ومن كان هذا شأنه لا يكون بينه وبين الغنى إلا بضع جولات
يمحوها في ميدان هذا العالم ، فيعود من بعدها رجلاً غنياً وزوجاً
صالحاً ، قال : إن في أخلاقه من الأتفة والترفع ما يحول بينه وبين
النجاح ، قالت : إن الحب يقوم ما اعوج من الأخلاق ويحيي
ميث الأمل في نفس المحب ، فلا تطفئ جمره الحب التي تشتعل
في قلبه ، فإنك إن فعلت قتلته وقتلت أمه وأتلفت عليه حياته ،
قال : يا بنية إني أعلم من أخلاق الناس وشؤونهم مالا تعلمين ،
وقد رأيت أنني أكون غاطراً بك وبمستقبلك وبكل ما أرجو لك
من سعادة في العيش وهناء ، إن أنا رضيت لك الزواج الذي أعلم
أن شره أكثر من خيره بل أعلم أنه شر كله لا خير فيه ، فانظري
يا بنية في أمر نفسك بعين غير عين الحب ، فلنأبى حواء ،
واذكري أن أباه الذي يحبك وينزلك من نفسه منزلة لا يغلبك
عليها غالب لا يمكن أن يكون غاشاً لك أو عسفاً ، فركمت بين
يديه ومدت يدها إليه ضارعة وأنشأت تسترحمه بالبكاء مرة واحدة ،
أخرى ، فكانت كأنها تستنبط الماء من الصخر ، أو تستنبط الربيع
في القفر حتى وهت قوتها ، فسقطت تحت قدميه فتركها مكانها
ومضى لسبيله وهو يقول : إنك اليوم تجهلين ، وغداً تعلمين .

دخلت جنيفاف على استيفن في غرفته وقد جلس إلى مصباح ضعيف يقرأ في كتاب فأعطته كتاب سيدها ورجعت أدراجها ، وكان أول كتاب جاءه من مولر ، فمر بخاطره وهو يقض غلافه كل شأن إلا الشأن الذي كُتب فيه ، فما أمر نظره عليه حتى فهم كل شيء .

فلو أن رامياً سدد إلى قلبه سهماً جديداً فنفذ إليه ما بلغ منه ما بلغ هذا الكتاب ، ولو أن نازلة من نوازل القدر هوت عليه فاختطفت نفسه من بين جنيبه لكان في مصابها رأي غير رأيه في هذا المصاب ، فقد سكن على أثر ذلك سكواً لا تطرف فيه عين ولا ينبض فيه عرق ، ولا يتحقق قلب ، ولا يتحرك خاطر ، حتى ليكاد يعتقد الناظر إليه في تلك الساعة أن هناك منزلة وسطى بين الحياة والموت . تنبث فيها الحواس في سبلها ولكنها لا تعود إلى الدماغ بشيء مما تحس به .

واستمر على ذلك ساعة ، ثم انتفض انتفاض الطائر المدحرج ، ودار بعينه يمنة ويسرة كأنما يفتش عن هي - أصابعه ، فرفع نظره على الكتاب وهرقه بجانبه فقرأه مرة أخرى ، ثم ضرب جبهته بيده وأنشأ يقول بصوت خافت : لا أمل لي بعد اليوم ، هأنذا ، وما هو ذا الكتاب بين يدي ، وما أنا بحالم ولا الكتاب بكاذب ، نعم إن مولر طردني من بيته وقتل نفسي قتلاً ، وفجعني في جميع آمالي ، وحال بيني وبين ماجدولين . أي إنه فرق بين روحي وجسدي

إنه فعل ذلك وهو لا يدري ماذا يفعل . إنه احترّم هذه الجرائم كلها ساكناً هادئاً كأنما هو يبعث بنفّسه في أرضه أو يحول جلوسه من طريق إلى طريق ، لقد قسا عليّ قسوة لم يقسها أحد من قبله على أحد ، إنه علم أنّي فقير لا أملك شيئاً . ورأى أن الفقر جريمة لا عقاب لها إلا القتل : فقتلني .

ثمّ كأنما جن جنوناً فثار من مكانه ثورة الأسد المائج ، وتمثل له كأن مولر مائل بين يديه فمشى إليه مهدداً ، وصار يهذي ويقول :

مهلاً رويداً أيها الشيخ الأبله ، أظننت أنّي بين يديك شاة خرقاء أو دجاجة بلهاء تقدم نفسها لسكين الذابح حينما يريد ؟ لا ... لا ! أنا إنسان عاقل ورجل شجاع ، لا بد أن يكون لي أمل أحيا به ، وسعادة أنعم بها ؛ ولا بد أن أقاتل عن أملي وسعادتي حتى أبلغهما أو أقتل دونهما .

كذبت أيها الرجل ، إنك أضعف من أن تمد يدك إلى هذا الرباط المقدس فتقطعه ، إنك أعجز من أن تنزع شعرة من شعور رأسك البيضاء فأحرى أن تعجز عن أن تنزع روحاً عن جسدها .

إن الذي يبني وبين ماجدولين شيء لا تصل إليه يدك ، ولا يمتد إليه سلطانك ، ولا يتعلق به أمرك ونهبك وعطاؤك ومنعك .

إنك تستطيع أن تطردني من بيتك لأنك تملكه ، وأن تحبس ابتك في غرفها لأنك أبوها ، ولكنك لا تستطيع أن تمتع قلبنا أن يتحابا ونفسيّنا أن تتصلا .

إن الذي خلق الإنسان وأسدى إليه نعمة الحياة والرزق لم يسترقه بهذه النعم ، ولم يملك عليه قلبه ثمناً لها ، بل تركه حراً

يحب من يشاء ، ويبغض من يشاء ، وأنت تريد أيها الشيخ الضعيف
المسكين أن يكون لك على قلوب الناس سلطان فوق سلطان الله ،
وإرادة فوق إرادته .

أي شأن لك عندنا ، وأي صلة لك بنا ؟ وقد ذهب عصرك
وذهبت بذهابه ، وأصبحنا لا نعد وجودك وجوداً ، ولا حياتك
حياة ، فإن نظرنا إليك فكما ننظر في ساعة من ساعات فراغنا
إلى صفحة من صفحات التاريخ الغابر .

إن عقلك الذي بلى ورث وانتشرت فوقه طبقة سوداء من
القدم لا يصلح أن يكون مرآة صادقة نرى فيها وجوهنا ، ونتحاكم
إليها في سعادتنا وشقائنا .

إنك شره طماع ، رأيت أن ماء حياتك قد نضب ، وأن
أغربة الفناء السود تحلقت فوق رأسك المشتعل شيئاً ، فجز عليك
أن تموت فجئت إلينا نحاول أن تقاسمنا حياتنا البليدة الغضة ،
فكان مثلك كمثلك ذلك الملك الظالم الذي كان يمتص دماء الأطفال
ظناً منه أن ما ينقص حياتهم يزيد في حياته .

إنني لم أكن أريد بك أيها الشيخ المأفون ولا بابتك شراً ولا
ضيراً ، بل كنت أعد لها عيشاً هنيئاً رغداً في مستقبل حياتها ،
فأنا خير لها منك ، لأنك ما أردت بها فيما صنعت اليوم إلا عذاباً
دائماً وشقاء طويلاً .

وأعجب من ذلك كله أنك تذكر في كتابك الصداقة والإخاء
والإخلاص كأنك تظن أن البله قد بلغ مني مبلغه منك ، وأناي أجهل
أنك شيخ مداج مصانع ، تكتب الحكم بالإعدام ، وكأنك تكتب
بطاقة دعوة إلى وليمة ، وتقدم قطعة الحلوى ، وقد دمست في

باطنها ناقع السم ، وترفع قبعتك احتراماً لمن يقطر خنجرك من
قلبه دماً .. وهنا بلغ منه التعب مبلغه فسقط مكباً على وجهه ،
يبكي بكاء الطفل الصغير ، وينشج نشيجاً محزوناً ، ثم جثا على
ركبتيه ورفع وجهه إلى السماء وأنشأ يقول :

رحمتك اللهم وإحسانك ، فأنت تعلم أنني رجل ضعيف لا
ناصر لي ، ولا معين ، فكأن أنت ناصرِي ومعيني . اللهم إني أعترف
بأنني أذنبت إليك في اعتزازي بنفسِي ، واعتتادي بحولي وقوتي ،
وأنني أغفلت قضاءك وقدرك ، وما تحريره على عبادك من أحكام
السعادة والشقاء ، والسلب والعطاء ، فقدرت لنفسِي من سعادة
المستقبل وهنائه ما لا أملكه ، ولا سبيل لي إليه إلا بمعونتك وقوتك ،
فاغفر لي ذنبي ، وخذ يدي في نكيتي ، فقد أصبحت أعجز
الناس عن الصبر والاحتمال .

ثم سكن بعد ذلك سكوناً عميقاً ، ولم يزل باسطاً يديه رافعاً
رأسه إلى السماء ، كأنما كان ينتظر أو يسمع هاتفاً يهتف به من
الملأ الأعلى ؛ فلم يلبث أن رأى من خلال دموعه الحائرة في عينيه
شبحاً من نور يتلألأ أمامه ، وكان المصباح قد انطفأ ، وأضاءت
الغرفة بأشعة القمر فمسح دموعه يمينه ونظر ، فإذا
هي ماجدولين .

(٢٣)

الوداع

لبثت ماجدولين في غرفتها بعد أن فارقتها أبوها ساعة تغلب

النظر في أمرها ، فلا ترى في ذلك الظلام الخالك نجماً يتلألأ .
ولا ذبالة تضيء ؛ فبكيت ما شاء الله أن تفعل حتى مضى الليل إلا
أقله ، فحدثتها نفسها بأمر ما كانت تخدنها به لولا لوعة الحب .
وفجعة الين ، وقامت تختلس خطواتها اختلاصاً ، وما على وحد
الأرض قلب أضعف من قلبها . ولا لوعة أشد من لوعتها ، حتى
وصلت إلى السلم فصعدت تسرق درجاته حتى انتهت إلى أعلاده
فوقفت قليلاً تستغفر الله من ذنبها وتساله إحسانه ورحمته ؛
ثم مشت إلى غرفة استيقن ودفعت الباب قليلاً فرأته جائياً على
ركبتيه يهتف بدعائه فأثر منظره في نفسها . وأخذت تكيكي لبكائه ،
وتدعو بدعائه حتى التفت فرأها . فحقق قلبه خفقاً متداركاً ،
وتعلقت أنفاسه وجمد نظره . وتزايلت أوصاله . حتى ما يكاد
يتحرك من مكانه . فمد إليها يده كالمستغيث الملهف فدنّت منه
وقالت : إني جئت لأودعك يا استيقن ، ولا أستطيع أن أبقى
عندك طويلاً . فهل تستطيع أن تعدني وعداً صادقاً ألا تترك نفسك
في يد المموم تعبت بها كيف تشاء . وألا تجعل لليأس سبيلاً إلى
قلبك حتى يجمع الله بيني وبينك ؟ قال : ذلك أمره إليك ، فأنت
التي تستطيعين أن تجعليني شجاعاً صبوراً متحملاً . وأنت التي
تملكين أن أحيا بالأمل ، أو أموت باليأس . قالت : إني أقول
لك اليوم يا استيقن كلمة كان ينبغي الحياء أن أقولها لك قبل اليوم ،
وهي أنني أحبتك حباً ملاً فراغ قلبي ، فما يسع غيره ، ونزل
منه منزلة الروح من الجسد ، فما يتنقل عنه . وقد عاهدتك على
الزواج بين يدي الله ويدي ضميري ، وما أنا بجائنة ضميري ،
ولا بكاذبة ربي ، فسافر يا استيقن ، وفتش عن سعادتنا في كل
مكان ، وبكل سبيل . حتى تجدها ، وعد إليّ بعد ذلك فأني
سأكون لك ما حييت - سافر حيث شئت . وتقلب في البلاد كما

أردت ، وعد إليّ بعد عام أو عامين أو عشرة أعوام أو أكثر من ذلك ، فإنك ستجئني كما تركتني تقيّة طاهرة ، ووفية . واعلم أن الله ما ألهمني الصبر عنك ، وألهمك مثل ذلك في مثل هذا الموقف الذي تطيش فيه العقول وتظير رواجع الأحلام ، إلا وقد أراد بنا خيراً في جميع شؤوننا ، وقدر لنا السعادة والهناء في مستقبل أيامنا ، سافر يا استيفن غداً ، واكتب إليّ بكل ما تلاقي من خير أو شر لأقاسمك سراءك وضراءك وسأكتب إليك كما تكتب إليّ .

فسكن نائمه قليلاً ، وقال : إن سفري سيكون طويلاً يا ماجلولين ، فهل لك أن تزوديني بقليل من الزاد أستعين به على بعد الشقة وعناء المسير ، فمدت يدها إلى شعرها وقصت منه خصلة فأعطائها من شعره مثلاً ، ثم تراجعت قليلاً قليلاً ، وهي تنظر إليه بعين ملوّه الحب والجزع ، والصبابة والدموع ، فقام إليها ليدركها فاخفت .

(٣٤)

السفر

استيقظ استيفن صباح يوم الرحيل وأطل من نافذة غرفته المشرفة على الحديقة فرأى الأفق يتفتح عن نفسه شيئاً فشيئاً ، ورأى الشمس قد هبت من مرقدها ، ولا تزال في جفنها سنة الغمض ، ثم رآها وقد لبست ثوبها الأول ونظت بعض الخطوات إلى مطلعها ، فمشت أمامها حاشية من الأضواء تتقدمها كما تتقدم الملك حاشيته في مطلعته من باب قصره ، ثم نظر إلى السماء من ناحية المشرق ، وقد انتشرت في أنحائها تفاريق السحب ومشت في جلوتها حمرة

النور ، فخيّل إليه أنه يرى هنالك برجاً عظيماً تضطرم فيه النار اضطراماً ، وأن دخان تلك النار يترأّس فوقها مرة وينفجر عنها أخرى ، ثم رأى أشعة الشمس البيضاء تخالط حبات الطلّ في أوراق الزهر والطلّ لم يجر ذائبه ، فكان كأنه يرى أحجار من الماس تضيء فتنعكس عنها ألوان مختلفة بديعة تملك القلوب والأبصار ، ولم يكن يسمع في تلك الساعة من الأصوات غير طنين النحل وهو مكب على أزهاره يرشف كوؤوسها ، ويتطاير من حولها كما تتطاير الأحلام اللذيذة حول الأطفال الصغار .

فألقي على تلك المناظر كلها نظرة عامة لم يسترجعها إلا مبلله بالدمع حينما ذكر أنه سيقارق عما قليل هذه الدار ، ويفارق بفراقها سعادته وهنائه ، ويفارق ظلال الزيزفون التي كان يجلس إليها مع ماجدولين ، والجدول الذي كانا يمشيان بجانبه . والزورق الذي كانا يتزهران فيه ، والمقعد الذي كان يقنعه من الحديقة ليستظر بجيئها ، أو ليرى خيالها من نافذة غرفتها ، والغرفة التي كان يشرف من نافذتها ليمسح نغمات صوتها العذب ، وطاقات الزهر التي كانت تهديها إليه فيستروح منها نسيما ، فلم يزل يبكي بكاء الشيخ على عهود صباه ، حتى كادت تتلف نفسه ، ولولا أنه ذكر حديثها معه ليلة أمس فعزى نفسه عن فراقها بإخلاصها ووفائها ، وما عقدت بينها وبينه من العهود لقضى في مكانه أسفاً ، ثم قام إلى حقيته فوضع فيها ملابسه ومراقه ، ونزل إلى الحديقة فودع أزهارها وأشجارها ومجالسها ومقاعدھا ، ولم يترك جذعاً لم يقبله ، ولا غصناً لم يلمسه ، ولا مقعداً لم يمرغ خده فوقه ، ويبلله بدموعه ، ونقش اسمه واسم ماجدولين على كثير من المقاعد والجُلُوع ، واقتطف من كل شجرة زهرة ، وجمع تلك الأزهار في طاقة واحدة ، وتركها على بعض المقاعد الماجدولين ،

ثم ذهب إلى البستاني واتفق معه على أن يحمله على فرسه إلى (كوبلانس
ثم فارق (ولفاخ) بين وجد يقتله ، وأمل يحيه .

(٢٥)

من ماجدولين إلى استيفن

سافرت يا استيفن وأصبحت بعيداً عني ، وما أحسب أنني
أراك في عهد قريب ، فما أعظم يؤسي وشقائي ، وما أشد ظلمة
الوحشة المحيطة بي .

لقد خدعت نفسي يوم أشرت عليك بالسفر ، فقد ظننت
أن بين جنبي ذخيرة من الصبر والاحتمال ، أقوى بها على تجمّع
كأس فراقك المريرة ، فلما فقدت وجهك علمت أنني فتاة ضعيفة
بائسة ، لا تقوى على احتمال أكثر مما تطيق من الآلام والأحزان ،
واني فيما أدليت به إليك من تلك النصيحة ، إنما كنت أحدث
عن خواطر عقلي ، لا عن شعور نفسي .

لقد كنت أرجو أن يكون آخر عهدي بك يوم رحيلك وقفة
أقفها في نافذة غرفتي أحبك فيها تحية الوداع ، وألقي عليك
فيها آخر نظرة من نظرات الحب ، لولا أنني خفت عليك الجزع
أن تراني باكية ، وعلى نفسي التلف أن أراك جازعاً ، فافتديت
وافتديت نفسي بهذه اللوعة التي تتأجج اليوم في صدرى ، فما
أصعب الوداع ، وما أصعب الفراق بلا وداع !

ونزلت بعد سفرك إلى الحديقة فلم أجلك ، ووجدت على
بعض مقاعدها طاقة الزهر التي تركتها لي قبل سفرك ، فلتمتها

ولثمت شحصك فيها . ثم مشيت إلى ذلك المقعد الذي كنا نجلس عليه معاً تحت شجرة الأبرفور فجلست فيه وحدي ، ونشرت بين يدي رسائلك الماضية ، وأنشأت أقرأها وأصغي إلى حديثك فيها ، فخيّل إليّ أنك جالس بجانبني تحدثني فعاً لقم . وأن ما يقع عليه نظري في صفحات رسائلك إنما هي ببرات تسمعهما أذني ، لا خطوط تبصرها عيني . فسكنت لذلك الخيال ساعة سكون الطفل الباكي لنشيد المهد ، حتى سمعتك تدعوني في بعض أحاديثك « يا خطيبي » وهي تلك الكلمة الحلوة العذبة التي تهبط حلاوتها إلى أعماق قلبي كلما سمعتها ، فانتفضت وألقيت نظري على مكانك الذي تخيلته بجانبني فوجدته خالياً ، فعلمت أن تلك الساعة الجميلة التي مرت بنا تحت هذه السماء الصافية ، وفوق تلك المقاعد الجميلة ، وبين مشبك هذه الغصون والأوراق ، قد ذهبت ، ولم يبق لي منها غير ذكرها ، فبكيت ساعة طويلة لا علم لي بملها ، ثم استفتقت فصعدت إلى غرفتي ، وجلست إلى منضدني أكتب إليك هذا الكتاب .

فمئى تعود يا استيفن ؟ ومئى تعود بعودتك الأيام الحسان ؟ !

(٢٦)

من ماجدولين إلى استيفن

لقد كابدت بالأمس ليلة ليلاء ، فلم ينحدر كوكب الشمس إلى مغربها حتى سمعت صوت العاصفة يهدير في كل مكان ، رأيت آفاق السماء قد اربدت واقتشعت ثم ارفضت عن غيوثها المنهلة ، فذكرت أنك لا تزال على الطريق ، وأنك تقاسي في تلك الساعة

من عثرات الطريق وعقباته وقفقة البرد ورعشته عناء عظيماً ،
فالتحفت ردائي وأويت الى بعض زوايا غرفتي ، وظللت أبكي
على فراقك مرة وعلى شقاتك أخرى ، وأدود النوم عن عيني
زياداً لأنني لا أستطيع أن أكون راضية عن نفسي ، ولا هانئة
في مضجعي إن نمت في ساعة لا تجد فيها أنت إلى الراحة سيلاً ،
حتى مضى الليل إلا أقله ، فشعرت أن النعاس الذي كان يغالب
جفني قد غلبني عليهما فنمت في مكان ، نوماً مشرداً مذعوراً ،
حتى استيقظت مع الصباح ، فإذا الريح ساكنة ، والشمس ساطعة
والجو باسم طلق ، فحمدت الله على ذلك .

إني أعد الساعات والاحظات يا استيفن ، وأنتظر بشوق عظيم
وصول أول كتاب منك يشرني ببلوغك مستترك سالماً ، فمتى يأتي
كتابك إليّ ؟

(٢٧)

من ماجدولين الى استيفن

لم تكف الأربعون ساعة التي مرت بي لتخفيف شيء من همومي
وأحزاني ، فلقد قضيتها حائرة الذهن مشردة اللب أقلب عيني في
كل مكان فلا أجد في بارقة من بوارق الحقيقة ولا ساعة من سوانح
الخيال عزاء ولا سلوى ، فصعدت إلى غرفتك المهجورة عليّ أجد في
مقامي بها ساعة علاج ما أكابده من هموم وأحزان ، فلما بلغتني
ووضعت يدي على مفتاحها شعرت برعشة شديدة ملأت ما بين
قمة رأسي إلى أخمص قلبي ؛ فلقد خيل إليّ أنني لو فتحت هذا
الباب وجدتك وراءه واقفاً تبسم إليّ وتفتح ذراعيك لاستقبالي ،

فلما فعلت لم أجد غير الوحشة السائدة ، والسكون المخيم ، وغير
سريرك المشعث ، وأوراقك المبعثرة في كل مكان ، والغبار المنتشر
في أرضها وسماها ، فمهلت ما تشعث وجمعت ما تبعثر ومسحت
الغبار عن المقاعد والنوافذ ، وأعدت الفرقة إلى عهدها الأول أيام
كنت تسكنها وتزينها ، كأنما أبيت إلا أن تكون غرفتك المعلقة لك ،
المسماة باسمك ، حاضراً كنت أو غائباً .

ووجدت على بعض المقاعد بضعة دراهم في كيس صغير .
فعلمت أنها أجرة الفرقة التي يتقاضاها أبي قد تركتها له ليأخذها
من حيث لا تراه فأخذتها لأحملها إليه ثم استوجه لإياها لأبتاع بها
حلية أو ذخيرة أتقلدها ، كأنها هدية مرسلة منك إليّ .

سأحمل نفسي يا استيفن على الصبر عنك ، حتى يطوى
القدر مسافة البعد بيني وبينك ، وستكون تعلتي التي أتعلل بها
منذ الساعة كلما هاج بي هائج الشرق إليك ، إنك ما بعدت عني
إلا لتقترب مني ، ولا فارقتني إلا لأنك آثرت اجتماعاً آمناً
طويلاً على اجتماع مصرد غير مأمون ، فامض في سبيلك أيها
الصديق المحبوب ، وذلك بهمتك جميع العقبات التي تعترض
سبيل سعادتنا وهنائنا ، حتى نلتقي بعد ذلك لقاء تنسينا حلاوته
مرارة ذلك الماضي المحزن الويل .

(٢٨)

من استيفن إلى ماجدولين

بالأمس كنا ، وكان يجمعنا بيت واحد ، لا يكدر صفاءنا

فيه مكدر . واليوم نحن وبيني وبينك خمسون فرسخاً لا تمس
يدي يدك ، ولا تبعث أناملني بشعرك ، ولا أستشق عير أنفاسك ،
ولا يرن صوتك العذب في جوانب قلبي ، ولا تضيء ابتساماتك
الجميلة ظلمات نفسي . ولا تلتقي أنظارنا في مكان واحد ،
ولا تخرج أنفاسنا في جو واحد ، فلا السماء صافية كعهدي بها ،
ولا الجو باسم طلق كما أعرفه ، ولا الماء صاف عذب ، ولا
الهواء رقيق عليل ، ولا الروض متفتح عن أزهاره ، ولا
الزهر منتفخ عن عيره كأنما كنت سر الجمال الكامن في الأشياء ،
فلما خلت منك أقفرت واقشعرت ونبت عنها العيون والأنظار .

ولقد لقيت في « كوبلانس » أبي وأهلي وكثيراً من أبناء
وطني فلم يغني لقاءهم عن لقاءك ، ولم أجد في وجوههم ذلك
الأنس الذي كنت أجدّه فيها قبل أن أعرفك ، فأصبحت أشعر
في مقامي بينهم بما يشعر به الغريب المنبت الذي يعيش في وطن
غير وطنه ، ودار وأهل غير داره وأهله ، فمتى تنقضي أيام
غربتي ومتى أعود إلى أهلي ووطني ؟

قد أحزنني كثيراً ما تكابدينه من الآلام والأحزان من أجلي ،
ولو كشف لك من أمر نفسك ما كشف لي منها ، لعرفت أنك
أسعد مني حظاً ، وأروح بالاً ، لأنك تعيشين في المواطن التي
شهدت سعادتنا وهناؤنا ، والتي نبتت في تربتها آمالنا وأحلامنا ،
فكل ما حولك يذكرك بحبك ، وأيام سعادتك ، أما أنا فكل
ما حولي غريب عني ، أنكره ولا أكاد أعرفه . كأنما هو موتمر
بي أن يتزع مني ذكرى تلك الأيام الجميلة التي قضيتها بجانبك ،
وهي كل ما أصبحت أملكه من بعدك .

سأكون شجاعاً كما أمرت يا ماجدولين ، وسأبذل جهدي

في تذليل كل عقبة تقف في طريق سعادتي بك ، فاكثري إليّ كثيراً ، وحدثيني عن كل ما يحيط بك من الأشياء ، وما يعرض لك من الشؤون ، صغيرها وكبيرها ، لأحد على البعد عنك لدة القرب منك ، واجعلي حبك عوناً لي في مقاصدي وآمالي ، فحبك هو الذي يحيني . وهو الذي من أجله أعيش وأبقى .

(٢٩)

حفلة رقص

أقام والد استيفن في بيته حفلة راقصة ، وأمر ولده أن يشهدها ، ولم يكن قد شهد حفلة رقص قبل اليوم ، فأذعن على كره منه . فلما اجتمع الجمع وماجت قاعة الرقص بالراقصين والراقصات . وقف استيفن موقف الحيرة والحجل أمام هذه المناظر المدهشة الغريبة ، لا يدري ماذا يفعل . وأي سبيل يأخذ؟ وخيل إليه أن هناك قانوناً موضوعاً للحركات والسكنات والحركات والروحات . وأن من أغفل حرفاً واحداً من حروف ذلك القانون أخذته العيون ، ودارت به الأنظار ، ورنّت حوله ضحكات الخبز والسخرية . وكان لا بد له من أن يخرج من موقفه هذا إلى حالة من الحالات ، كيفما كان شأنها ، فلمح على البعد شمعة يتضاءل نورها بين الشموع المحيطة بها ، فخطر له أن يتلهى بإصلاح ذيلاتها . فمشى إليها يتخيل في ثيابه تخيلاً . لأنها لم تكن ثيابه ، بل ثياب بعض أقربائه أعاره إياها هذه الساعات من الليل . وصاحبها أطول منه قامته ، وأضخم جسماً ، فلما دناها رأى أن ذيلاتها قد التوت على نفسها فطالت واسودت وغرقت في الدهن المحيط بها ،

فبدا له أن يقرض أعلاها ليصفو أسفلها ثم مسح الدهن السائل حولها ، فما هو إلا أن مد يده بالمقراض إليها حتى انطفأت وتطاير دهنها إلى ثوبه فانتشر في أنحائه فجمد في مكانه جمود المقراض في يده ، واستحال إلى تمثال مضحك مائل بين أعمدة الشموع ، لا يستطيع أن ينقل قلميه حياءً وخجلاً . فوقع ما كان يخافه ، وعقدت حوله الأنظار نطقاً ، ومشت البسمات والغمزات في الأفواه والعيون ، ومر به في موقفه هذا أحد الطرفاء المتأثنين وكان لا يعرفه فأسر في أذنه « أما تعلم يا سيدي أن إصلاح الشموع في الحفلات عمل غير لائق ؟ » وسمع فتاة تقول لصاحبتها وقد وقفتا به : « ما أجمل زركشة هذا الثوب » فأجابتها الأخرى « إنه آخر طراز في الكرنفال » فلم يجد بداً من النجاة بنفسه . ففر من مكانه هارباً لا يلوي على شيء حتى دخل بعض القاعات الخالية وجلس على مقعد فيها يسمح بشفرة المقراض ما تنائر على ثوبه من الشمع ، فلحق به أبوه بعد قليل ، وقال له : ما بقاءك هنا وحلك يا استيفن ، إن أسرة البارون قد حضرت ، ولا بد لك من مقابلتها والبقاء معها حتى تنصرف ، فامتعض استيفن في نفسه وتناقل في مكانه لأنه عرف ما يراد منه ، فألح عليه أبوه فأذعن . ومشى إلى مكان هؤلاء القوم فحياهم وحياتلك الفتاة التي يريدون خطبتها له تحية جامدة لا تشبه تحية الخطباء ولا المحيين ، بل لا تنقص عن تحية المتنافرين المتناكرين إلا قليلاً . ثم لم يلبث أن وجد السبيل إلى الخلاص منها فانفلت من مكانه وخرج إلى فضاء الحديقة ، وجلس على بعض مقاعدها ينقم على المحافل والمراقص ، وما ضمت بين أطرافها من رذائل وشرور ويقول :

ويل لهؤلاء القوم المرائين الكاذبين . يفسقون ويزعمون أنهم

يرقصون ، ويقترفون صتوف السيئات والآثام ، ويقولون إنهم
يغنون أو يطربون ، ووالله ما اجتمعوا إلا ليخطف العاشق معشوقته
من يد زوجها أو أخيها أو أبيها ، حين أعيته الوسائل إليها ، أو
لتفتش الزوجة التي ملت زوجها وسئمته عن عشير جديد غير
مملول ، أو ليلقي الأب بابته العانس الشوهاء بين ذراعي فتي
من الفتيان الأغرار يرجو أن يعميه الشغف الحاضر بها عن النظر
إلى عيوبها فيقع في حبالها ، ويصبح على الرغم منه زوجاً لها .

إن كانوا يريدون الغناء فلم لا يغنون إلا راقصين ، أو الرقص
فلم لا يرقص الرجل إلا مع امرأة ؟ ولا ترقص المرأة إلا مع
رجل ؟ ثم لا يرقصون إلا متلاصقين متماسكين ، كأنهم بين
جدران مخادعهم ، أو وراء أستار نوافذهم وأبوابهم .

من لهذا الزوج الغبي الذي يلقي بزوجته عارية الصدر والظهر
والذراعين والكتفين بين ذراعي فتي جميل ساحر يلاصقها
ويخاصرها ويقلبها بين يدي شهواته ما شاء — أن تعود إليه ساعة
تعود بالعقل الذي ذهبت به ، وبالقلب الذي كانت تحمله بين
أضالعتها ؟ ومن لهذا الأب الأبله المأفون الذي تبرم بابته ويستقل
مكانها منه فيقذف بها بين غالب هذه الوحوش المفترسة —
ألا تعود إليه بعد قليل حاملة مع همها الأول همين آخرين ،
عاراً على رأسها ، وجنيناً في أحشائها .

إنهم يقودون على أنفسهم من حيث لا يشعرون ، ويمزقون
أعراضهم بأيديهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

ولم يزل يهتف في نفسه بأمثال هذه التصورات الغريبة حتى
انصرف الناس فلم يحضر انصرافهم ، كما لم يحضر اجتماعهم ،

وكان أبوه قد أشار إلى جماعة من أهل بيته وخاصة أصدقائه أن يتخلفوا ، ففعلوا ، فلما خلا بهم المكان دعا استيفين أمامهم ، وقال له على مشهد منهم : قد كنت دعوتك إلى مصاهرة هذه الأسرة منذ عام ودلتك على مكان الخير لك في هذه الصفقة الراجعة ، فأبيت واستعصيت وفررت مني راكباً رأسك إلى حيث لا أعلم لك مذهباً ، فلما عدت في هذه المرة ظننت أنك قد أذعنت وأصحت^(١) وفهمت معنى الحياة كما يفهمها الناس جميعاً فبحثت طلبها من الطريق التي يطلبونها منه فأقمت هذه الحفلة الراقصة وأنفقت في سبيلها ما لا طاقة لي باحتماله لا أريد بها إلا أن تكون موضع الصلة بينك وبين تلك الفتاة التي اخترتها لك والخطوة الأولى إلى خطبتها فأبيت إلا تمرداً وعناداً كأنما ظننت أنني باق لك الدهر ، أكفلك وأقوتك ، أو خيل إليك أن هذا العلم الذي تدل به وتعتز بمكانك منه منجم من مناجم الذهب يخرج لك ما يقوتك اليوم ويقوت من ورائك من بنيك وأهل بيتك غداً ، فإن كان هذا ما ذهبت إليه فاعلم أن ثروتي لا تتسع لأكثر من أيام حياتي ، ولا تتسع في حياتي لأكثر من الإنفاق عليك طفلاً وغلاماً وفتى ، ثم أنت وشأنك بعد ذلك ، وأن هذه الفنون الأدبية التي هي كل ما تملك يدك في هذه الحياة ما صلحت أن تكون في زمن من الأزمان وسيلة من وسائل الرزق ، ولا سبباً من أسباب العيش ، ولن تكون كذلك أبد الدهر ، لأن السعادة حقيقة من الحقائق لا يتوصل إليها من طريق الخيال ، فإن أردت لنفسك الخير فدونك الرأي الذي رأيته لك ، وأنت أعلم به ، أو لا ، فدونك الأرض الفضاء فامش في متاكبها ما شئت ، واطلب لنفسك الرزق من الوجه الذي تعرفه ، فقد أصبح وجودك في منزلي على

(١) أمسح البعير : ذل وانقاد .

حالتك هذه من البطالة والفراغ عاراً عليّ وعلى أهلِكَ جميعاً ،
بل عاراً على نفسك إن كنت من الشاعرين !

ثم التفت إلى القوم وقال لهم : هأنذا قد أشهدتكم عليه وبرئت
إليه وإليكم وإلى الله من ذنبي ، فلا معتبة عليّ بعد اليوم .

فقال أحد أقربائه : « إني لم أر في حياتي جنوناً مثل هذا الجنون » !

وقال آخر : « لعله سقط في هوة من هوى الغرام ، فلا مناص
له من الارتباط في قعرها حتى الموت » !

وقالت زوج أبيه : « لعله أحب عروس الشعر ففنى بها عن
كل عروس سواها » !

وقال عمه وهو يزجر غضباً : « قبيح بالفعل أن يكون في سن
كهذه السن حاملاً فوق كاهله قوة كهذه القوة ، ثم يرضى لنفسه
أن يكون عالة على قومه وذويه » .

فطار طائر الحلم من رأس استيفن واختفى من وجهه ذلك
الفنى الحلي الخجول الذي كان يلوب منذ ساعة خجلاً أمام النظرات
واللغات ، وحل محله رجل هائل جبار لا يخشى أحداً ولا يبالي
شيئاً ، فرفع رأسه ونظر إلى الجمع نظرة شزراء ذهلت لها أنظارهم ،
وخفت لها قلوبهم ، ثم التفت إلى أبيه ، وقال له : إني لا أعتب
على واحد من هؤلاء ، لأنهم سمعوك تفني فضربوا على نغمتك ،
أما أنت فلإني أقول لك : نعم إنك قد أحسنت إليّ فيما مضى
كما تقول ، ولكن لا يعمل بك أن تمنّ عليّ إحسانك هذا ،
ولا يعمل بي أن أشكره لك ، أو أثني عليك به ، لأنك أب ،
وللأبوة ثمن لا بد لك من أدائه ، واحتمال المؤنة فيه ، على أنك

لم تمنحني في يوم من أيامك الماضية عطفك ، ولا رحمتك ، ولو فعلت لكان ذلك خيراً لي من كل ما أسديت إليّ من صنوف البر والمعروف ، بل كان شأنك معي في كل آناء حياتك شأن رجل عابر في سبيل ، وجد في طريقه طفلاً ملقفاً في قماطه مطرحاً تحت جدران بعض المنازل أو على باب إحدى الكنائس فالتقطه وكفله مئة وإحساناً لا رحمة وحناناً ، فقد أبعدتني عنك أنا وأخي منذ ماتت أمي ، وبنيت بزواجك الحاضرة قبل أن أبلغ السابعة من عمري ، ووضعتني في جحور قوم لا تجمعني بهم جامعة محبة ، ولا تعطفهم على آصرة رحم ، ولم أجد فيهم من يذكرني بك ، أو يحبك إليّ ، أو يحدثني عنك حديثاً واحداً ، وكنت كلما عدت إليك في أيام إجازتي من العام استقبلتني بالوجه الذي تستقبل به أبعد الناس عنك ، وأصغرهم شأنًا عندك ، فلا تختصني بكلمة طيبة ، ولا تؤثرني بنظرة رحمة ، ولا تسهر عليّ في مرض ، ولا تتفقدني في شدة ، ولا تبتم للقائي ، ولا تحزن لفراق ، وكثيراً ما سهرت الليالي ذوات العدد أندب حظي عندك ، وأضرع إلى الله تعالى أن يلني قلبك من قلبي ، ويرزقي حبك وحنانك ، فلم يستجب دعائي ؛ فاستوحشت نفسي من نفسي وغلبت على طبعي هذه النفرة التي لا تزال ملارمة لي حتى اليوم ، ولولاك لما سنت نفوراً ولا متوحشاً ، وقسا قلبي القسوة كلها ، فأصبحت لا أعطف على أحد ولا أحب أحداً ، لأنني لم أتعلم العطف ولا الحب من أحد ، ولما لم أجد في الناس من أحبه وأصطفيه أحببت نفسي وحريتي وأصطفيتهما وآثرتهما على كل شيء في العالم ، فلا أحتمل أن أرى من ينازعني فيهما أو يغالبني عليهما .

إن حياتي لي ، وأنا صاحبها الذي أتول شأنها ، فلا سلطان لأحد غيري عليها ولا شأن لكائن من كان فيها سواي ، فلا أسير

في طريق غير الطريق التي ترسمها يدي ، ولا أبني مستقبل حياتي
على أساس غير الأساس الذي أضعه بنفسي ، ولا أحب إلا الفتاة
التي أحبها أنا ، لا التي يحبها الناس لي ، ولا أعاشر إلا المرأة التي
أقيس سعادتي معها بمقياس عقلي ، لا بمقياس عقول الآباء والأعمام .

فهاج القوم عليه هياجاً عظيماً ، وصرخ أبوه في وجهه ،
وثاوره عمه يريد الفتك به ، وتناولته الألسن بالشتم والسب ،
فلم يأبه بخذلك كله ، ولم يزلزل من موقفه ، واستمر في حديثه
يقول :

بأي حق تريدون أن تسلبوني حريتي وتملكوها عليّ ، أبحث
العطف الذي بلدتموه لي ، فيما مضى ، وما عرفت بينكم محباً
لي ، ولا راحماً ؟ أم بحق الكرامة والبقيا ، وقد كنتم جميعاً تضربوني
صغيراً ، وها أنتم أولاء اليوم تشتموني كبيراً ؟

إني قائل لكم جميعاً كلمة لا أقول لكم غيرها بعد اليوم :
إني لا أحب إلا من يحبني ، ولا أكرم إلا من يكرمني ، ولا أذعن
إلا لرأيي وإرادتي ، ولا أبيع حياتي وحريتي حتى لحاقهما الذي
منحني إياهما بثمن من الأمان مهما غلا .

إني لا أطلب منكم مالاً ، ولا معونة ، ولا أشكو إليكم فقراً ،
ولا علماً ، وسأرسم لنفسي بنفسي خطة حياتي ، فإن قدر لي
النجاح فيها فذاك ، أو لا ، فحسي من السعادة أنني قضيت أيام
حياتي حراً طليقاً ، لا سبيل لأحد عليّ ، ولا شأن لكائن من
الكائنات عندي ، حتى يوافيني أجلي ، وهذا فراق ما بيني وبينكم .

ثم انقل من بين أيديهم وهرع إلى غرفته فبدل ثيابه وتناول
حقيبة ملابسه وخرج هائماً على وجهه يحترق أحشاء الظلمات ،

حتى خرج إلى ضاحية المدينة فتبعه فتى من أبناء أخواله كان قد ألم ببعض قصته ، فقال له : أين تريد يا استيفن ؟ قال : إلى حيث أرسلني أهلي ؛ فبكى قريبه مرثاة له بما هو فيه وقال له : وارحمته لك أيها البائس المسكين ، ثم دس له في جيبه بضع قطع من الذهب ، لم يتبه لها استيفن إلا بعد ذهابه ، فشكرها له في نفسه ، ثم مضى لسبيله .

(٣٠)

النفس العالية

لا تخضع النفس العالية للحوادث ولا تدل لها ، مهما كان شأنها ، ولا تلين صعدتها^(١) أمام النكبات والأرزاء مهما عظم خطبها ، وجل أمرها ، بل يزيد لها من الحوادث وعض النوائب قوة ومراساً ، وربما لد لها هذا النضال الذي يقوم بينها وبين حوادث الدهر وأرزائه ، كأنما يأبى لها كبرياؤها وترفعها أن يوافيها حظها من العيش سهلاً سائناً لا مشقة فيه ولا عناء ، فهي تحارب وتجالد في سبيله وتغالب الأيام عليه مغالبة حتى تناله من يدها قوة واغتصاباً ، فمثلهما بين النفوس كمثل الليث بين السباع لا تمتد عينه إلى فريسة غيره ، ولا يهتأ له طعام غير الذي تجمععه أنيابه ومخالبه .

كذلك كانت نفس استيفن بعد نزول تلك النكبات به ، فإنه لم يمززع ولم يتألم ، ولم يعبت اليأس بقلبه ، بل فارق (كوبلانس) كما دخلها ساكن النفس ، مطمئن الضمير ، مملوء القلب ثقة

(١) الصمداء : القناة المستوية .

وأملًا ، فلم يزل سائراً بقية ليلته يطوي الأرض على قدميه طياً
حتى مشى في جلدة الظلام أشعة الفجر . فالتفت فإذا بقية من شبح
(كوبلانس) لا تزال ماثلة . فألقى عليها نظرة واجمة مكتئبة
ثم قال :

الوداع أيها القوم الذين طردوني من بينهم . ولم يزودوني لقمة
واحدة أتبلغ بها في طريقي ، ولا دابة أحمل عليها حقبي . ولا
كلمة طيبة آتس بها في مطارح غربي . لقد نبذت حبكم من
قلبي نبذ القم النواة ونقضت يدي منكم نقض المودع يده من
تراب الميت ؛ فأصبح قلبي وصميري وحبي وحناني ونفسي وحياتي
وكل ما تملك يدي ملكاً خالصاً لذلك الإنسان الذي أحببني وأحبته ،
ووفى لي من دون الناس جميعاً ووفيت له . لا يبارعه في منازع ،
ولا ينزل معه في سويداء قلبي نازل . وسيكون حبه مناري الذي
أهتدي به في ظلمات حياتي . حتى أبلغ ذروة السعادة التي أطلبها
لنفسي ، وهناك ترون أيها القوم الحفاة القساء أن ذلك الفتي الخامل
المسكين الذي وقف بينكم بالأمس مهيناً ذليلاً لا يكاد يرفع طرفه
إليكم حياءً وخجلاً . قد أصبح رجلاً ناهياً عظيماً غنياً بماله وجاهه
عن مالكم وجاهكم . وسعيداً بين أهله وأولاده سعادة لا يحفل
من بعدها بنسبكم ولا برحمكم .

ثم مشى في طريقه يعلل نفسه بالأمال الحسان . ويرسم لمستقبل
حياته ما شاء من الخطط والنظم ، وكان كلما أتعبه المسير دفع إلى
أصحاب العجلات المارة في طريقه تحمل الأثقال درهماً أو درهمين ،
ليحملوه على عجلاتهم أو يأذنوا له بالجلوس في مؤخرتها ساعة
أو ساعتين ، ثم يعود إلى شأنه الأول . حتى وصل عند مجتبع
الأصيل إلى « جونتج » وهي البلدة التي تعلم في مدرستها . وقضى
فيها أكثر أيام صباه .

النفس الشعرية

ذهب استيفن ساعة هبط « جوتنج » إلى أستاذه القديم في الموسيقى « هومل » ليفضي إليه بشأنه ، ويستعين به على قضاء حاجته ، وكان له بمثابة الأب الرحيم ، يحبه ويكرمه ويؤثره على تلاميذه جميعاً ، فلما وقف بين يديه عقل الحياء لسانه ، فلم يستطع أن يقول له شيئاً وكذلك شأن أصحاب النفوس الشعرية يملأ الشعر نفوسهم غزة وخيلاء ، فتملأ العزة وجوههم حياء وخجلاً ، فلا يملون ولا يضرعون ، ولا يجرعون على شيء مما يجروا عليه الناس جميعاً كأن تحليقتهم الدائم في سماء الخيال وطيرانهم في تلك الأجواء العالية غادين رائحين ، قد مثل لنفوسهم أنهم يعيشون في ملأ أرفع من الملأ الذي يعيش فيه الناس ، فإن عرضت لهم حاجة من الحاج أبوا أن يسألوها أحداً من سكان الأرض ، وربما أنقوا أن يسألوها ساكن السماء ذهاباً بأنفسهم من مواطن الضعة والمهانة ، وضناً بأديم وجوههم أن يخلقه السؤال ، وكذلك يعيشون فقراء ويموتون بؤساء .

لذلك لم يستطع استيفن أن يفضي بحاجته إلى أستاذه في المقابلة الأولى فزعم أنه إنما جاء ليتلقى عنه دروساً في الموسيقى ، وظل يختلف إليه أياماً يسمع غناؤه ويحفظه عنه حتى جرى بينهما يوماً من الأيام ذكر الحياة والمستقبل ، فسأله أستاذه عما رسم من الخطط في مستقبل حياته ، فقال : لا أدري حتى الساعة ، فقال : لا أعرى لك سبيلاً غير هذا الفن الذي تحبه وتستهم به ، وأرى أن غرامك به سيجعلك غداً من أصحاب الشأن العظيم فيه ، فنفض

له استيقن إذ ذاك جملة حاله ، وصارحه برغبته التي يريد بها ،
فوعده بمساعدته والأخذ بيده ، فانصرف مفتبطاً مسروراً .

(٣٢)

من ماجدولين إلى استيفن

لم أستطع أن أكتب إليك منذ شهرين لأنني كنت مريضة وسأقص
عليك قصة مرضي .

خرجت ذات ليلة لألقي برسالة كنت كتبتها لك في صندوق
البريد في قرية « هال » فلما بعدت عن « ولفاخ » وغاب عني
شبحها وأصبحت في منتصف الطريق بينها وبين « هال » هبت
عليّ ريح عاصفة شديدة دوت بها جوانب الأفق ، وقعقت لما
قبة السماء حتى حسبتها توشك أن تنقض ، وأخذت تهاذبني ثوبي
بجاذبة شديدة كأنما تأبى إلا أن تنزعه مني أو تنزعني معه ،
فحدثني نفسي بالعودة من حيث أتيت ، ثم ذكرتك وذكرت
أنك تنتظر رسالتي ، فاستمررت أدراسي ومشيت في طريقي
أتيامن مع الريح مرة ، وأتياسر أخرى . وأندفع متقدمة . وأكرر
راجعة ، فمن رأيتني في تلك الساعة خيل إليه أنه يرى فتاة بائسة
مرزأة ، قد لعبت النار بأثوابها ، وعلقت بأطرافها وأوصالها ،
فهي تهم على وجهها في كل مكان تطلب الخلاص مما هي فيه فلا
تجد إليه سيلا ، فلم أصل إلى تلك القرية إلا بعد ساعتين ، فألقيت
الكتاب في الصنلوق ثم رجعت ، وكانت العاصفة قد هدأت قليلاً ،
ولكنها ما هدأت إلا لتفتح الطريق إلى النيث الهائل ، فلم تهد
نورها حتى ثار ثائره وأخذ يتساقط سقوطاً شديداً ، فابتل ردائي ،

ومشت الرعدة في جميع أعضائي ، واشتدت ظلمة الليل فما أهتلى
إلى طريقي .

ولقد حدثتني نفسي لشدة ما نالني من التعب والإعياء ، وما
ملا قلبي من الخوف والوحشة . أن أسلم نفسي إلى كنف من أكتاف
المضارب أو صفح من سفوح الجبال ، أنتظر فيه مني حتى توافيني ،
فحال بيني وبين ذلك أني أريد أن أحيا لك ، وأتولى شأن سعادتك
التي عاهدتك على أن أتولاها لك ، وأنني إن قتلت نفسي قتلتك
معي ، فبعث ذكرك في نفسي قوة غالت بها الطبيعة وعواصفها
وتلوجها ، وبروقها ورعودها ، حتى بلغت المنزل بعد لأي ،
فسقطت مريضة محمولة .

ولقد كابدت في مرضي شدة عظمى لم أر مثلها فيما مرّ بي
من أيام حياتي ، دب اليأس في نفسي ديب المنية في الأجل ،
وظننت أني لا بد هالكة ، وأنني لا أراك بعد اليوم ، فلم يكن
يجزني في تلك الساعة شيء سوى أنك ستسمع بجبر موتي ، ولا
تسمع معه أنك كنت الإنسان الوحيد الذي كنت أفكر فيه في ساعتي
الأخيرة فحاولت أن أكتب إليك كتاب وداع أثلك فيه بعض
شأني فلم أستطع ، ثم شعرت في فترة من فترات السكون التي
تنخلل سكرات الحمى أني أستطيع النهوض من فراشي ، فكتب
إليك كتاباً أوصيت لك فيه بجميع ما تملك يدي ، وما تملك يدي
إلا كتي ومحفظة رسائلك والحاتم الذي نسجته من شعرك وذخيرة
من الذهب ورثتها عن أمي وهي أعز الأشياء عندي ، وكيلاً صغيراً
يشتمل على بعض قطع فضية وذهبية مما كنت أستفضله من نفقاتي ،
ثم طويت الكتاب وأعطيته لجنيفاف لتوصله إليك بعد موتي ،
ولكن الله كان أرحم بي وبك من أن يحرمني منك ويفجعك بي ،

فمد إليّ يد معونته وإحسانه واستنقذني من مخالب الموت ، فحمدت
له منته ونعمته . ولقد بكيت كثيراً عندما أعدت النظر في تلك
الوصية المكتوبة لأنني تمثلك حزنك وتفجعك وخيبة آمالك لو
قدّر لك أن تقرأها ، فرثيت لك بما بك وبكيت لبكائك .

رجائي عندك يا استيفن أن تكتب إليّ عنوان أخيك في الجيش
لأنني أريد أن أبعث إليه بهدية أخطب بها وده إكراماً لك ، فقد
أصبحت أحبه من أجلك حباً كثيراً ، وأترقب بفرح وسرور ذلك
اليوم الذي يضمنا وإياه بيت واحد ، تحت سماء واحدة .

لا يمزرك يا استيفن ما قصصت عليك ، فتلك حادثة ماضية
قد ذهبت وانقضت ، ولم يبق منها في نفسي حتى آثارها ، فليذهب
الماضي بخيره وشره ، وليأت لنا المستقبل بما نريد .

(٣٣)

من استيفن إلى ماجدولين

عفا الله عنك يا ماجدولين . أكنت تظنين أنني أستطيع أن أحيا
من بعدك ساعة واحدة أتمتع فيها بالحياة وطيبها ، والدنيا ونسيمها ،
فأوصيت بما أوصيت به إليّ؟

إنك لا تعلمين أنك روعي التي أحيا بها في هذا العالم ، ودنيائي
التي أنتسم فيها رائحة السعادة والهناء ، وأن اليوم الذي يخلو فيه
مكانك من الدنيا هو آخر عهدي بالعالم وما فيه .

مَنى أهدي الميت إلى الميت وأوصى القبر إلى القبر ! ومَنى عاشر

المحب بعد فقد حبيبهِ ساعة واحدة ، أو هتت له لحظة من لحظات عيشه إن قدّر له أن يعيش من بعده ؟

إن لي في الحياة كما للناس أمانى كثيرة ، وودّتي لو استطعت أن أبيعها جميعها بأمنية واحدة ، وهي أن أموت يوم أموت بين ذراعيك ، ملقياً رأسي على صدرك ، شاخصاً بعيني إلى وجهك المشرق الجميل ، وأن يكون صوتك آخر ما أسمع من الأصوات ، وصورتك آخر ما أرى من الصور علماً أن من يموت ميتة كهذه تفتحت له أبواب السماء ، واتصلت سعادة دنياه بسعادة أخراه فلا يشعر بشقاء الموت ، ولا ما بعد الموت .

هنيئاً لك إيلالك من مرضك ، وشكراً لله على صنيعته عندك في شفائك ؛ وصنيعته عندي في حفظ حياتك لي ، وما أحسب أن الله أراد بي أو بك سوءاً فيما كان ، ولكنه يتلينا اليوم لنعرف مقدار ما يستقبلنا به من السعادة غداً .

سأكتب لأخي « أوجين » بشأن الهدية التي أزمعت أن ترسلها إليه ، وإني شاكرٌ لك شكراً جزيلاً ، عطفك عليه وحبك إياه .

أما عنوانه ، فهو : « الفصل الثالث ، من قسم الجهاد الخفيفة في جيش الحدود » .

(٣٤)

الحظ

مر الشتاء واستيقن يختلف إلى أستاذه « هومل » وأستاذه يسمى

له سعي المجد الملح فلا ينتجح ، حتى أوشك أن يفقد ما كان معه من المال ، ولم يبق في يده منه إلا بقية غير صالحة لا يعلم ما هو صانع بعدها ، فلم يجد له بداً من أن يأخذ نفسه بالتقتير ، ويحمل عليها العيش حملاً شديداً ، فأكل التافه من الطعام ولبس الخلقان من الثياب ، وغنى بالأكلة عن الأكلتين ، وبالحبز عن الأدم . يقول في نفسه كلما برحت به الفاقة ، واشتدت به ضائقة العيش : لقد قال لي عمي : إن من كان فقي قوياً مثلك لا يحمل به أن يعيش عائلة على أهله وذويه ، وهأنذا على فتوتي وقوتي أكاد أموت جوعاً . فما أقسى قلوب قومي ، وما أبعد الرحمة عن أفئدتهم !! لقد كان في استطاعتهم أن يقبلوني عندهم ضيفاً عاماً أو عامين ، حتى يفتح الله لي باباً من أبواب الرزق فأرحل عنهم ، أو أن يهينوا لي قبل أن يطردوني من بيتهم ملجأ أعصم به في المكان الذي طردوني إليه حتى لا أموت ميتة الغرباء المشردين .

وكان أكبر ما يحزنه من أمر فاقته أنه وعد ماجدولين بالسعي إلى الثروة والنجاح فيها ، وملأ قلبها ثقة وأملاً في المستقبل ، وأن فشله إن قدر له الفشل سيقتلها ، ويلقي بها في مهوأة اليأس والشقاء ، فرثي لما وأشفق عليها إشفاقاً عظيماً ، وود لو صلحت حياته لأن تكون ثمتاً لسعادتها فيبذلها في سبيلها ، ثم رحل عن الدنيا طيب النفس عنها وعن جميع آماله وأمانيه فيها .

ولقد مرّ به يوماً — في بعض مواقفه بجانب بعض الجدران — فتي زري الهيئة سيء الحال ومد إليه يده يسأله بعض المعونة فزوى وجهه عنه حياءً وخجلاً ، فقال له الفتى : أقسم لك بالله يا سيدي أنني تركت زوجتي ورأيتي ما تطيق الوقوف من الطوى ، ولقد مر بي وبها يومان ما نجد ما نتبلغ به إلا البكاء والدموع ، فانتفض

استيقن انتفاضة شديدة والتفت إليه وقال له : أحب زوجتك كثيراً أيها القتي ؟ قال : نعم يا سيدي كما أحب حياتي . فأطرق برأسه هنيهة وظل يقول في نفسه : إنه يستعدي^(١) عطف الناس ورحمتهم على جوع زوجته وطواها ، والناس لا يعطفون ولو عقل لعلم أنه يسألم حقاً من حقوقه المقدمة لا يعترضه من دونه معترض إلا استحل دمه ومشى على جثته إليه ، فلا جريمة في الدنيا أكبر من أن يرى الإنسان المرأة التي يحبها تموت بين يديه جوعاً فلا يفعل شيئاً أكثر من أن يغمض عينيه ويسجى بثوبها ، ثم يجلس بجانب سريرها يبكيها ويندبها ، ومد يده إلى جيبه فأخرج كل ما كان معه من المال فأعطاه للقتي صامتاً ، ومشى في طريقه وهو يقول : لقد أنقذتها من مغالب الجوع بضعة أيام ، وأسأل الله أن يقيض لهما من يتولى شأنهما بعد ذلك .

وكذلك عاد استيقن إلى مأواه ، وهو لا يملك من متاع الدنيا حتى قوت يومه .

(٣٥)

من ماجلولين إلى استيقن

مرت بي اليوم صديقتي سوزان وهي عائدة من مصيفها إلى كوريلانس فاغتبطت بزيارتها اغتباطاً عظيماً وتمنيت أن لو كنت حاضراً ليتنا لترأها فترى أجمل الفتيات وجهاً ، وأرقهن شمائل ، وأعذبهن حديثاً ، وأجمعهن لأفضل الصفات وأكرمها فهي تنطق

(١) استعدي فلان فلاناً على فلان ، طلب إليه أن يمد يده عليه ، أن ينصفه منه .

بلغات كثيرة ، ونحسن الرسم والتصوير ، وتوقع على جميع أنواع
الأوتار ، وتغني غناء ساحراً فتاناً ، ولها ثغر وضاء لا يفارقه
الابتسام لحظة واحدة ، ولا يطربها في الحياة شيء مثل مناظر اللهو
واللعب ولا يعجبها حديث مثل حديث المحافل والمراقص ، وقد
أصبحت مفتنة بها لا أكاد أصبر عنها لحظة واحدة ، ورجائي
إليك يا استيفن أن تحبها كما أحبها ، وأن تتودد إليها كثيراً يوم
تراها .

(٣٦)

من استيفن إلى ماجدولين

سأحب صديقتك يا ماجدولين كما أمرت ، ولكن ليس لأنها
جميلة فاتنة كما تقولين ، فقد ملأ جمالك فضاء قلبي فلم تبق
فيه بقية لسواك ، ولا لأنها ترقص أو تغني فإن نفسي الحزينة لا
يشفيها من دأبها إلا أحد الأمرين : إما لقاءك ، أو الموت ، بل
لأنها تؤنس وحشتك ، وتخفف آلامك ، وتعينك على احتمال أعباء
الحياة وأثقالها ، فاشكريها عني شكراً جزيلاً ، وبلغني تحتي وسلامي .

لا يزال الدهر عابساً في وجهي ، ولكنني صابر محتمل ، لا
أياس ولا أستسلم ولا تفتر لي همة حتى أنال بعثي ، والسلام .

(٣٧)

من أوجين إلى استيفن

وصلت إليّ هدية السيدة ماجدولين ، فشكرت صنعها شكراً

جزيلاً ، ولقد أصبحت بفضل هديتها صاحب رداء جديد كنت في أشد الحاجة إليه وكانت يدي تقصر عنه ، فاتبعته وأصبحت فخوراً مختلاً به بين أترابي وعشرائي ، فيلغ صاحبة الهدية شكري ، وأرجو أن أراها في عهد قريب فأجزئها خيراً بما فعلت ، فإن عجزت عن ذلك فلا أعجز عن أن أحدثها عن الوقائع الغريبة التي شاهدها أحاديث جميلة عذبة تملأ قلبها غبطة وسروراً .

شاهدت بالأمس أول وقعة من وقائع الحرب فجزعت عند الصدمة الأولى ، ولكنني ما لبثت أن سمعت صهيل الخيل وقرع الطبول وأزيز الرصاص وأنغام الموسيقى الحربية حتى انتشيت واندفعت بجوادي اندفاع السيل المنهمر لا أشعر بشيء مما حولي ولا أرى إلا بريق سيفي في يدي ، ولقد امتلأت نفسي غبطة وسروراً عندما رأيت جيش العدو يتقهقر أمام جيشنا ، حتى خيل لي أنني أنا الذي زحزحته وحدي عن مكانه وألجأته إلى الفرار . وقد عرف قائدي فضل ما أبلت في هذه المعركة فرقاني إلى درجة « صف ضابط » ولي أمل أن أعود إليكم في عهد قريب باسم « الضابط أوجين » .

(٣٨)

من استيفن إلى ماجدولين

قد ابتسم لي الدهر قليلاً يا ماجدولين ؟ فقد زارني أستاذي بالأمس في الخان الذي أنزله بعد ما انقطعت عن زيارته بضعة أسابيع لأمر ما ، وبشرني أنه وجد لي عملاً في بعض المدارس الصغيرة بوظيفة شهرية قليلة ... وقال لي إن مدير المدرسة وعده

أن يضاعفها لي ضعفين بعد ثمانية شهور ، فحمدت الله على ذلك .
لا صعب في الحياة يا ماجدولين غير الخطوة الأولى . فإذا
خطاها المرء هان عليه ما بعدها ، فلنهنأ منذ اليوم باللقاء ، ولنغبط
بالسعادة التي طالما تمنيناها حتى بلغناها .

(٣٩)

من إدوار إلى استيفن

لا يزال النزاع قائماً بيني وبين عمي ، يأبى إلا أن أعيش عيش
المقلين وآبى إلا أن أتمتع بمالي الذي ورثته عن أبي كما أحب
وأشتهي ، ولا أدري ما الذي يعنيه من الحرص على مال يعلم
أنه ليس له ، وأن مصيره مهما طاللت الأيام لصاحبه ؟ ولكنها
خلة البخلاء والأشحاء : لا يقع في أيديهم شيء من مالهم أو من
مال غيرهم حتى تتلوى أصابعهم عليه التواء الحية على العصا ،
ثم لا يقلت منها بعد ذلك ، فمثلهم كمثل الجبالة التي تنطبق حافتها
على كل ما يدنو منها ، وإن لم تحن لنفسها من وراء ذلك شيئاً .

على أنها أيام قلائل ستقضي ، وسأبلغ سن الرشد بعد بضعة
شهور ، فلا يبقى له ولا لغيره عليّ من سبيل .

ألمت ببعض شأنك الحاضر وعلمت أن أهلك قد نعموا منك
مخالفتك أبيهم . فوكلوك إلى نفسك ، ونفضوا أيديهم منك ،
فتركت لهم «كوبلانس» وسافرت إلى «جوتنج» تطلب لنفسك
فيها الرزق من طريق العمل ، فلم يوافك حتى اليوم ما تريد ،

فليت الذي كان يا صديقي لم يكن ، ولبتك أخذت بذلك الرأي
الذي رأيته لك من قبل ، وسلكت إلى الحياة طريقاً غير هذا الطريق
الخيالي الذي تسلكه اليوم فتزوجت من الفتاة التي اختاروها لك ،
وظفرت بنعمة العيش في ظلها ، فلا سعادة في الدنيا يا صديقي
غير سعادة المال ، وكل ما في أدمغة البشر من علم وعقل وما في
أجسامهم من قوة وأيد ؛ وما في نفوسهم من فضائل ومزايا ،
إنما هي سبل المال وذرائع إليه .

أهديك تحيتي وسلامي ، وربما زرتك في «جوتنج» في عهد
قريب ، فقد ضقت ذرعاً بذلك الرجل ، وأصبحت لا أطيق
البقاء معه لحظة واحدة في بلد واحد .

(٤٠)

من استيفن إلى إدوار

لا تعب عليّ يا صديقي ، إن قلت لك إن لي في الحياة رأياً
غير رأيك وغير ما يراه الناس جميعاً .

إنني لا أعرف سعادة في الحياة غير سعادة النفس ، ولا أفهم
من المال إلا أنه وسيلة من وسائل تلك السعادة ، فإن تمت بدونه
فلا حاجة إليه ، وإن جاءت بقليله فلا حاجة إلى كثيره .

ماذا ينفعني من المال وماذا يغني عني يوم أقلب طرفي حولي
فلا أرى بجانب ذلك الإنسان الذي أحبه وأؤثره ، وأرى في مكانه
إنساناً آخر لا شأن لي معه ، ولا صلة لقلبي بقلبه ، فكأنني وأنا
خال به خال بنفسي منقطع عن العالم وما فيه .

إن الرجل الذي يتزوج المرأة للمال إنما هو لص خائن ، لأنه إنما يأخذ من مالها باسم الحب ، وهو لا يحبها ، وعاجز أخرق ، لأنه قعد عن السعي لنفسه ، فوكل أمره إلى امرأة ضعيفة تقوته وتمونه وساقط المروءة مبتذل ، لأنه يأجر جسمه النساء ، كما تأجر البغي نفسها للرجال ، ليستفيد من وراء ذلك قوته .

نعم إنني بائس فقير ، كما تقول ، ولكنني أسعى لنفسي سعي المجد النور وب قد بدأت أنجح في مساعي منذ أمس ، فقد حصلت على وظيفة صغيرة ستكون كبيرة فيما بعد ، واستأجرت لي غرفة بسيطة فأصبحت ذا مسكن خاص وسيتهي بومي وشقائي ، وأنال السعادة التي أرجوها ، وسيكون أعظم ما أغتبط به في مستقبل حياتي أنني أنا الذي صغت لإكليل سعادتي بيدي .

أحييك يا إدوار ، وأرجو ألا تعتب عليّ فيما قلت لك ، ولعلك تفي بوعدك لي ؛ فأراك في جوتنج في عهد قريب .

(٤١)

غرفة استيفن

سكن استيفن بعد حصوله على وظيفته الجديدة في غرفة صغيرة طولها عشرة أقدام وعرضها سبع ، ووضع فيها سريراً من خشب ومنضدة عارية يكتب عليها ليلاً ويأكل عليها نهاراً ؛ وكرسيين مختلفي الحجم والشكل ، يجلس على أكبرهما وأصلحهما شأنًا ، ويضع حقيبة ملابسه على الآخر . ومنصباً للطبخ ، وجرة للماء وبعض آنية أخرى ، وكان بغرفته كوة تشرف على سطوح منازل

قديمة مهجورة لا يسكنها أحد ، فلما أشرف منها ورأى ذلك المنظر الموحش اشمأزت نفسه قليلاً ، ثم قال : لا بأس ، فذلك خير لي من أن يطلع على خلقي أحد ، ثم لمح على البعد دوحة عظيمة مورقة في بعض المنازل القاصية فقال : تلك هي الروضة التي أفتح عليها نظري كل صباح ، وهل يتمتع صاحبها الذي يملكها ويتعدها منها بأكثر من ذلك ؟ ثم رأى على مقربة منه كنيسة صغيرة فقال في نفسه : أرجو أن تساعدني دقائق ساعتها على معرفة المواقيت ، ثم ما لبث أن سمع رنينها فأخذ يعدها فرحاً مبهجاً وهو يقول : لن أشتري ساعة بعد اليوم .

وكذلك اغتبط استيفن بمسكنه الجديد على صغره وحقارة شأنه اغتباطاً عظيماً لأنه أول مسكن نزل فيه عند نفسه ، وابتاع أثاثه وأدواته من ماله وظل يقول في نفسه : في المسكن الخاص يستطيع المرء أن يكون حراً في قيامه وقعوده وجلسه واضطجاعه ، ونومه على الهيئة التي يريد ، لا يتكلف ولا يتعمل ، يحامل الناس ولا يرائيهم ، ولا يضع نفسه في القالب الذي يصنعونه له ، فيرفع يده في الهواء بغتة دون أن يخاف وقوعها على وجه أحد ، ويستعين بتقليب يده وتحريك رأسه على النظر والتفكير دون أن يسميه أحد ، مجنوناً أو مختبلاً . ويمد قلميه في الناحية التي يريد ، لا يخشى محاسناً يحاسبه على الأدب أو يلاحيه في قواعده وأصوله ، أي أنه يكون على الصورة التي خلقه الله عليها ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص شيئاً .

وكان لا بد له من أن يعيش عيش الإقلال والتقتير فلا يلاق في ذلك عناء عظيماً لأنه كان قنوعاً مجترئاً . فقسم دخله بين نفقات طعامه وشرابه وملبسه وأجرة مسكنه ووفاء ما عليه من دين الأثاث

الذي ابتاعه ، وعاش عيشة سائلة لا يكدرها عليه مكدر ، لأنها كانت مملوءة أملاً ورجاء .

(٤٢)

الطارق الجديد

جلس استيفن في غرفته غداة يوم من أيام الآحاد ، وهي الأيام التي يشعر فيها بالراحة من عناء الدرس ونصبه ، فسمع خفق نعل ثقيلة على السلم يختلف صوته عن صوت نعل جارته العجوز التي كانت تختلف إليه من حين إلى حين لتملأ له جرة الماء من البئر ، فدهش وتسمع فإذا القادم بصبح باسمه صياحاً عالياً فخيّل إليه أنه يعرف صاحب هذا الصوت ، فابتدر الباب ففتحه فإذا صديقه « إدوار » فابتهج بمرآه وعانقه عناقاً طويلاً وقال له : لقد وفيت بوعدك أيها الصديق فلك الشكر على ذلك ولقد كنت أترقب حضورك ترقب المقرور أشعة الشمس ، والظلمة ديمة القطر ، فقال له : سأنزّل عندك في غرفتك هذه الصغيرة ضيفاً شهرين أو ثلاثة ، وهي المدة الباقية لي على بلوغ سن الرشد ، ولقد اشتد النزاع بيني وبين عمي حتى أصبحت لا أطيقه ولا يطيقني ، ففارقت منزله وأقسمت ألا أرى وجهه حتى تنتهي قضية الوصاية التي بيني وبينه ؛ ثم دخل ، وهو يقول : ما أجمل هذه الغرفة وأبدع شكلها ! إنها أوسع مما كنت أظن ، وأجمل مما كنت أقدر ، وعمد إلى حقيبته ففتحتها وأخرج منها زجاجة عطر ومشطاً وبضعة متاديل من الحرير وقدمها هدية إلى استيفن ، فقبلها منه شاكراً ، ثم قام استيفن إلى شريحة لحم كان يعدها لطعام الغد فاشتواها ووضعها

على المائدة ووضع بجانبها زجاجة من الخمر وقطعة من الخبز ،
ثم أخذوا ياكلان ويتحدثان ويتذاكران أيام طفولتهما الماضية ؛
وكذلك قضيا بقية يومهما مسرورين مغتربين حتى أتت ساعة النوم ،
ففرش استيفن لنفسه حشية في بعض جوانب الغرفة وترك السرير
لضيفه وناما .

ولما أصبحا أعطى استيفن « لإدوار » قبل ذهابه إلى المدرسة
جميع ما كان معه من المال وقال له : إن وظيفتي في الشهر مائتا
فرنك أنفق منها على الطعام والشراب ستين ، وأحفظ الباقي لأجرة
الغرفة وسداد دين الأثاث الذي ابتعته ، وقد أنفقت منها خمسين
فرنكاً في الأيام العشرة الماضية ؛ وما هو ذا الباقي فتول أنت إنفاقه ؛
فأنت رب البيت منذ اليوم وصاحب الشأن فيه ، ثم تركه ومضى ،
فلم يلبث « إدوار » أن نزل إلى السوق فاشترى لحماً وخبزاً وتوابل
وفاكهة وخمراً ، وأنفق في سبيل ذلك اثني عشرة فرنكاً وجلس
يطبخ ويشوي حتى انتصف النهار وحضر استيفن فقال له : ما
هذا يا إدوار ؟ أوليمة هي ؟ قال : نعم وليمة الاحتفال بقدمي ؛
فابتسم استيفن وقال له : لقد أحسنت فيما قلت ، وذكرني بما
كنت عنه لاهياً ، وجلس يؤاكله حتى فرغاً من الطعام ، فقال
له إدوار : أرى أن الغرفة تنقصها بضعة أشياء لا بد لنا منها ،
فأذن لي بمشتراها ، وأعدك ألا أبتاع إلا ما لا بد لنا منه ، ولا
أنفق في سبيل ذلك إلا ثمناً قليلاً ، فقال له : لك ما تريد ، فخرج
ثم عاد بعد ساعة يقتاد كلباً أسود ضخماً ووراءه حمال يحمل له
مرأة كبيرة ومشجباً للثياب وهو يقول : ما أقبح الغرفة التي لا
مرأة فيها ، وما أشد وحشة البيت الذي لا ينبج فيه كلب ، على
أنني لم أنفق في جميع ما ابتعته أكثر من عشرين فرنكاً ، وأظنك
تري يا استيفن كما أرى أنها صفقة رابحة نادرة قلما يتفق مثلاً

لأحد ، فضحك استيفن وقال له : ما أعذب جنونك يا إدوار ؟
قال : وهل تطيب الحياة بغير جنون ؟.

وكذلك لم يأت اليوم العشرون من الشهر حتى صفرت أيديهما
من النقود ، ولم يجد عليهما الكلب ولا المشجب ولا المواة شيئاً .
فقال استيفن : ما العمل يا إدوار ؟ قال : الأمر أهون مما تظن ،
وسأرى لك الرأي الذي ينبغي ، ثم تركه وخرج وعاد بعد قليل
يصحبه أحد الحمالين ورجل آخر من تجار الأثاث ، فوقف على
عتبة الغرفة وقال للرجل : خذوهذا السرير فإنه يضابق الغرفة
كثيراً ، ولا ظهر أثبت تحت جسد النائم من ظهر الأرض وخذ
هاتين الوسادتين الزائدتين ، فالوسادة الواحدة إذا ثبتت تكفي
صاحبها ، ثم نظر إلى استيفن وقال له : أليس كذلك يا صديقي ؟
فانتبه استيفن وكان مكباً على منضدته يكتب كتاباً إلى ماجدولين
ففهم كل شيء ، وقال : بلى يا إدوار ، قال : أنتظن أن زجاجاً
رفيقاً كزجاج هذه النافذة يبقى طويلاً على هذه الرياح العاصفة في
هذا الشتاء الشديد ؟ قال : لا ، قال : أليس من الحزم أن نتنفع
بشمعه بدلاً من أن نتركه لعبة في أيدي الرياح تعبت به ما تشاء ؟
قال : ذلك هو الرأي ، فمشى إلى النافذة فانتزع ألواحها واحداً
بعد آخر وأعطاهما الحمال ، ثم قال له : وهل ترى أننا في حاجة
إلى مثل هذا الغطاء الثقيل في مثل هذه الغرفة الضيقة ؟ قال : لا ،
فأمر الحمال بحمله ، ثم قال له : وهل تضع في هذه الخزانة شيئاً
تخاف عليه أن يسرق ؟

فضحك استيفن وقال له : لو كان عندي ما أخاف عليه لم
نصر إلى ما صرنا إليه ، قال : إذن ما بقاء هذا القفل فيها ؟ ثم
مدّ يده إليه فانتزعه من مكانه ، وظل يقلب نظره في الغرفة حتى

وقع على المنضدة ، فذعر استيفن وقال له : انتظر يا إدوار لا تمسها حتى أتم رسالتي ، فضحك وقال : إني أتركها لك إكراماً للمجدولين ، وأخذ يساوم الرجل في ذلك الأثاث حتى باعه منه بثلاثين فرنكاً ، ثم عاد إلى استيفن قال له : ماذا ترى فيما تم ؟ قال : أرى أن تعطيني هذا المال الذي معد لأتلى إيفاقه بدلاً منك ، فإنك لا تستطيع أن تكون حازماً ، قال : أظن أننا قد بدأنا نختلف يا صديقي ، لأنك تحب التقدير وهو لا يعجبني ، وأنا أحب السعة وهي لا ترضيك . فخير لي ولك أن نفتسم راتبك يتسا قسمن ، وأن يعيش كل منا وحده بالقسم الذي يعصيه . وصمت هنيهة ثم قال : على أن افترقنا في المعيشة لا يتم إلا إذا افترقنا في السكن ، فليختص كل منا بجهة من الغرفة مستقلة عن جهة صاحبه . وهأنذا أقسمها بيننا قسمة عادلة ، ثم عمد إلى قطعة من الجص وخط بها وسط الغرفة خطاً مستطيلاً ، وقال : هذا قسمي أنا وكلبي ومرآتي ومشجتي وهذا قسمك وحدك وهو خير من قسمي وأكثر منه مرافق ومنافع ، لأن فيه المنصب الذي تطبخ عليه طعامك . والمنضدة التي تكب عليها رسائلك والنافذة التي تمد في فضاءها ذراعك كلما أردت أن تلبس قميصك أو معطفك ، فأغرب استيفن في الضحك وخرج لشأنه وترك له الغرفة يفعل فيها ما يشاء .

وكذلك استمر إدوار ينقص على استيفن عيشه . واستيفن لا يغضب ولا يشكو ، بل لا يشعر بالمر ولا ضيق لأنه كان صديقه وكفى .

(٤٣)

التضحية

خرج إدوار ذات يوم يرتاض في بعض أطراف القرية . وبقي

استيفن وحده بدون في دفتره بعض نغمات موسيقية لدروس الغد ،
وإنه لكذلك إذ سمع على السلم خفق نعال كثيرة وأصواتاً مختلفة
وصياحاً عالياً فدهش وقام إلى الباب ففتحه فإذا رجل طويل القامة
عريض الكتفين يلبس لباس عمال المناجم تشتعل عيناه ناراً ويتدفق
الزبد من شفتيه وقد أمسك بيده سيفين عريضين ، فلما وقع نظره
على استيفن قال له : أنت المسمى إدوار ؟ فلم استيفن أن الرجل
يريد بصديقه شراً وأنه لا يعرف شخصه فأشفق منه وأراد أن
يعرف ما تروته عنده فقال له : نعم أنا هو فماذا تريد مني ؟ فاجتذره
الرجل بلطمة على وجهه أظلمت لها عيناه وقال له : لعل شجاعتك
التي دفعتك إلى مغازلة زوجتي وانتهاك حرمة بيتي والبعث بشرفي
لا تفارقك في هذه الساعة حين أدعوك إلى مبارزتي على ضفاف
النهر ، وها هم أولاء شهود المباراة فليختر كل منا من يشاء منهم ،
فأخذ استيفن منه السيف صامتاً وقد فهم كل شيء وكان ملماً بعض
الإلام بقصة إدوار مع زوج هذا الرجل . وأشفق عليه أن يصيبه
من تلك المباراة شر ، ولأنه كان يعلم أنه لم يجد في حياته سيفاً
قط ، فمشى مع خصمه صامتاً لا يقول له شيئاً حتى بلغا ضفة
النهر وجردا سيفيهما للقتال ، وهنا ذكر استيفن ماجدولين وود
لو استطاع أن يكتب إليها كلمة وداع فنظر إلى الشهود وقال :
هل أجد مع أحد منكم بطاقة صغيرة ؟ فأعطاه أحدهم ما أراد
فكتب هذه الكلمة الموجزة « إني أموت في مبارزة شريفة وأنت
آخر من أفكر فيه فالوداع يا ماجدولين » وكان أحد الملاحين
واقفاً على مقدمة سفينة بجانب الضفة فرأى استيفن وهو يكتب
كلمته ثم رآه وهو يقلب نظره حوله يفتش عن رسول يبعث بها
معه ، فآثر منظره في نفسه وتقدم نحوه وقال له : ائذن لي يا سيدي
أن أحمل رسالتك إلى من تريد ، فشكر له استيفن صنيعه وأعطاه

الرسالة بعد ما كتب عنوانها على ظهرها . ثم شرع في المبارزة فكانت يده فيها أعجز من يد خصمه ، فجرح بعد ضربات في ذراعه جرحاً بليغاً ، فأوقف الشهود المبارزة وتصافح الحصمان والملاح لا يزال واقفاً مكانه ، فقال له استيقن وهو ساقط على الأرض بصوت ضعيف : مزق الرسالة التي معك فلا حاجة إليها الآن ، فمزقها الرجل ودنا منه فأخرج من جيبه منديلاً فعصب ذراعه ، ثم أنهضه من مكانه وأخذ يده وظل سائراً معه حتى صعد إلى غرفته ، فأضجعه على فراشه وجلس بجانبه يضمه جراحه ويواسه .

(٤٤)

الصدقة

جلس إدوار إلى صديقه في الليلة التي عزم على السفر في غدها وكان جرحه قد أشرف على البرء ، وقال له : سجلت لنفسك بدمك يا استيقن في صفحة قلبي نعمة لا أنساها لك مدى الدهر ، كما لا أنسى لك أنك وأنت في أشد حالات بؤسك وضيقك قد آوئني وواسيتني أياماً طوالاً ، واحتملت لي ما لا يحتمله أخ لأخيه ولا حميم لحميمه . فلو أنني جمعت لك في يوم واحد جميع ما كافأ به الناس بعضهم بعضاً على الخير والمعروف مذ خلقت الدنيا حتى اليوم لما جازيتك بعض الجزاء على الخير الذي صنعت ، فقال له استيقن : إنني لم أسد إليك يداً تستحق . ككافأة ، ولكنت صديقي وللصدقة آثار طبيعية تتبعها وتنبعث وراءها جريان الماء في منحدره ، فإن كنت لا بد شاكرراً فاشكر الصدقة التي ظللتنا يميناً فيها مذ كنا طفلين صغيرين . والبؤس الذي لف شملتي بشملك ، وخط

نفسي بنفسك ، وحول قلبينا القريحين الكسيرين إلى قلب واحد ،
وإن قدر لك يوماً من الأيام أن تمد يدك لمعوتي فليكن ذلك منك
إذعاناً لرحمة قلبك وحنانه لا مكافأة على خير ، ولا مجازاة على
معروف .

لأنني شقي مذ ولدت يا إدار ، فأنا أحب الأشقياء وأعطف
عليهم- لأنني واحد منهم ، ولا صداقة في الدنيا أمتن ولا أوثق
من صداقة الفقر والفاقة ، ولا رابطة تجمع القليلين المختلفين مثل
رابطة البؤس والشقاء ، فلو أنني خيرت بين صحبة رجلين :
أحدهما فقير يضم فاقته إلى فاقتي فيضاعفها ، وثانيهما غني يمد
يده لمعوتي فيرفقه عني ما أنا فيه من شدة وبلاء لآثرت أولهما على
ثانيهما ، لأن الفقير يتخذني صديقاً والغني يتخذني عبداً ، وأنا إلى
الحرية أخرج مني إلى المال .

يظن السعيد دائماً أن السعادة التي يمرح في ظلها إنما هي منحة
سماوية قد آثره الله بها من دون عباده جميعاً لفضيلة كامنة في نفسه
لا يشاركه فيها غيره ، ولا يعرفها الله لشخص في العالم سواه ،
وليس في استطاعته أن يتصور بحال من الأحوال أن السعادة عارية
من عواري الدهر ، يأتي بها اليوم ، ويذهب بها غداً ، ولعبة من
الألعيه ، يختلف بها بين الناس أخذاً ورداً ، ويداولها بينهم عطاء
وسلباً ، قراه واثقاً بها مستتيماً إليها ، ينطق بذلك لسانه ، وتهتف
به حركاته وسكناته ، وملامح وجهه ، وابتسامات ثغره ، ومن
كان هذا شأنه فظفر إلى غيره من البائسين المحدودين^(١) الذين
لا يتمتعون في حياتهم بمثل متعته ، ولا يهتأون فيها بمثل نعمته ،
فظر الشمس إلى ذرات التراب المبعثرة على سطح الأرض ، فهو

(١) المحدود : المحروم .

عن عليهم بالفتنة والظرة ومحاسبهم على القعدة والقومة ويتقاضاهم لإجلاله وإعظامه كأنما يتقاضاهم حقاً من حقوقه المقدسة التي لا ريب فيها ، فإن أذن لأحدهم يوماً من الأيام أن يجلس في حضرته لا يعجبه منه إلا خضوعه له ، واستخذاؤه بين يديه ، وتضاؤله أمام نظراته المرفعة تضاؤل الحمامة الساقطة تحت أجنحة النسر المحلّق ، ثم لا يمازيه على ذلك بأكثر من دعائه إلى مائدته ، أو الإنعام عليه بفضلة ماله أو خلقان ثيابه ، لا يبعثه إلى ذلك باعث رحمة أو حنان ، بل ليريه فرق ما بينه وبينه في مظاهر الحياة وزخارفها ، وحظوظ الأيام وحدودها ، وليضيف إلى عتقه المثقل بأغلال الفقر غلا جديداً من الذلة والاستعباد ، فإذا أراد المسكين أن يفضي إليه بهم من هموم قلبه ترويحاً عن نفسه ، وترفيهاً لآلامه أعرض عنه ويرم به ، وخيل إليه أنه ما ذهب معه هذا المذهب في حديثه إلا وقد أضمر في نفسه أن يقاسمه ماله ، أو يساكنه في قصره ، أو يشاطره نعمته وسعاده ، فلا يعزيه عن بأسائه بأكثر من أن يلومه على تبذيره وإسرافه ، أو على بلادته وغفلته ، ثم يتحم حديثه معه بقوله : ان جميع ما يصيب المرء في حياته من بؤس وشقاء ليس الذنب فيه على القدر ، بل على قصور الإنسان وجهله ، وعدم اضطلاع به شؤون الحياة وتجاريبها ، وإن الله تعالى أعدل من أن يمنح نعمة جاهلها أو يسلبها مستحقها ، أي إنه يجمع عليه بين بلتين : بلية الهم ، وبلية اليأس من انقراضه وانقشاعه .

لا يستطيع الغني أن يكون صديقاً للفقير لأنه يحقره ويزدريه فلا يرى فيه فضيلة يصادقه عليها ، أو يصطنعه من أجلها ، ولأنه يشعر من نفسه باقتداره على احتمال اعباء الحياة وحده دون أن يعينه عليها معين من الفقراء أو الأغنياء ، أما صديق الفقير فهو

الفقير الذي يصغي لشكاته إذا بثها إليه ، ويفهم معناها إذا سمعها منه ، ويعزيه عنها إذا فهمها عنه ، ويحمل له من صلره متكاً ليناً يلقي رأسه عليه ، وهو تعب مكلود فيجد فيه برد الراحة والسكون .

لذلك أحبيتك يا إدوار ، واتخذتكَ صديق ، وكان الشقاء هو الوثيقة التي تعاقدنا فيها أن يكون كل منا عوناً لصاحبه على دهره ، وجنة له من دون نكبات الأيام وأرزائها ، مهما تقلبت بهما الأحوال ، أو فرقت بينهما الأيام .

فأخذ إدوار يداستيفن وأقسم له بكل محرقة من الإيمان ألا . يهدأ له في حياته روع ولا يثلج له صدر ، حتى يراه ظافراً من دهره بالسعادة التي يرجوها ، ثم عرض عليه أن يضع بين يديه جزءاً من ثروته التي صارت إليه فأبى ، وقال أما هذه فلا ، لأنني لا أريد أن أشتري سعادتي في دنياي إلا بأشرف أثمانها .

وفي الصباح مشى استيفن مع إدوار ليودعه حتى بلغا مكان الافراق فتعاقبا طويلاً وبكى استيفن على صديقه ، ثم افترقا .

(٤٥)

من إستيفن إلى ماجدولين

خرجت ليلة أمس أرناض على شاطئ النهر ، فلما استقبلت الفضاء شعرت أن أوراق الأشجار تضطرب اضطراباً سريعاً في خفوت وهمس ، وأن الهواء يمشي متثاقلاً مترجماً يتحامل بعضه على بعض ، ورأيت قطع السحاب الضخمة السوداء تنتقل في صحراء السماء تنقل قطعان القيلة في غاباتها ، وخيل إليّ أني أسمع في أعماقها

قفقة مبهمة تدنو حيناً وتناى أحياناً ، وكأنما قد راع هذا الصوت
الأجش طيور الماء ، وحشرات الأرض ، فرأيت الطيور مرفرفة
على سطح النهر تستبق إلى أوكارها ، والحشرات متعادية بين الصخور
تتسرب إلى أحجارها ورأيت السواد قد صيغ كل شيء حتى لون
الماء ، فقبه السماء ورقعة الأرض والأفق الذي يصل بينهما منجم
أجوف عميق من مناجم الفحم يحاول البرق أن يجد له في جلدائه
العاتية الصماء منفذاً ينحدر منه إلى جوفه فلا يستطيع إلا الومضة
بعد الومضة تتلجج بين طبقاته ولا تنفذه .

ثم ما لبثت هذه الطبيعة الصامتة الخرساء أن هدرت وزجرت
فهبت الزوبعة من كل مكان تحبط بيديها أوراق الأشجار فتطير بها
كل مطار وتهتز السقوف والجلدان هزاً وتضرب بعضها ببعض ،
ثم أقبل المطر يمزق قطع السحاب ويفتح لنفسه والبرق طريقاً في
خلالها ، ثم همى فسالت به الاودية والأرجاء ، وامتلأت الأخاديد
والأغوار . وكنت على مقربة من كوخ صديقي « فرتز » وهو
فلاح فقير أسدى إليّ فيما مضى من الأيام صنعة لا أزال أحفظها
له حتى اليوم . فلجأت إليه فخيل إليّ حين دخلته أنه مقفر موحش
ليس به أنيس . ثم أضاء البرق قرأيت في داخله منظراً من أجمل
المنظر وأبدعها ، رأيت زوج الرجل وأولاده جاثين على أقدامهم
خاشعين باسطي أيديهم إلى السماء يدعون الله تعالى بدعوات جميلة
يرددونها بصوت شجي محزن . فخيل إليّ ، ولا مصباح هناك
ولا ضياء ، أي أرى إشراق وجوههم وتلألؤها في هذه الدجنة
الحالكة وأحست بي المرأة فالتفت إليّ وقالت : لم بعد « فرتز »
حتى الساعة ، ونحن نخشى أن يكون قد أصابه مكروه من أهوال
تلك الليلة ، فنحن ندعو الله تعالى أن يرده إلينا سالمًا ، فأثر في
نفسي هذا المنظر تأثيراً شديداً وقلت في نفسي : « ويل للذين

يحاولون أن يسلبوا أمثال هؤلاء المساكين إيمانهم وبقينهم : لأنهم يسلبونهم حياتهم التي يحيون بها في هذا العالم ، وكل ما تملك أيديهم من سعادة وهناء ، وشعرت بجزن شديد في أعماق قلبي لحرمانني من مثل هذه السعادة النفسية التي ينعم بها هؤلاء القوم ، فجنحت بنجانهم أحتف بهتافهم ، وأدعو بدعائهم وأضرع إلى الله أن يمنحني يقيناً مثل يقينهم ، ولم أدر أن ما أنا فيه إنما هو اليقين الذي أنشده ، وأضرع إلى الله فيه ثم رفعت رأسي فلذا « فرتر » واقف على عتبة الباب ، فهرعت زوجته إليه تقبله وتنضو عنه رداءه المبتل ، ودار أولاده يلثمونه ويستقبلون لثماته الأبوية الرحيمة ويستطيرون فرحاً به وسروراً ثم احتملوه جميعاً إلى المائدة وجلسوا حوله يحادثونه ويسألونه عما كابد من أهوال هذه الليلة وشدائدها ، وجلست على مقربة منه أسمع حديثهم ، وأستشف سريرة نفوسهم ، فأخذ منظرهم هذا من نفسي مأخذاً شديداً . وكدت — وما حسدت أحداً في حياتي على نعمة قط — أن أحسدهم على نعمتهم هذه ، وقلت في نفسي : زوجة تحب زوجها وتبكي رحمة به وإشفافاً عليه وأولاده يمشون على أقدامهم ويمدون أيديهم إلى الله تعالى ضارعين أن يحفظ لهم حياة أبيهم ، وأب يبكي فرحاً بروية أولاده بين يديه سالمين معتبطين ؛ إنها السعادة النفسية العالية التي لا تستمد بهجتها ورواءها من القصور والرياض ، والآثام والرياض ، والقضة والذهب ، بل من الحب الخالص والود المتين .

وكذلك سيكون شأننا في مستقبلنا يا ماجلولين ، كتب لنا أن نعيش عيش الفقراء المقلين ؛ ولكنتنا سنكون على فقرنا وإقلالنا سعداء معتبطين .

لم يبق لي في الحضور على تلك الزيادة التي وعدوني بها

إلا ثلاثة أشهر سأسافر من بعدها إليك في «ولفاخ» لأخطبك
إلى أليك ، وأضع يدي في يدك ، فلا يبقى للشقاء بعد اليوم إلينا
من سبيل .

(٤٦)

من ماجلولين إلى استيفن

سافرت سوزان إلى «كوبلانس» وتركتني حزينة أسفة على
فراقها ، ولكنني سألتق بها عما قليل ، فقد وعدنا أبي أن نأفر
إليها بعد شهر واحد لنقضي عندها بقية أيام الشتاء ، وسأكتب
إليك عند وصولي لتكون على بيته من ذلك ، فلكم نحمد السبيل
إلى موافاتي هناك ، فأراك ولو على البعد - والسلام .

(٤٧)

من ماجلولين إلى استيفن

وصلنا منذ ثلاثة أيام أنا وأبي إلى «كوبلانس» ونزلنا ضيفين
في منزل سوزان وأنا مغتبطة بلقائهما وبالسعادة التي أجدها في منزلها
اغتراباً عظيماً وقد أخبرتني اليوم أنها ابتاعت لها مقصورة في ملعب
«الأوبرا» نذهب إليها مساء كل أحد ؛ فها نحن أولاء قد وجدنا
المكان الذي يمكننا أن نراى فيه أو نتلاقى إن استطعنا .

فتعال إليّ يا استيفن ، ولا يحل بينك وبين ذلك أنك سترى
مرة ثانية وجه ذلك البلد الذي أبعدت عنه واجتوبته وخرجت
منه ناقماً عليه .. اغتفر كل شيء من أجلي .

الحياة الجديدة

سافرت ماجدولين مع أيها إلى «كوبلانس» ونزلت في ضيافة صديقتها سوزان فأدهشها منظر القصر وأبهاؤه وحجراته ، وما يشتمل عليه من أثاث ورياش ، وما يتلأأ في جوانبه من زخرف وآنية ، وأعجبها منظر الوصائف في إقبالهن وإدبارهن ، وما يترامى فيه من ألوان الثياب وأنواع الأزياء ، حتى خيل إليها وهي راqqة أمام المرأة تنظر إلى نفسها وإلى موقفهن بجانبها أنهن فوق أن يخدمنها أو يسعين بين يديها ، بل تمثل لها أنهن يسخرن في أعماق نفوسهن بمنظرها ، ومنظر ثيابها القروية القصيرة المخططة التي خاطتها يديها ، وكثيراً ما كانت تحدثها نفسها كلما بدت لها حاجة من الحاج أن تقوم إلى قضائها بنفسها خجلاً منهن وحياء ، والله يعلم كم نالها في ميدان أمرها من حيرة وارتباك كلما جلست إلى طعام أو شراب ، أو شهدت مجمعاً ، أو حضرت ملعباً ، وكم كابدت من عناء في صياغة نفسها على أوضاع تلك الحياة الجديدة التي انتقلت إليها حتى أسلست واستفادت .

وكانت سوزان قد أعدت لها نواع الأقمشة من حرير وغمل وخز وصوف وفرو ، فخاطت لها خياطة ماهرة ثوباً للرقص ، وآخر للملعب وآخر للمائدة وقميصاً للبيت ، وغلائل للنوم . فرقصت وغنت وأنست بمنظر الراقصات والمغنيات ، وتحدثت بإحاديث فتيات «كوبلانس» ، وذهبت مذاهبهن في آرائهن وتصوراتهن ، ولذت لها هذه الحياة الجديدة لذة عظمى وملأت ما بين جوانحها حتى غلبتها على أمرها ، فتضاءل في نظرها كل شيء في ماضيتها إلا حبها لاستيفن .

الفتنة

دخلت ماجدولين على سوزان ذات ليلة في غرفتها الخاصة في القصر وهي غرفة بديعة فاخرة قد كسيت أرضها وجلدناها بالقطيفة الحمراء المطرزة وأسبلت على نوافذها وأبوابها ستائر حريرية بيضاء تراءى في خلالها أسلاك الفضة اللامعة ، وتدور في أطرافها ألوان الفصوص المتألثة وانتشرت في جوانبها وأركانها المقاعد الثمينة ، والمناضد الجميلة ، وآنية الفضة والذهب ، وأصص الریحان والزهر ، فرأت بين يديها صناديق صغيرة من الفضة فقالت لها سوزان حين رآتها : لقد أرسل إليّ خطيبي اليوم هدية الزواج فهل تحبين أن تريها ؟ قالت : لا أحب إليّ من ذلك ، ففتحت سوزان الصناديق أمامها واحداً بعد آخر فإذا عقود ودمالج وأساور وأقراط مصوغة أجمل صياغة وأبدعها ، مرصعة بأنفس اللآلئ وأثمن الجواهر ، فدهشت ماجدولين لمنظرها وظلت تقلبها بين يديها ساعة ، ثم تناولت قرطاً صغيراً من الماس فوضعت في أذنيها ، فاقترحت عليها سوزان أن تتقلد الحلية بأجمعها لترى منظرها عليها . ففعلت ووقفت بها أمام المرأة وأقبلت بها وأدبرت . فقالت لها سوزان : ما أحوج جمالك يا ماجدولين إلى مثل هذه الحلية وما أحوج هذه الحلية إلى مثل هذا الجمال وإني لا أتمنى على الله شيئاً سوى أن أراك خطيبة رجل من ذوي النعمة والثراء يبكك ويستهم بك ، ويملاً قضاء حياتك هناء ورغداً ، ثم أنشأت تصف لها قصرأ بديعاً ابتناه لها خطيبها في إحدى ضواحي « كوبلانس » وأعد لها فيه من أسباب النعمة

والرافاهية ما لا يعد مثله أصحاب التيجان لنسائهم وحظياتهم^(١)
وختمت حديثها بقولها :

وفردريك فوق ذلك فتى جميل ساحر لا تقع العين على
أبدع ولا أظرف منه ، وهو يحبني حباً شديداً ، ولا أحسب أن
الذي أضمر له من الحب أقل مما يضمّر لي ، فأطرقت ماجدولين
هنيهة ولم تكن قد أفضت إلى صديقتها حتى الساعة بسر جها
لاستيفن ، ثم رفعت رأسها وقالت : هل تكتمين سري يا سوزان
إن أفضيت به إليك ؟ قالت : نعم ، ومن يكمه إن لم أكمه ؟
فقصت عليها قصتها مع استيفن وذكرت لها ذلك العهد الذي
أخذته كل منهما على صاحبه أن يعيش له ، وألا يفرق بينهما إلا
الموت ، فقالت سوزان : إني أذكر أنك كتبت لي عنه وكان
حديث عهد بالزول بداركم ، انه غير جميل ولا جذاب ، قالت :
نعم هو كذلك ، ولكنني أحببت فيه أخلاقه أكثر من كل شيء ،
وإن رجلاً يحاطر بنفسه من دون الناس جميعاً في سبيل إنقاذ غريق
لا يعرف من هو حتى أنقذه وكاد يهلك دون ذلك هو أشرف
لرجال وأنبأهم قصداً ، وأعلامهم همة ، ولقد شهدت أنت بنفسك
ذلك المنتظر وكتبت لي عنه ، وعلمت منه أكثر مما أعلم ، قالت :
أهو الرجل ؟ قالت : نعم ، قالت : إني أذكر ذلك ، ولقد أعجبت
به في ذلك اليوم إعجاباً عظيماً ، وهل هو غني ؟ قالت : لا ،
ولكنه يسعى إلى الكفاف من العيش وسيناله ، وحسبي منه أنه
يحبني حباً لا يحبه أحد أحداً ، قالت : ما أقيح المهر يا ماجدولين
إذا كان كله حباً ، إنك إذا تريد أن تتبلي وتستوحشي وتهجري
العالم كله بجماله ورونقه إلى غرفة خاملة في أحد المنازل المهجورة

(١) الخفية : السرية المكرومة منه سيدما ، من الاحتذاء : وهو الزول منزلة
الكرامة .

المنفردة تقتلن فيها نفسك هما وكمدأ .

فصمت ماجدولين ولم تستطع أن تقول شيئاً ، لا اقتناعاً برأي صديقتها ، بل حياء منها وخجلاً ، ثم افترقا .

(٥٠)

الملعب

جلست ماجدولين وسوزان في مقصورة الأوبرا وجلس بجانبهما ألبرت ابن عمه ماجدولين ، وأشميد ابن عم سوزان ، وهما فتيان جميلان متأنقان في ملبسهما ، وحليتهما ، شأنهما في حياتهما شأن أمثالهما من الفتيان الأثرياء المستهترين الذين تنقسم حياتهم كلها إلى ساعتين اثنتين ، واحدة للضحك والسرور ، والأخرى لتصبي النساء واستغواهن ، فينفقون على الأولى عقولهم ، وعلى الثانية أموالهم ، حتى لا يبقى لهم من هذا ولا ذاك شيء .

جلسا يقلبان النظر في وجوه الجالسين في المقاصير المماثلة لهما فلن وجدوا وجهاً جميلاً تغامزا وتهامسا ، أو قبيحاً ضحكاً وسخراً ، ثم علا صوتهما بالضحك والسخرية ؛ فلم تلبث سوزان أن اشتركت معهما . ثم تبعتهما بعد قليل ماجدولين ، ولم يكن ذلك من شأنها أو مما يلتزم مع مزاجها ولكنها فعلته مجاملة لهما ، ثم لم تلبث أن طربت لهذا الأسلوب من المجون وأنست به فأخذت فيه أخذهما ، وبينما هي تقلب نظرها في المقاصير المجاورة لمقصورتها إذ رأت امرأة في سن الشيخوخة تلبس زينة الفتيات وحليتهن فلفتت نظر أصدقائها إلى ذلك فضحكوا لفظنتها ضحكاً عالياً رناناً ، لا لأن

هناك فطنة تستحق الإعجاب والإطراء ، بل لأنهم أرادوا أن يجازوها بمجاملة بمجاملة ، ومصانة بمصانة ، فخدعها هذا الإطراء فاسترسلت في نكاتها ومجونها حتى كادت تستأثر بالحديث وحدها من دونهم جميعاً .

ولأنهم كذلك إذ هتف ألبرت وأشار إلى رجل جالس على كرسي في مؤخرة الصفوف وقال : هل رأيتم أعجب من هذا القرد اللابس ثوب الإنسان ؟ فقال أشميد : أذكر أنني رأيت هذا الوحش المستأنس مرة قبل اليوم ، ولا أدري أين رأيته ؟ وقالت سوزان : أظنه قدم الملعب الساعة فإني لم أره قبل هذه اللحظة ، وما أحسبه إلا الشيطان الذي كانوا يخيفوننا به صغاراً ولا نراه ، فقال أشميد : إن حلتته وإن كانت ثمينة فاخرة فهي من الخلل التاريخية التي لا يلبسها إلا الممثلون ، فأجاب ألبرت : لعله سرقها من قبور الفراعنة أو دور الآثار ، فإن من يملك مثل هذه الحلة الثمينة لا يعجز عن أن يشتري مشطاً يمشط به شعره المشعث ، فقالت سوزان : لا عار على الرجل أن يكون قبيحاً ، ولكن القبيح أن يلبس ثياباً جميلة تختلف صورتها عن صورته فتلفت الأنظار إلى قبحه ودمايته ، ثم التفتوا جميعاً فرأوا ماجدولين قد تراجعت إلى الوراء وهي ترتعد وتضطرب وقد استحالت حمرة وجهها إلى صفرة كصفرة الموت فسألوها ما بالها ؟ فرغمت أنها مقرورة ، وأنها تشعر برعدة في جسمها ودوار في رأسها ، ولم تكن صادقة فيما تقول ، ولا يمكن أن تصدقهم فيما تقول ، لأن الرجل الذي يسخرون منه ويتناولونه منذ حين بألسنتهم ويذهبون كل مذهب في تحميقه وتجهيله والسخرية به ، إنما هو خطيبها الذي تحبه وتسهم به ، فأمسكوا عن الضحك هنيهة وأقبلوا عليها يعللونها حتى هدأ ما بها ، فانصرفوا إلى الرواية يشاهدون فصولها وعادت هي إلى

بجلسها الأول ، وظلت تخالس استيفن النظرة بعد الأخرى حتى انتبه لها فحيّاها بابتسامة خفيفة لم يشعر بها أحد غيرها ، ثم ما لبثت الرواية أن انتهت فنهضوا للانصراف ، وألقت ماجدولين على استيفن نظرة ضمنتها معنى شكرها إياه على اهتمامه بها ، وحضوره لرويتها ثم انصرفوا .

(٥١)

الرجل والمرأة

ينظر الرجل إلى المرأة في حبه إياها بعين غير العين التي تنظر بها إليه في حبه إياه ، فهو يراها أذاته الخاصة به التي لا حق لإنسان غيره في التمتع بها بوجه من الوجوه ؛ ويرى أن حقاً عليها أن تخصصه بجميع مزاياها وصفاتها فلا تقع على حسنها عين غير عينه ، ولا تسمع رقة صوتها أذن غير أذنه ، ولا يشعر بروعة جمالها قلب غير قلبه ؛ فيغار عليها من النظر واللفتة ، وكلمة الاستحسان ، وبسمة الإعجاب ، ويخيل إليه أن الناظرين إليها والمحفلين بها ، والمتحدثين بأحاديث حسننها وجمالها ، إنما هم قوم جناة متلصصون قد مدوا أيديهم إلى خزانة ذخائره التي يملكها وحده من دون الناس جميعاً فاختلسوا من جواهرها جوهرة لا حق لهم فيها ، وفازوا بها من دونه ، فيلم بنفسه من الألم والامتناع ما يلم بنفس الشحيح المختبل إذا رأى السابلة تفر من حر الهاجرة إلى جدران داره لتستلري بظلالها ساعة من الزمان ، وإن لم يضره ذلك شيئاً ، وقد يكون من أشهى الأشياء إلى نفسه وأعجبها إليه أن يرى الناس قد أجمعوا رأيهم على استقباحتها والزراية عليها ووصفها بأقبح الصفات

وأشنعها ، وأنها قد أصبحت في نظرهم ضحكة الضاحكين ،
وآية السابلين ، حتى يكون جمالها سراً من الأسرار الخفية ، لا
تراه عين غير عينه ، ولا يبلغ صميمه نفس غير نفسه .

أما المرأة فتنتظر إلى الرجل الذي تحبه نظرها إلى حليتها التي
تلبسها وتعتز بها وتدل بمكانها على أثرها ونظائرها ، فلا أوقع
في نفسها ، ولا أشهى إلى قلبها من أن تسمع الرجال يقولون عنه
إنه رجل عظيم ، والنساء يقلن عنه إنه فتي جميل ، فهي تحبه لخيالتها ،
أكثر مما تحبه للذات وشهواتها ، وترى في إعجاب المعجبين به
وافتان المفتتات بحسنه وجماله ، اعترافاً منهم بحسن حظها وسطوع
نجمها واكتمال أسباب سعادتها وهنائها ، وهذا كل ما يعينها من
شوون حياتها .

لذلك شعرت ماجدولين بلوعة الحزن في أعماق قلبها حينما
عرفت أن حليتها التي كانت ترجو أن تفاخر بها أثرها غداً ،
وتكاثرهن بحسنها وجمالها ، قد بدأها العيون ، واقتحمتها الأنظار ،
وسخر منها الرجال والنساء جميعاً ، وظلت تفكر في ذلك ساعة
كأبدت فيها من آلام النفس ولواعجها ما تكابد نفس المحتضر
في ساعته الأخيرة ، ثم لم تلبث أن عادت إلى نفسها وظلت تقول :
لأنهم لا يعرفون من أمره ولا أمر نفسه شيئاً ، ولو أنهم علموا
من شأنه بعض الذي أعلم ، وعرفوا ما تنطوي عليه جوانحه من
الفضائل والمزايا ، لأعظموا منه ما استصغروا وأجلوا ما احتقروا ،
ولأنزلوه من نفوسهم المنزلة التي يستحقها فضله وكرمه .

وهنا ذكرت آماله وأحلامه ، وبؤسه وشقاءه ، وما يكابده
في خيانه من شدة وبلاء ، في سبيل عيشه مرة وجهه أخرى ،
فبكت ، رحمة به ، وإشفافاً عليه .

وهكذا أخذ حبها يستحيل إلى رحمة وشفقة ، والحب إذا
استحال الى هذين فقد آذن نجمه بالأفول .

(٥٢)

من استيقن إلى ماجدولين

رأيتك يا ماجدولين بعد افتراقنا عاماً كاملاً ، وكانت ساعة
من أسعد الساعات وأهنتها ، ففجرت لها من أجلها كل سيئاته
عندي ، بل نسيت عندها أنني ذقت طقم الشقاء ساعة واحدة في
يوم من أيام حياتي ، وظللت أقول في نفسي : هذا شأني ، ولم
أرها إلا لحظة واحدة على البعد ، فكيف بي إذا أصبحت كل ساعات
حياتي ساعات لقاء . واجتماع ؟ إني أذكر ذلك يا ماجدولين فيخيل
إليّ أن قلبي أضعف من أن يحمل هذه السعادة كلها ، وأنها يوم
توافيني ستذهب إما بعقلي أو بحياتي .

عفواً يا صديقتي فقد أذنبت إليك ييني وبين نفسي ذنباً لا
يد لي من أن أعترف لك به حتى لا أكون قد أذنبت إليك ذنباً
آخر بكماله وإخفائه .

تركت (جوتنج) وقلبي يخفق رعباً وخوفاً أن يكون الحياة
الجديدة التي انتقلت إليها قد نالت من نفسك منالها من نفوس
الفتيات الضعيفات اللواتي تتلون قلوبهن وأهواؤهن بلون الهواء
الذي يستشقه ، والجو الذي يعيش فيه ، فلما رأيتك ورأيت تلك
السحابة السوداء من الحزن التي كانت تغشى وجهك وتظله ومنظر
عينيك الساجيتين المنكسرتين المملوءتين كآبة وحزناً ، علمت أنني
مخطئ في هواجبي وظنوني ، وأن المكان الذي شغلته من قلبك

لا يزال آهلاً بي كعهدي به ، وأن تلك الريبة التي عرضت لنفسي
فيك إنما هي وسوس الحب وأوهامه .

غير أن لي عندك أمنية واحدة ، وأحب أن تأذني لي بذكرها
وأن تنوليني إيها .

رأيتك في الملعب تلبسين ثياباً رقيقة ناعمة تشف عن ذراعيك
وكتفيك ونحرك ، وتكاد نم عن صدرك وئديك ، ورأيت الأنظار
حائرة حولك تكاد تتهبك انتهاباً ، فاشتد ذلك عليّ كثيراً وألم
بنفسي من الغيظ والألم ما الله عالم به ، وما أحسب أنك كنت راضية
عن نفسك في هذا المظهر الذي ظهرت به بين الناس ، ولكنك
خضعت فيه لرأي النساء ، ورأين في هذا الشأن أخيب الآراء
وأطيشها ، فرجائي عندك أن تنزعي عنك هذه الشفوف المهلهلة ،
وأن تعودني إلى ثيابك القروية الأولى ، صوناً لجسمك من عبث
الأنظار وفضولها ، فليس يكفيني منك أن تهيني قلبك وتؤثريني
بمحبتك ، بل لا بد لك من أن تذودي عنك قلوب الرجال وأفئدتهم
فلا تجعلي لها سيلاً إلى الانتان بك ، أو الاهتمام بشأنك ، لا
بالباشاة والوداعة ولا بالترزين والتحلي ، ولا بالتجمل والتأنق ،
واعلمي أن المرأة لا تخلص للرجل الذي تحبه الإخلاص كله حتى
تؤثره بجميع مزاياها وصفاتها ، فلا تحفل برأي أحد فيها غير رأيه ،
ولا تنزل منزلة الرضا في قلب غير قلبه ، ولا تأذن لكائن من كان
أن يقول لها في وجهها ، أو بينه وبين نفسه ، أو في رؤياه وأحلامه ،
إنها جميلة أو فاتنة ، أو ما أظرفها وأبدعها ! حتى توافيه يوم
توافيه طاهرة نقية كاللؤلؤة المكنونة التي يلتقطها ملتقطها من صدقتها .

تحيتي إليك وإلى السيدة سوزان ، وسأذهب مساء كل أحد
إلى الملعب لأراك ، وألتمس السيل إلى لقاءك .

دخلت سوزان على ماجدولين في غرفتها فقرأتها جالسة جلسة الحزين المكتئب ورأت ذلك الكتاب في يدها فاخطفتها منها قبل أن تتمكن من إخفائه ، فقرأته ثم ابتسمت وقالت لها : لم يبق على خطيبك هذا يا ماجدولين سوى أن يأمر بك بأن تشوحي وجهك ، أو تفقئي إحدى عينيك ، أو تجدعي أنفك ، أو تهشي مقدم أسنانك ، حتى تبدأك العيون وتفتحملك الأنظار ، وتتشعر لروبتك الأبدان ، فلا يجرؤ أحد على أن يقول لك بلسانه . أو يته و بين نفسه ، إنك جميلة أو فاتنة ، وأن تحملي بيدك قيثارة رنانة تطوفين بها أنحاء البلاد كما كان يفعل شعراء اليونان والرومان في عصورهم الأولى ، وتتغنين عليهما بمدحه والإشادة به ، وتشدنين أناشيد الثناء على حسنه وجماله ، فما أقل عقله وأقصر نظره وأجهله بالحياة وشؤونها ؛ إني لأحسبه قد أعد لك في بيته منذ الساعة قفصاً من حديد يستقبلك به يوم ترفين إليه ، ليسجلك فيه ، ثم يقف على بابك حارساً يقظاً يصونك من عبث العيون وقصور الأنظار ، فلا ترين إلا وجهه ، ولا تسمعين إلا صوته ، ولا تشعرين بوجود أحد في العالم سواه .

فقال ماجدولين : إنك تهمنيته يا سيدتي بما ليس فيه ، فهو من أحسن الناس أدباً ، وأشرفهم نفساً ، وأطيبهم قلباً ، ولكنه يحب ، وكل محب غيور ، قالت : أعاذني الله وإياك من حب يختلس الحياة اختلاصاً ، ويأتي عليها بأسرع من ضربة السيف ، وكرة الطرف ، والله لو جاء في خطيبي ملك من ملائكة السماء

يحمل على رأسه تاج الملاء الأعلى ، ويمهرني بالجنة التي أعدها الله للمتقين وما فيها من حور وولدان ، وروح وريحان ، ويعلني بالخلود الدائم ، والتعيم الذي لا ينفي ، على أن يضعني في قفص مثل هذا القفص الذي أعده لك هذا الخطيب المأفون لآثرت موت الفجأة ، والتغفل في أعماق السجون ، والقرار إلى أديرة الصحارى المقطعة ، على الرضا به ، والزول على شرطه .

ثم نهضت قائمة وقالت : محال أن أخاطر بك وبمستقبلك يا ماجدولين وأن أتركك فريسة في يد هذا الوحش المفترس ، ينقص عليك عيشك ويكدر صفو حياتك ، ويقطف زهرة شبابك الغضة قبل أوانها ، ثم حيتها وانصرفت إلى مخدعها .

فقضت ماجدولين بعد انصرافها ليلة ليلاء لا تستريح فيها من الضجعة إلا إلى القعدة ، ولا من القعدة إلا إلى القومة ، تتلمس بارقة الصواب في هذه الدجينة الحالكة فلا تهدي إليه ، وتقلب أمرها ظهراً لبطن فلا يزيدا القلب إلا جهلاً ، حتى غلبتها السنة على عينيها فتامت .

(٥٤)

من أوجين إلى استيقن

صدر أمر القيادة العليا للتهير للسفر بعد بضعة أيام إلى جهة لا نعرفها ويقول ضباطنا ان هناك ستكون الواقعة الكبرى التي يفصل فيها في مستقبل الحرب . ولا أعلم ماذا يعده القضاء لي في ذلك اليوم . فإن قدر لي الله النجاة فسأكتب إليك . وإن كانت الأخرى فتستقراً

اسمي بين أسماء القتلى في جريدة الحرب . ولا يحزنك في ذلك
اليوم مصيري ، فهو مصير كل رجل شريف .

لي إليك حاجة يا استيفن ارجو ألا تنسى عليّ بها :

قد بلى سرجي ، ووهت علاقته . ولم يبق معي من المال بعد ما
أنفقت عطائي كله في هذا الشهر بين اللعب والشراب ما أبتاع به
سرجاً غيره ، فابعث إليّ بعشرين فرنكاً قبل مرور عشرة أيام .
فإن فاتك أن ترسل إليّ في ذلك الوقت فلا ترسل إليّ شيئاً فإنه
لا يصلني . وتحيّتي إليك وإلى السيدة ماجدولين .

(٥٥)

العرس

استطاع استيفن بعد سفر صديقه إدوارد أن يستفضل جزءاً
من مرتبه الشهري فاجتمع له بعد بضعة أشهر خمسون فرنكاً ،
استأجر بسبعة منها الحلة التي ذهب بها الى ملعب الأوبرا لرؤية
ماجدولين ، وابتاع بخمسة تذكرة الملعب ، غير ما أنفق على طعامه
وشرابه وسفره وبقي معه بعد ذلك اثنان وعشرون فرنكاً ، فلما
عاد الى جوتنج لبث بضعة أيام ينتظر كتاباً من ماجدولين رداً على
كتابه الأول فلم يأت ، فساء ظنه ووقع في نفسه أنه قد أغضبها
وأسفها فيما كتب إليها ، فاشتد حزنه وغمه وكتب لها رسالة أخرى
يعتذر إليها فيها عما ورد في رسالته الأولى فكتبته إليه أنها كانت
عاتية عليه في سوء ظنه بها . واشتداده في مؤاخذتها وأنها قد قبلت
علمه ، وسألته ألا يتقطع عن زيارة الملعب لئلا يراه ، فعزم على أن

يسافر يوم الأحد ليراها ويلتمس السيل إلى مقابلتها بكل غيلة
ليجد لها اعتذاره بنفسه ، ويشكر لها صفحتها عنه ورضاها .

فبينما هو جالس في غرفته صباح اليوم الذي عزم فيه على السفر
إذ جاءه كتاب أخيه فحزن عند قراءته حزناً شديداً ، وذكر أنه
لا يملك من متاع الدنيا غير هذه القطع القليلة ، وأنه في حاجة إليها
لينفقها على زيارة ماجدولين ، فلبث حائراً لا يدري ماذا يصنع ،
ثم غلبته عاطفة الحب على كل عاطفة سواها ، فقام ليهيء نفسه
للسفر ، وابتاع نعلاناً جديداً لأن نعله القديمة كانت قد بليت ،
وبلغت آخر درجات الاحتمال ، فعجز عن استئجار الحلة التي
استأجرها في المرة الأولى فلم يجد بداً من أن يستصلح حلته التي
يلبسها ، فرتق فتوقها وصنع بالمداد الأسود ما ابيض من خيوطها
ثم ركب عجلة وسافر الى «كوبلانس» في الساعة الأولى من
الليل ، فأكل في بعض المطاعم الصغيرة ، ثم ذهب إلى الملعب فلم
ير ماجدولين في مقصورتها فلم يقلق لذلك كثيراً وقال : لعل لها
شأناً شغلها عن التبكير ، وهي آتية ما من ذلك بد ، وأقبل على
المسرح يتلهى بالنظر إلى فصوله فرأى بين القطع الممثلة مشهد رجل
من أرباب الثراء والنعمة قد استهام بحب امرأة واستهامت به ،
ثم نزلت به نكبة من النكبات المالية فتكررت له وبرمت به وعزمت
على مقاطعته والرحيل عنه فنجى الرجل بين يديها يستعطفها ويسألها
ألا تفعل ، فأبت ، وصارحته بالسبب الذي يدعوها إلى مقاطعته ،
وقالت له فيما قالت : « إن المرأة لا تحب الرجل قط ،
بل تحب فيه نفسها ، فإن كان من أرباب المال أحببت فيه زيتها
ولهوها ، أو من أرباب الجمال أحببت فيه لذتها وشهوتها ، فإن لم
يكن أحد الاثنين ، فهي لا تحب إلا هذين » فاشمأز استيقن عند
سماع هذه الكلمة ، وقال في نفسه : إنهم يمثلون أخلاق البغايا

الفاسقات ، ويزعمون أنهم يمثلون أخلاق النساء عامة ، ها هي ذي ماجدولين تكاد تعبدني حباً ، وما أنا من أرباب الجمال فتحبّ في شهوتها ، ولا من أرباب المال فتحبّ في زيتها ، ولقد أراد الله بها خيراً إذا كفاها مؤنة سماع هذه الكلمات المنفرة ، ولو سمعتها لآلتها ونالت من نفسها مثلاً عظيماً .

ثم انتظر بعد ذلك ساعة فلم يبق له أمل في مجيئها ، وعلم أن هناك شأنًا عظيمًا عرض عليها فشغلها عن الحضور ، فاشتد عليه الأمر كثيراً ، ورأى ألا بد له من الوقوف على شأنها قبل العودة إلى قريبته ، وخشي أن تكون مريضة ، فخرج من الملعب ومشى في طريق قصر سوزان ، وهو لا يعلم كيف يلتبس السيل إلى الوصول إليها حتى دانه فرأى أنواراً كثيرة تتلألأ في أبيائه وحجراته ، وتدفق من نوافذه وكواه ، وسمع ألحاناً مختلفة تتردد في أنحائه ، ورأى الخدم راشحين غادين في صحونه وأفئته يحملون على أيديهم آنية الشراب وصحف الطعام ، فعلم أنها وليمة عامة ، ولكنه لم يدرك ما المراد بها ! فدنا من الباب فرأى عجلات كثيرة مصطفة أمامه ، ورأى حوزياً متكئاً على كرسي عجلته . فسأله : ما هذه الليلة الحافلة في هذا القصر ؟ فصعد الرجل نظره فيه وصوبه ، ثم قال له ، وهو لا يفارق متكأه : إنه عرس السيدة سوزان ابنة صاحب هذا القصر ، فاطمأن وهذا وعلم بأن ما بصاحبته من بأس ، وعزم على الانصراف . ثم حدثته نفسه أن يحتمل لرويتها ، ولو على البعد لحظة واحدة قبل انصرافه . فمضى إلى ظلة دانية من طلل القصر فوقف تحتها يفكر في الوسيلة التي يتدرج بها إلى الدخول ، فما لبث أن رأى عجلة مقبلة تحمل بعض الكبراء ، ورأى الخدم يهرعون إليها فاتقل من مكانه واختلط بهم كأنه واحد منهم ، ولا تختلف هيئته عن ذلك إلا قليلاً ، ثم نزل الزائر

فمضى بين يديه مع الماشين حتى اجتازوا فناء القصر ووصلوا إلى قاعة الرقص ، فدخل الرجل ودخل معه الخدم وبقي هو وحده على الباب يستشف من ألواح زجاجه ما وراءها من المناظر ، فرأى الراقصين والراقصات يسبحون في بحر من الهناء والسرور ويطيرون في أجواء مختلفة عن اللذائذ والمتاع ، فظل يدبر عينيه بينهم يفتش عن ماجدولين حتى لمحها ترقص مع رجل فتينه فإذا هو صديقه لإدوار ، فلم يأبه لذلك كثيراً ، إلا أن ما راعه وأزعجه وكان يطير بلبه أنه رآها ترقص في ثوب رقيق شفاف لا يكاد يحجب جارحة من جوارحها ، وخيل إليه أن صدرها ملتصق بصدر مخاصرها ، وأن رأسها ملقى على كتفه ، وخدها تحت تناول لثامته ، وأنه يحتضنها أكثر مما يحرصها ، فأن أنيناً مؤلماً ، وقال في نفسه : ماذا فعلت بك الأيام يا ماجدولين ؟ وحدثته نفسه أن يقتحم الباب ويتغلغل بين الزائرين حتى يبلغ مكانها ويلقي عليها نكرة عتب وتأنيب ، ثم يعود أدراجه ، ولكنه استحيا لها ولنفسه أن يراه الناس في هذه الأتواب الجلفظة الغليظة ، فتماسك على مضض ، وأنشأ يسري عن نفسه ويقول : هذا شأن جميع الراقصين والراقصات وهذه أثوابهم التي يلبسونها ، ومواقفهم التي يقفونها ، برهم وفاجرهم ، وتقيهم وعاهرهم ، فلا ألومها ، ولا أعتب عليها ، فتلبس ما تشاء من الثياب ، وترقص مع من تشاء من الرجال ، فحسبي منها أي أنا الشخص الوحيد الذي يتيمها ويخلصها ، ويملا فراق قلبها ، من بين هؤلاء جميعاً ، ثم أعاد النظر مرة أخرى فرأها قد فرغت من الرقص ومشت هي وإدوار إلى مقعد قريب من الباب فجلسا عليه فلم ير في مجلسهما بأساً ، ولا مستراباً ، فهدأ تأثيره ، بل أعجبه ما رأى من عناية صديقه بها ، وعطفه عليها ، وخيل إليه أنه ما رقص معها ، ولا احتفل بها إلا من أجله ، وأنهما

ما اجتماعاً على هذا المقعد في هذه الساعة إلا ليتحدثا بشأنه ويتذكرا أيامه وعهوده ، ثم ما لبث أن لمح في أصبعها خاتماً فتيته فإذا هو الخاتم الذي نسجته من شعره ، والذي لا تزال تحدنه عنه في رسائلها كلما كتبت إليه ، فاعتبط بذلك اغتباطاً عظيماً . ولم يبق في نفسه من ذلك الحاطر المؤلم الذي مر بذهنه منذ ساعة أثر واحد .

ولأنه لكذلك إذ دفع الباب بغتة وخرج منه ففى متأنق من الزائرين يهز في يده سوطاً مستطيلاً فرآه واقفاً فظنه بعض الخدم فصرخ في وجهه بلهجة الأمر ان يدعوه له سائق عجلته ، وسماه له ، فارتبك قليلاً ، ثم لم ير بداً من الامتثال مخافة أن ينكشف من أمره ما كان خافياً ، فهرع إلى الباب الخارجي يهتف باسم غير الاسم الذي سمعه وكان قد نسيه ، فأدركه القنى ، وقد طار الغضب في دماغه فضربه بالسوط على وجهه ضربة أدمته وأخذ يسبه ويشتمه ، فاحتمل استيفن تلك الضربة صامتاً ، ومشى في طريقه لا يلوي على شيء .

وما أبعد إلا قليلاً حتى انحدرت من جفنه دمعة جرت على خده فأصابته موضع الضربة منه فألته فهتف صارخاً : ماذا لقيت في سبيلك يا ماجدولين ؟ .

(٥٦)

المريض

عاد استيفن إلى « جوتنج » فوجد كتاباً من قريه الذي كان

قد أحسن إليه بتلك القطع الذهبية يوم خروجه من «كوبلانس» شريداً طريداً يقول له فيه إنه مريض مشرف ، وإنه يجب أن يراه بجانبه في ساعته الأخيرة ، فرثي له وحزن عليه حزناً شديداً ورأى ألا بد له من موافاة رغبته في الذهاب إليه ؛ فاستأذن المريضة في بضعة أيام يقضيها بجانبه فلم تأذن له الا بثلاثة ، فسافر إليه ، وكان يسكن بيتاً في ضاحية من ضواحي «كوبلانس» لا يرى فيه إلا وجه خادمه وطيبه ، وكانت زوجته قد ماتت منذ عهد قريب ، وليس له من الأقارب الأدين غير ابن عم له من قساة الأغنياء وجفاته لا يحبه ولا يحفل بشأنه ، فدخل عليه استيقن في ساعة من ساعات الليل فرآه ساهراً يئن من الآلام والأوجاع ، وقد نال منه الداء مثلاً عظيماً ، فأصبح لا يستطيع النطق إلا همهمة وتجمجماً ، فجلس بجانبه يتوجع له ويواسيه حتى استطاع الرجل بعد لأي أن يقول له : لقد مرت بي بضعة أشهر ، وأنا طريح هذا الفراش لا أفارقه لحظة واحدة حتى مللت وبرمت ، وأصبحت أخشى غائلة الضجر أكثر مما أخشى غائلة المرض ، فلا تفارقني بعد الموت حتى يحكم الله في أمري بما يشاء .

فلبث معه الثلاثة الأيام التي أجازوه بها ثم عزم على العودة فتوصل إليه المريض بانكسار عينيه وترقق الدمع فيهما ألا يفارقه حتى يقضي الله في أمره بقضائه ، وكان قد ثقل وأشرف وأصبح على حالة لا ترجى له معها الحياة ، فتذم استيقن أن يفارقه على حاله تلك وكسب إلى المدرسة يستأذنها في بضعة أيام أخرى يتخلفها وأدلى إليها بعنره في ذلك ، ولبث يتظر جوابها فلم يأتها فاشتد به القلق ، ثم جاء منها بعد حين كتاب تقول له فيها إنها لم تر بداً من الاستغناء عنه والاستبدال منه وأنها قد أرسلت إليه ما بقي له عندها من مرتبه ، فما أتى على آخر الكتاب حتى صاح صيحة كادت تنقطع لما أضاعه

وسقط مغشياً عليه وهو يقول : « رحمك اللهم فقد عجزت
عن الاحتمال » .

(٥٧)

الموت

نامت العيون وهذأت الجفون في مضاجعها ، وسكنت كل
سارية في الأرض ، وكل ساجدة في السماء ، وظل استيقظ وحده
ساهراً بجانب مريضه المحتضر يسمع حشرجة الموت في صدر
ترن في هدوء الليل وسكونه فيخيل إليه أنه واقف في وسط فلاة
موحشة تعزف جناها وترجر غيلانها ، فامتلاّت نفسه رهبة ووحشة ،
وأن هناك معركة قائمة بين الروح والجسد ، تأبى إلا أن تفارقه ،
ويأبى إلا أن يتشبث بها ، فيلجأ من التعب والنصب ما لا يحتمله
محتمل حتى عي بأمرها فتساقط خائراً مستسلماً لا تطرف له عين
ولا ينبض له عرق ، فوضع استيقظ أذنه على صدره فلم يسمع
شيئاً ، فلم أن الأمر قد انقضى ، وأن الراقص قد ألقى قناعه ،
والممثل قد خلع ثوب تمثيله ، وأن عنصري الحياة قد افترقا وعاد
كل منهما إلى أصله . فطار منهما ما طار ، ورسب ما رسب ،
فجثا بجانب الميت يرثيه ويتوجع له ويبكي عليه مرة وعلى نفسه
أخرى ، ومرت أمام نظره في تلك الساعة رواية حياته الماضية
من مبدئها إلى منتهاها ، فظل يقرأها صفحة صفحة ، ويقلب نظره
في سطورها وكلماتها فرأى بؤساً وشقاءً ، وأحزاناً ودموعاً ،
وجلوداً عائرة ، ونجوساً متتابعة ، حتى انتهى إلى الصفحة الأخيرة
منها فقرأ فيها كتاب العزل الذي جاءه من المدرسة ، فانتفض عند

قراءته انتفاضاً شديداً ، وصاح صيحة عظيمة دوت بها أرجاء الغرفة قائلاً : ما هذا ! هل فقدت ماجدولين ؟ ثم أطرق إطرأاً طويلاً لا يعلم إلا الله أين سبحت نفسه فيه ، ولبث على ذلك ساعة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه جمرتان ملتتهتان وإذا وجهه أسود مرعب كأنما قد لبس نسيجاً غير نسيجه فدار بنظره في أنحاء الغرفة دورة الحية الرقطاء بجوهرتها في جنبات جحرها حتى وقع على خزانة المال التي كان يأمره الميت في حال مرضه بالإتفاق منها ، فعلق بها ساعة لا يتنقل عنها ولا يتحول ، كأن عينيه قد استحالتا إلى مسمارين لامعين من مساميرها ، ثم وثب على قلميه فجأة وقد أصابه مثل الجنون وهتف صارخاً : لا بد لي من النجاح في حياتي ولا أسمح لعقبة من العقبات مهما كان شأنها أن تقف في طريقي ، وإن الدهر لأعجز من أن يعترض سبيلي ، أو يغلبني على أمري ، فهو لا يغلب إلا الضعفاء ، ولا يقهر إلا الأغنياء ، وما أنا بواحد منهم ، وإن من الجبن والخور أن أضع حياتي بين يديه يتصرف بها كيف يشاء ، فلاكن أنا دهرأ وحدي ، أتولى شأن نفسي بنفسي ، وأتصرف بحياتي على الصورة التي أريدها ، لا أتقيد بقانون ولا نظام ، ولا أسجن نفسي في هذه الدائرة الضيقة التي يسمونها الفضيلة ، فما سقط الساقطون في معترك الحياة ، ولا داستهم أقدام المعركين فيه ، إلا لأنهم وقفوا من ميدان في نقطة واحدة لا يتحولون عنها ولا يتحللون فلم ينتبهوا إلى الضربات المختلطة التي جاءتهم من خلفهم فقضت عليهم ، ولو أنهم داروا مع المعركة حيث دارت ، وتقلبوا في جنباتها كراً وفرأ ، لظفروا بالغنيمة مع الظافرين ، ولنجوا من غائلة الموت الزوأم .

لا رذيلة في الدنيا غير رذيلة الفشل ، وكل سبيل يؤدي إلى النجاح فهو سبيل الفضيلة ، وما نجح التاجحون في هذه الحياة

إلا لأنهم طرّفوا كل سبيل يؤدي إلى نجاتهم فاقترحوه غير متدبّين ولا متلومين ، وما سقط الساقطون فيها إلا لأنهم تأمّنوا ونجّروا وأطالوا النظر والتفكير ، وقالوا : هذا حلال وهذا حرام .

من هم الذين يملكون الدور والقصور والضياع الواسعة ، والرباع الحافلة ، والذين تموج خزائهم بالذهب ، موج التنور باللهب ؟ أليسوا اللصوص والمجرمين الذين يسمون أنفسهم ويسمىهم الناس سراً ووجهاً ؟

من هم الذين يسهرون الليل طاوّن لا يطرق النوم أجفانهم ، ويقضون أيامهم هائمين على وجوههم يفتشون عن الرزق في كل مكان لا يظفرون منه باللقمة أو الجرعة إلا إذا أراقوا في سبيلها محجماً من دماء قلوبهم ؟ أليسوا الأشراف والفضلاء الذين يسميهم الناس ويسمون أنفسهم معهم رعاة وغوغاء ؟

أنا لا أعترف بقانون الملكية ولا قانون الوراثة ، لأن المالكين سارقون ، ولأن الوارثين أبناء السارقين ، فلا أسلي نفسي لصاً إلا إذا سرقت فقيراً يكدح لقوته ليله ونهاره فلا يبلغ منه إلا الكفاف ، ولا أسمى نفسي ظالماً إلا إذا ظلمت عادلاً مستقيماً لم يظلم في حياته غلة في حبة شعيرة يسلبها إياها .

إن نشاط الرذيلة وشطاطها أحرص من أن يترك للفضيلة المتشدّة المترفة في سيرها شيئاً وراءه تبلغه فتلتقطه ، فلأغامر في ميدان هذه الحياة مغامرة فإن ظفرت فذلك ما رجوت ، أو لا ، فقد أبليت في حياتي عنراً .

وكان يهذي بأمثال هذه التصورات وهو يضرب في أرجاء

الغرفة ذهاباً وجيئة بخطوات واسعة متلاحقة ، ثم وقف بغتة وألقى نظرة على الجثة المسجاة أمامه وقال : لقد أصبحت ميتاً أيها الرجل ، فلا ينبغيك من المال الذي تركته وراماك شيء ، ولا شأن لك بمن يخلفك عليه من بعدك أكان صديقك أم عدوك ، أم أقرب الناس وحميمك الذي واسك وجاملك في ساعاتك الأخيرة ، وقام لك بما لم يقم لك به صديق ولا حميم ، حتى أضاع آماله ومستقبل حياته في سبيلك أن توصي إليه بمالك ، فهو أخرج إليه من ابن عمك السعيد المجلود الذي لا يبالي أزاء مالك على ماله ، أم نقص منه ، فأنا قائم عنك بعد موتك بما فاتك أن تقوم به في حياتك .

ثم أدار ظهره إلى الجثة ومشى إلى الخزانة وكانت على كئيب منه فوضع يده على مفتاحها فشعر برعدة شديدة تتمشى في أعضائه ، وخيل إليه أن الغرفة كلها عيون ترقبه وتحقق في وجهه ، وأن روح الميت تلقي عليه من نوافذ جثتها نظرات شذراء ملتهمية يكاد أوارها يصل إليه فيحرقه ، فترث في مكانه قليلاً ثم تماسك واستجمع له وأناته ، وأدار المفتاح فدار الباب على عقبه وصر في دورانه صريراً خشياً ، فارتعد وتمثل له أن صوتاً أجش من من أصوات الحراس الأشداء يهتف به ويخاشته ، فابتعد عن الباب خطوة ، ثم التفت بمنة ويسرة فلم ير شيئاً ، فهال إنها خيالات الشقاء تلاحقني في كل مكان ، ومد يده إلى الأوراق يقلبها على نور مصباح ضعيف كان في يده حتى عثر بالسفاتج التي يريدتها ، فما وضع يده عليها حتى شعر أن دمه الذي كان يغلي في عروقه غليان الماء في مرحله قد هدأ وبرد حتى كاد يقف عن الجريان ، وأن قطرات باردة من العرق تنحدر من جبينه على وجهه متتابعة ، وأحس نفسه بذلك السكون العميق الذي يشعر به الهائج المصروع بعد استفاقة من سمرعه ، وخيل إليه أن الخزانة التي أمامه تهز

وتضطرب ويهيج بعضها في بعض ، ثم ما لبث أن استحات الى
مرأة ثقيلة لامعة فوق نظره على صورته فيها فامتلا قلبه خوفاً
وذعراً ، وأنكرت نفسه نفسه ، فقد رأى في أساير وجهه تلك
السحنة المنكرة التي يعرفها في وجوه المجرمين ، ورأى في عينيه
تلك النظرات الطائرة الشاردة التي ينظر بها المحكوم عليه بالموت
الى سيف الجلاد حين يلمع فوق رأسه فظل يرتعد ويضطرب ،
وظلت الأوراق تتساقط من يده واحدة بعد أخرى ، وإنه لذلك
إذ أحس يده ثقيلة قد وضعت على كتفه فلم يأبه لما في أول الأمر ،
وظنها بعض الخيالات التي لا تزال تعاوده منذ الليلة ، إلا أنه لم
يلبث أن أحس ببرودتها فوق كاهله فتمالك في نفسه وتجمع تجمع
الموقع صرصة هائلة تسقط على أم رأسه ثم التفت قليلاً ليرى
ماذا دسه ، فإذا الميت واقف خلفه عاري الجسم ينظر إليه بعينين
جامدتين صرخ صرخة عظمت ودفعه بيده دفعة شديدة فسقط
على الأرض بعيداً عن مضجعه الأول فرت عظام رأسه على أرض
الغرفة رنيناً شديداً ، فاختل وأصابه الجنون وألقى المصباح من
يده فانطلقاً فازداد رعبه وفزع ، وهرع يطلب الباب للفرار منه
فلم يهتد إليه ، فظل يعدو في أنحاء الغرفة ، ويتلمس جدرانها
مقبلاً مديراً لا يعثر حتى يقوم ، ولا يقوم حتى يعثر ، وقد خيل
إليه أن الجنة تعدو وراءه وتتعبه حيثما ذهب ، حتى أعياه الجهد ،
عن الحركة . فسقط مغشياً عليه .

ولم يكن ما رآه في هذه المرة خيالا بل حقيقة لا ريب فيها فقد
عاودت الميت الحياة لحظة ففتح عينيه للمرة الأخيرة فرأى باب
خزائنه مفتوحاً ورأى إنساناً لا يعرف من هو يقبل أوراقه ،
فدفعه الحرس الغريزي الذي لا ينفارق الإنسان من مبدأ ساعات
حياته إلى نهايتها والوثوب على قدميه والإهواء بيده على كتف

السارق ، ثم كان ما كان من سقوطه على أرض الغرفة فكان في سقطته القضاء عليه .

لم يستفق استيفن من غشيته حتى طلع الفجر وأرسل بعض أشعته من نافذة الغرفة ففتح عينيه وظل ينظر حوله يمنة ويسرة ، فرأى الصباح الساقط والخزانة المفتوحة ، والأوراق المبعثرة ، والخبطة الملقاة ، فذكر كل شيء وقام يتحامل على نفسه فأعاد كل شيء إلى مكانه ، ونقل الخبطة إلى مضجعه وأسبل عليها غطاءها ، ولم يلبث أن جاء الطبيب ، فلما رأى الصدع الذي في رأس الميت قال لاستيفن : أحسب أن المريض قد ثار من فراشه في ساعته الأخيرة ولم يكن معه من يتولى شأنه فسقط بعيداً عن مضجعه فأصابه ما أصابه ، فارتعد استيفن وقال : نعم يا سيدي ، ولقد كنت نائماً في تلك الساعة فلم أستطع مساعدته ولم أستيقظ إلا على صوت سقطته ، فاحتملته إلى مكانه وكان أسفي لذلك عظيماً ، فلم ير الطبيب بأساً فيما قال ، وانصرف لشأنه .

وما انقضى النهار حتى دفن الميت وحضر دفنه وارثه ، وسافر استيفن إلى «جوتنج» وهو يردد في طريقه قوله : «ويل لي من مجرم أثيم» فما وصلها حتى كان قد بلغ آخر درجات الاحتمال فسقط في فراشه مريضاً مدقفاً ، لا يفارقه خيال تلك المائلة التي كابدها لحظة واحدة .

(٥٨)

إدوار

علق إدوار بماجدولين منذ الليلة التي رآهما فيها استيفن من

وراء ألواح الزجاج يرقصان معاً ، فأنشأ يختلف إلى منزل سوزان
وكان يمت إليها بحبل قرابة ليرى حبيبته ويستلني قلبها ، وكان من
أقدر الناس على مثل ذلك ، لعذوبة يعرفها له النساء في أخلاقه ،
وحلاوة تجذب قلوبهن في أحاديثه فأنست به وبمحضره وأعجبها
منه أنه كان يسرد عليها كلما جلس إليها أحاديث المحافل والأندية ،
ويطرفها بغرائبهما ونواذرهما ، ويذكر لها أسماء الراقصين
والراقصات وفضل ما بينهم في البراعة والافتتان ، ويشرح لها
أنواع الرقص غربية وشرقية ، قديمة وحديثة ، وتاريخ كل نوع
منه ومنشأه ومصيره ويقص عليها قصص الغرام التي تنشأ كل يوم
في قاعات الرقص بين النساء والرجال ، وكانت حديثة عهد بذلك
كله ، فلم يكن شيء من الأشياء أعجب إليها من ذكره وترديده ،
وكان إذا جرى ذكر استيفن بينهما أثنى عليه وأطراه ، وقص عليها
طرفاً من نواذر طفولتهما وصباهما ، وما مر لهما في حياتهما
الأولى من بؤس ورغد وشدة ورخاء ، ثم يصف لها بلهجة الحزين
المتضجع حياة البؤس والشقاء التي يجيهاها اليوم في « جونتج » وغرفته
التي يسكنها ، وأثاثها الذي تشتمل عليه ، وثيابه التي يملكها ،
ثم يتبع ذلك بالتوجع له ، والتألم لبؤسها وشقائه ، ومخاربه الدهر
إياه في مساعيه وأغراضه ، فتصغى إلى حديثه وتقبل عليه إقبالاً
عظيماً .

ولم يزل بها حتى خلبها ، ووقع من نفسها ، وأصبحت لا
تكاد تصبر عن مجلسه ساعة ، ولا تزال تفتقده وتسال نفسها
عنه كلما غاب عنها ، وهي تظن أنها إنما تحبه من أجل استيفن ،
ولو كشف لها عن دخيلة نفسها لعلمت أنها قد بدأت تنسى استيفن
من أجله .

ولقد أعجبت سوزان تلك الصلة التي نشأت بين صديقتها وقريبها ورضيت عنها الرضا كله ، ورأت أن الله قد أراد به وبها خيراً ، فرزقه أفضل الفتيات جمالاً وأدباً ، ورزقها خير الفتيان ثروة وجاهاً ، وكانت تعرف شيئاً عن عيوب إدوار ، ولكنها كانت ترى أنها عيوب خاصة به لا تتعداه إلى غيره ، وكانت تعتقد أن المرأة لا ترى في زوجها الغني الذي يملأ فضاء بيتها نعمة ورغدأ عيياً واحداً مهما كثرت عيوبه ، فأنشأت تسعى سعيها للبلوغ بهما إلى الغاية التي تريدها لهما . فأشارت على إدوار أن يتودد إلى الشيخ مولر ويدخله مداخلة الصديق صديقه ، وقالت له : إنه رجل مفتون بحب النبات والزهر ، فلا يعجبه إلا الحديث عنهما ! ولا يتزل من نفسه المنزلة العليا إلا من يعلم أنه يشاركه في العلم بهما ، والاهتمام بأمرهما ؛ وكان إدوار قد درس شيئاً من علم النبات في مدرسته فاستعان بستانبي حديقته على معرفته معرفة ما كان يجهله منه ، غرس في حديقة بيته بعض أنواع الزهر الغريبة ؛ وعرف خصائصها وصفاتها ، ثم خالط الرجل ودخله ودعاه إلى بيته وأراه حديقته ، ومشى معه في كل مكان وجاراه في كل حديث ، فلم يلبث أن أعجبه ووقع من نفسه ؛ وهكذا أصبح أثيراً عند الأب وابنته .

(٥٩)

سريرة المرأة

ما أبغضت ماجلولين استيفن ، ولا أحبت إدوار ، ولكنها ليست حالاً جديدة لم تكن تلبسها من قبل ، فكان لا بد لها من

أن تلبس معها جميع آثارها ومتعلقاتها ، قد ألقت الجامع والمحافل ،
وأُنست بالمراقص والملاعب ، وصادقت النساء المتحضرات المتأنقات ،
وغنت كما يغنين ، ورقصت كما يرقصن ومشت في مثل أزبائهن ،
وتحدثت بمثل أحاديثهن ، وفهمت من سعادة الحياة وهنأها المعنى
الذي يفهمن ، ورأت في الرجال والنساء والصلة التي بينهما الرأي
الذي يرين ، فتأست استيفن لأنه صورة من صور ، الحياة الحياة
الماضية التي عافتها واجتوتها وأحبت إدوار لأنه مظهر من
مظاهر الحياة الجديدة التي أحببتها وافتننت بها .

على أنها كانت إذا خلت إلى نفسها ، وهدأت عنها ضوضاء
الحياة وضجيجها ، واستطاعت أن تمد نظرها إلى أعماق سريرتها
حتى ترى ما في قرارتها تراءى لما شبح استيفن في نغمله واصفراره
وحزنه واكتنابه وبؤسه وشقائه ، ومنظر عينيه الممتلئين حزناً
ودموعاً ، وقلبه المتقدم حباً وغراماً ، ونفسه الشاعرية الهائمة في
أودية الهموم والأحزان ، فتحن إليه حنين الغريب إلى داره والشيخ
ألى عهود صباه ، وتذكر أيامه الماضية التي قضاها معها فتبكي
حسرة عليه وإشفاقاً ؛ بل وجدأ به وغراماً ، ثم لا تلبث أن ترى
سحابة بيضاء من الور مائلة أمام عينها ، فلا تزال تنبسط وتستفيض
حتى تشف عن قاعة الرقص التي شهدتها ليلة عرس سوزان ،
فترى الوجوه المشرقة ، والثغور الباسمة ، والذهب اللامع ،
والجوهر الساطع ، والغلائل المطرزة ، والحلل المديحة ، والصدور
اللاصقة بالصدور والأذرع المحيطة بالخصور ، والجو المائج
بالأنوار ، والروض الحافل بالأزهار . وترى العروسين كالفرقدين ،
يسمان للسعادة المقلبة عليهما ، ويتدفق تيار الحب والصباة بين
قليهما ، فيتضاءل أمام عينها ذلك الشبح الأول ، ثم لا يلبث
أن يتغلغل في ظلمات الوجود الحالكة حتى يغيب عن نظرها ،

فلا يبقى له عين ، ولا أثر .

ولقد دخلت سوزان عليها صبيحة يوم في غرفتها ، وكان قد مضى على زفافها شهران فقللت لها : أتترين ما اتفقنا عليه أنا وأبوك ليلة أمس يا ماجدولين ؟ قالت : لا ، قالت : أن نسافر جميعاً إلى ضياع زوجي في «سان مارك» لنقضي فيها أسبوعين أو ثلاثة ، ثم نتقل إلى ولفباخ وهي على بضعة أميال منها ، فنستضيفكم أسبوعاً واحداً نقضيه في التنزه بين مزارع القرى وداكرها ، ثم نفرق بعد ذلك . فتهلل وجه ماجدولين فرحاً بتلك السياحة الجميلة التي ستقضيها مع أصدقائها في أجمل البقاع وأبهجها ، ثم ما لبثت أن اكتأبت وتغصن جبينها لأنها ذكرت ساعة الفراق القرية ، وأنها ستعود بعد أيام قلائل إلى عزلتها في قريتها ، وتعيش فيها عيشة الوحشة والوحدة بعيدة عن «كوبلانس» ومجامعها ومزدحم الحياة ، فاشتد ذلك عليها كثيراً ، وألمت سوزان بما دار في نفسها وعرفت مأثاه ، إلا أنها تباهلت واستمرت في حديثها تقول : وسيصبحنا في سياحتنا هذه إدوار ، وسيكون أنسنا به وبعشرته عظيماً ، ألا ترين رأيي في ذلك يا ماجدولين ؟ ففهمت ماجدولين مقصدها ، وأين تريد أن تذهب في حديثها . فقالت : ليذهب معكم من تشامون مسن أصدقائكم وخطائكم ، فلا شأن لي في ذهاب من يذهب ، أو بقاء من يبقى ، فابتسمت سوزان واستطردت في حديثها تقول : ولقد اتفقنا كذلك على ألا يسافر إدوار معنا إلاّ باسم خطييك ، وعد قطعنا هذا الأمر من دونك ، لأننا نعلم أنك لا ترين لنفسك إلا الرأي الذي نراه لك ؛ فاضطربت ماجدولين وقالت : لقد قلت لك يا سوزان قبل اليوم إنني لا أستطيع أن أتزوج ، قالت : لماذا ؟ وهل تطمع الفتاة في زوج أفضل منه عقلاً وأدباً ، وشرفاً

وجاهاً ، وهو فوق ذلك يحبك ويستهم بك ، ولا يؤثر على سعادتك
وهناك غرضاً من أغراض الحياة ، ولا مارباً من مآربها ؟ قالت :
ولكنه لا يستطيع أن يحبني محبة استيفن إياي ، قالت : أما هذه
فنعم ، لأنه يحبك حب العقلاء والأكياس ، لا حب النوكى والمافونين .

إن هذا الذي تزعمين أنه يحبك ويستهم بك ، لا يحبك ، بل
يجب فيك المرأة الخالية التي يتخيلها في ذهنه ، والتي لم يخلق الله
لها مثلاً في هذا العالم ، ولا يعبدك ، بل يعبد إله المرحوم الذي
يظن أنه حال في جثمانك كما كان يعبد آباؤنا الأولون آلهتهم
في جنوع الأشجار ، وقطع الأحجار .

إنه يتخيلك ملكاً من ملائكة السماء تحيط بوجهه هالة من
النور ، ويرفرف في جنيبه جناحان أبيضان مثلان تلألؤ الأشعة
ويحمل بين أضلاعه نفساً غريبة عن النفوس في جوهرها ومعدنها
قد جعلها الله بجميع صنوف الكمال ، وطهرها من أدناس الحياة
وأرجاسها ، فلا تفهم شهوة من الشهوات ، ولا تشعر بلذة من
اللذائذ ، ولا تعرف فرق ما بين السعادة والشقاء والغنى والفقر
والراحة والتعب ، والسرور والحزن . فويل لك منه يوم تنحشر
عن عينيه بعد ساعة واحدة من بنائه بك غشاوة الحب الأول ،
فيراك كما أنت ، ويرى فرق ما بينك وبين الصورة الخيالية المائمة
في رأسه ، إنه لا بد ييغضك ويحتقرك ، ويهوى بك إلى أدنى
درجات الذل والشقاء ، ولا نهاية للإغراق في الحب ، غير الإغراق
في البغض ، فإن كان لا بد لك من أن تحتفظي بمكانتك في قلبه
فلا تزوجيه ودعيه ينظر إليك دائماً بهذه العين التي ينظر بها إليك
اليوم ، ولا تخشي عليه أن تشقى بفراقك فليست فجيعته فيك
يوم يفقدك ، بأعظم من فجيعته في أماله وأحلامه يوم يراك ويرى

في ثوبك امرأة غير المرأة التي كان ينتظرها ، ويطير شوقاً إليها .

أنت لا تعلمين من شئون الحياة ودخائلها مثل ما أعلم يساً ماجدولين . ولقد خبرت فيما خبرت من صروفها وتجاربها أن الغرام أضعف العلائق بين الزوجين والمصلحة أقواها وأوثقها ، وأن الحب كالزهرة ، والمال كالظل الساقط عليها ، فإذا انقطع الظل من الزهرة بضمة أيام ذوت أوراقها وتساقطت ثم تطايرت في مهب الريح الأربع ، وأن هذه الثورة النفسية التي يسمونها الصباية أو الوجد أو الوله أو الهيام ، والتي لا يزال يهتف بذكرها الشعراء ، وتطير في سماء خيالها أبواب الرجال والنساء ، إنما هي عرض من أعراض الأعصاب المريضة ، يبيجه البعد ويطفئه القرب ، ثم تبقى بعد ذلك الحاجة إلى العيش ومرافقه ، والسعادة وأسبابها ، فإن أعوذ ذلك فقد مات الحب في القلب ، ودفنت جثته في ضريح الفقر ، والفقر يطوي في أحشائه جميع عواطف القلوب وخوالجها ، بل ربما دارت الوسوس والأوهام في رأس ذينك الزوجين اللذين كانا متحابين بالأمس ، فرأى كل منهما في وجه صاحبه صورة الشؤم له ، وألقى عليه تبعه بؤسه وشقائه ، فاستحال حبهما إلى بغض متغلغل في سويداء القلب ، لا ينزعه إلا الموت .

أنت فقيرة يا ماجدولين ، واستيقن أفقر منك ، فلا تضمي فقره إلى فقرك وليختر كل منكما لنفسه العشير الذي يعلم أنه يسعده ، ويملاً فضاء حياته غبطة وهناء ، فإن كان لا بد لك من الوفاء له فإن أوفى ما يكون المرء لصاحبه حين يؤثر مصلحته على مصلحة نفسه ويكفكف من نزعات قلبه وأهوائه في سبيل سعادته وهنائه ، فليكن ذلك شأنك معه ، واحتملي مرارة فراقه

وَألم الحرمان منه رحمة به وإبقاء على حياته التي توشك أن تعبث بها نكبات الدهر وأرزأوه ، فقد أصبحت أخشى عليه - وفي رأسه هذا العقل الصغير المختل ، وبين جنبيه مثل هذا القلب الضعيف المستطار - إن يمر به جده فيما يحاول من الأمل الذي يسعى إليه من أجلك ، فيدفعه جنون الطمع إلى سلوك طريق غير طريق الشرف ، فيقترب جريمة ، أو ينتهك حرمة ، أو تثور برأسه نائرة اليأس فيقتل نفسه طلباً للراحة من عناء الحياة وشقاءها ، فإن فعل فأنت الجانية عليه ، والموردة إياه هذا المورد من التلف ، فانظري كيف يكون موقفك بين يدي ربك وضميرك غداً إن تم ذلك على يدك ؟

فاستعيرت ماجدولين باكية ، وما بكت إلا رحمة بذلك البائس المسكين وإشفاقاً عليه أن يناله بسببها هذا الشقاء العظيم ، وأطرقت ملياً ثم رفعت رأسها وقالت : دعيني الساعة وحدي يا سوزان فلأنني في حاجة إلى الخلوة بنفسي .

(٦٠)

الجريدة العسكرية

التحم جيشنا أمس بجيش العدو واستمرت المعركة عشر ساعات لقي فيها جنودنا من بأس العدو وشدته وقوة مراسه هولاً عظيماً ، حتى بلغ منهم اليأس أو كاد ، ثم برز من بين صفوفنا ضابط من ضباط الفرسان اسمه « أوجين ولتز » فهدف بجنوده « وراثي أيها الأبطال ! » وانقض على العدو انقضاض النازلة السماوية فانقض معه بيوده فسرت الحمية في نفس الجيش بأجمعه فهجم

وراءه ، وما هي إلا جولة أو جولتان حتى تمت الهزيمة للعدو
ففر يطلب النجاة لنفسه في كل مكان فتبعناه وأمعنا فيه قتلاً وأسراً
وغنمنا منه غنائم كثيرة

إلا أنه حدث لذلك الضابط الشجاع في نهاية المعركة حادث
كثير صغفوا ذلك الانتصار ، فإنه بينما كان يتتبع آثار العدو ويضرب
في مؤخرته إذ انقطع حزم سراحه وكان بالياً واهياً فمجز عن
التماسك فسقط عن جواده فداسته حوافر الخيل ، ثم انتبه له
من الحياة فقضى ساعة يتألم ألماً شديداً ويهتف باسم أخ له اسمه
« استيفن » حتى فاضت روحه ، فحزن الجيش عليه حزناً شديداً
وبكاه القواد وروساء الفرق ، ثم دفن باحتفال عظيم لائق بشجاعته
وإقدامه وحميته التي ليس لها مثيل .

(٦١)

البيت الجديد

وقف استيفن على عتبة باب بيته الجديد وكان البنعمون لا
لا يزالون يشتغلون باستصلاح بعض أنحائه فهتف بصديقه فرتز
قلبه فقال له : هل تم بناء الغرفتين الجديدتين على الصورة التي
اتفقنا عليها ؟ قال نعم يا سيدي وتم كذلك تجسيصهما وترجيح
نوافذهما ، فجراه خيراً ، ثم التفت إلى البستاني وقال له : هل
غرست أشجار الفاكهة التي أرسلتها إليك بالأمس ؟ قال نعم
يا سيدي ، وستكون الكرمة المنبسطة فوق الجدار من أبدع الكرّمات
وأجملها ، قال : لا تنس أن نكسو السور كله بباطنه وزاهره
بأزهار البنفسج كما أمرتك . قال : سأفعل يا سيدي إن شاء الله ،

فتركه ودخل المنزل فألقى على الطبقة السفلى نظرة عجل ، ثم صعد إلى الطبقة العليا ووقف في بهو متسع تدور به الحجرات وقال : ها قد أصبح البيت على الصورة التي اتفقنا عليها منذ عامين أنا وماجدولين ، على الطبقة السفلى غرفة المائدة والمطبخ وغرف المؤونة والمرافق ، وفي الطبقة العليا غرفة الأضياف ومخدع النوم وقاعة الكتب وغرفة الشيخ مولر ، ثم فتح باب الغرفة الخامسة وألقى عليها نظرة أملت بجميع ما فيها فاغرورت عيناه بالدموع وقال : لقد كنت أرجو يا أوجين أن تشركني في سعادتي كما شركتني في شقائي ، ولكن هكذا أراد القدر أن يفرق بيني وبينك ، وأن تكون سعادتي منغصة بذكراك أيد الدهر ، فوا أسفاً عليك يا أخي أسفاً لا يفارقني حتى الموت ، وستمز الأيام وتكر الدهور والأعوام ، وسأنسى كل ما مر بي من حوادث الدهر خيرها وشرها وبؤسها ورغدها ، ولا أنسى أنني ضننت عليك بتلك الدرامم القليلة التي سألتنيها أحوج ما كنت إليها ، وأن يدي هي اليد الخفية التي أوردتك هذا المورد من الردى ، فاغفر لي ذنبي واعف عني والقني يوم تلقاني في آخرتك بذلك الوجه البشوش الغض الذي كنت تلقاني به في حياتك ، فأنا من لا يعيش إلا بذكرك ، ولا يموت إلا بغصتك ، وأقفل باب الغرفة وقال : لن يفتح هذا الباب بعد اليوم ، ثم كفكف عبرته ، وسرى عن نفسه ، وأشرف على الحديقة يتلهى بالنظر إليها ، فوقع نظره على حوض الماء المبنى في وسطها فعاد إلى مناجاة نفسه يقول : وها هو الحوض الذي سرتني فيه الأسماك ذات الألوان المختلفة ، وها هو السياج الذي رأينا أن نقيمه من حوله خوفاً على أولادنا المستقبلين من السقوط ، وها هي أزهار البنفسج التي تحبها ماجدولين وتؤثرها على الأزهار جميعها تملأ البيت داخله وخارجه .

إنها لا تعلم الآر شيئاً عن هذه السعادة المهيأة لها ، وربما كانت
تكابد اليوم أشد حالات يأسها وحزنها بعد انقطاع رسائلها عنها
أياماً طويلاً . وسأباغتها بها مباغته لا يزول أثرها من نفسها أبد
الدهر ، فقد شقينا ما استطاع الشقاء أن يكون ، وستسعد بعد
اليوم سعادة تنسينا همومنا الماضية وآلامنا ، ولا نذكرها إلا كما
نذكر دموع طفولتنا وبكاءها .

ثم نزل ومضى في الحديقة مع صديقه فترى يناظر القائمين بتنظيم
أغراسها ، وتمهيد طرقاتها ، ويتنقل بين أشجارها وأزهارها مسروراً
مغتبطاً وكأنه لم يلق طعم الشقاء في دهره يوماً واحداً .

(٦٢)

بروتس

ما كان استيفن قبل اليوم آمراً ولا ناهياً ، ولا صاحب بيت
ولا حديقة بل ولا صاحب أي شيء من الأشياء إلا إذا كانت
أثوابه البالية المرقعة شيئاً تتعلق به الحيازة والملك ، فقد عاد إلى
جوتنج بعد تلك الليلة الليلة التي كابدها في غرفة قرية صغر الـ
من كل شيء حتى من آماله وأمانيه ، ففضى في فراش مرضه
بضمة أيام كابد فيها من آلام جسمه ونفسه ما يعجز عن احتماله ،
ثم أبل قليلاً فأنشأ يفكر فيما يصنع بعد الذي كان من فشله وانقطاع
رجائه به . فخطر له الانتحار ثم منعه منه أنه سيكون آخر عهده
الاجلوتين فلا يراها بعد اليوم ، وفكر في الرجوع إلى أهله والإذعان
لهم في ذلك . ثم ذكر المواقف التي أعطاهما
للاجلولين ألا يبتني .. حتى الموت ، فعظم عليه أن يخسر

بعمهده ومر بخاطره الفرار بنفسه إلى أية بقعة من بقاع الأرض يطلب فيها السلو والراحة والتفرج بما به . ولكنه أشفق على ماجلولين أن يقتلها الحزن عليه من بعده ، وهو إنما يحيا في هذا العالم من أجلها .

ولم يزل يراوح بين هذه الفكر ويستلني بعضها منها ويذود بعضاً حتى صحت عزيمته على أن يكتب كتاباً إلى ماجلولين ، ولم يكن قد كتب إليها منذ عهد بعيد يقص عليها قصته ، وما آل إليه أمره ويخللها من اليمين التي أقسمتها له ، ثم يضع أمره بين يديها ، فأما أحيتها فعاد إلى أمه وسعيه ، أو قتلته فاكفئ موؤنة قتل نفسه بنفسه . فإنه ليكتب ذلك الكتاب إذ دخل عليه زسول البريد يحمل إليه رسالة من مسجل القرية التي مات فيها قريبه يقول له فيها : إن الميت قد أوصى إليه في كتاب وصيته بعشرين ألف فرنك يأخذها في الحال وعشرة آلاف يأخذها في كل عام ، فاستطير فرحاً وسروراً وقال : أحملك اللهم غللت يدي عن أن آخذ هذا المال حراماً ، حتى بعثت به إليّ حلالاً ، ومزق الكتاب الذي كان يكتبه وعلم أن أيام محنته قد انقضت ، وأنه قد أدى للدهر ما عليه له من ضريبة الشقاء ، فلم يبق يبر ، يديه إلا أن يستقبل السعادة المقبلة عليه خالصة هنيئة لا يكدرها عليه مكدر حتى الموت .

وأنشأ يفتش بمعونته صديقه « فرتز » عن بيت صغير يشرف على نهر « جوتنج » ويكون على الضفة التي تمنها هو وماجلولين ليلة ركبا زورق البحيرة وتحادثا عن آمالهما ومستقبلهما ، فوجد بيتاً يشبهه فابتاعه واستصلحه ، وحوله إلى الصورة التي أرادها ، وأخذ يوئث غرفه ، ويفرس أشجار حديقته .

وإنه لذلك إذ قرأ في الجريدة العسكرية خبر وفاة أخيه فبكاه كثيراً ، ثم ما لبث أن تجلد واصطبر ، ودفن حزنه في أعماق قلبه ، وألغاه سروره بمحاضره عن التفكير في ماضيه فابتاع خاتماً للخطبة ثميناً وأعد عدته للسفر الى « ولغباخ » وكان قد علم أن ماجدولين قد عادت إليها من « كوبلانس » منذ عهد قريب ، لياغتها بتلك السعادة التي هبأها لها ، ويخطبها إلى أبيها ، ثم يعود بها إلى « جوتنج » ليربها البيت الجديد .

ثم ركب عجلته في صباح أحد الأيام وسافر وقلبه يخفق فرحاً وسروراً حتى وصل إلى ضاحية القرية ، فترك العجلة مكانها ، وأمر السائق أن ينتظره حتى يعود ونزل يمشي على قدميه ويقلب نظره في تلك المعاهد التي قضى فيها أيام سعادته الأولى وأشرق على قلبه من سماءها أول شعاع من أشعة الحب ، فرأى الغابة التي كان يهيم فيها وحده في الليالي المقمرة مناجياً نفسه بحبه وغرامه ، ومصوراً لما أعذب الآمال وأحلاها ، ومر بالنهر الذي اقتحمه منذ يومين لاستفقاذ ذلك الرجل الذي كان مشرفاً على الغرق حتى كاد يغرق معه لولا معونة الله وعنايته ، ووقف على ضفة البحيرة التي كان يتنزه فيها هو وماجدولين ساعة الأصيل ويقضيان الساعات الطوال بين سماءها ومائها .

ثم أشرف على بيت الشيخ مولر فلاحته له أعالي أشجار الزيزفون التي كان يجلس تحتها هو وماجدولين كما كان يراها في ذلك العهد ، ورأى من خلال أوراقها غرفته العالية التي كان يسكنها ، فعدت إلى ذهنه تلك الايام الماضية التي قضاها في هذه المواطن ، فرأى صبيها ومساءها ، وليلها ونهارها ، ويكورها وأصائلها ، وكل ما مر له فيها من سرور وحزن ، ورجاء ويأس ، وصحة ومرض

ورخاء وشدة ، حتى خيل إليه أنه لا يزال مقيماً في ذلك المنزل حتى اليوم ، وأنه إنما خرج الساعة من غرفته لقضاء بعض حاجاته ، وها هو ذا عائد إليها .

ولم يزل يهيم في أمثال هذه التصورات حتى وصل إلى باب الحديقة فوقف على عتبة وقال : ها هو ذا الباب الذي خرجت منه بالأمس طريداً شريداً لا أملك من أمر نفسي ولا أمر مستقبلي شيئاً ، وها أنذا أدخله اليوم آمناً مطمئناً كما أدخلت بي ، وأزور أهله وقومه كما أزور أهلي وقومي ، لا أخشى عيناً ، ولا رقيباً ، ولا أنهي غائلة من غوائل الدهر ، ولا رزية من رزاياء ، فما أعجب تقلبات الأيام وأغرب ما تأتي به الأقدار !

ثم مشى في الحديقة يقلب نظره في أشجارها وأغراسها ، وجداولها وطرقاتها ، ويقول في نفسه : لقد بقي كل شيء على ما هو عليه ، فها هي ثغرة الحائط الغربي لا تزال باقية كما هي ، وها هي الصخرة العاتية السوداء ملقاة في مكانها تحت الجدار كما تركتها ، وها هي أعشاش الطيور فوق قمة شجرة السنديان ، تختلف إليها عصافيرها غادية رائحة كمهدي بها ، ثم التفت إلى يمينه وقال : وها هو الجذع الذي حفرنا عليه اسمينا أنا وماجدولين ، ثم مشى إليه فرأى الكتابة لا تزال على حالها كما قد حفرت بالأمس ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، وجثا بين يدي الجذع وأهوى بفمه إليه فلمسه كأنما يشكر له تلك اليد التي أسداها إليه في احتفاظه بتلك الذكرى القديمة التي أودعه إياها ، وهبت على وجهه في تلك الساعة نسمة مرت قبل مرورها عليه بأزهر .

ار الحديقة وأعشابها ، فحملت إلى رأسه تلك المجموعة العطرية البديعة التي طالما استروحها في هذا المكان نفسه مع ماجدولين ، ولا يحمل

الذكر : القائمة مثل الأريج النطر ! مهاج وجده وحنينه ، وأخذ يعانق الهواء ونفثه إليه كما يضم حبيباً ملهى بين ذراعيه .

ولم يزل مائلاً حتى وصل إلى رأس الطريق الموصل إلى مكان المقعد الآتي . كان يحس عليه هو وهاجدولين تحت أشجار الزيتون ، ولم يبق بينه وبينه إلا خطوات قليلة ، فاشتد تأثيره وخفق قلبه خفقاً شديداً ، وحادثته نفسه أن ماجدولين جالسة هناك الساعة وهذا تبكي وتتحب ، وتندب أمالها وأحلامها وتفكر في انقطاع كعبه عنها ، فأشفق عليها أن يباغتها بالخير . باغتها فيقتلها ، فأخذ يهيم في نفسه طريقة إلقاءه ، ثم مال برأسه قليلاً فرأى طرف المقعد ، ورأى ذيل ثوب حريري أبيض منسدلاً عليه فاستطاع فرحاً وسروراً وقال : ها هي ذي جالسة كما كنت أتوق أن أراها فثبت اللهم قلبي وقدمي في ذلك الموقف الجليل العظيم .

ثم انعطف فما وقع نظره على المقعد حتى جمد واصفر ، ووقفت دورة الدم في عروقه : وتعلقت بين لحييه فما تصعد ولا تهبط ! فقد رأى ماجدولين جالسة بجانب فتى غريب تبسم له ويسم لها ، وقد أخذ يدها بين يديه وألقى رأسه على صدرها ، وحنان عليها حتى المحب على حبيبته ؛ فظل يقول في نفسه : ما هذا الذي أرى ! إنني لا أفهم من كل ذلك شيئاً .. إنها ماجدولين بعينها ! فمن هو هذا الإنسان الخالس إليها ، أليس هو صديقي إدوار ؟ نعم هو بعينه فما يجيئه هنا في هذه القرية ، وما وجوده في هذا البيت ؟ وما جلوسه بجانبها هذه الجلسة الغريبة ؟ ثم شد يده على قلبه كأنما يحاول أن يحسه عن الفرار ومشى يقتلع قلبيه اقتلاعاً كأنما هو شبح من الأشباح الهائمة في ظلال الليل حتى

دنا منها ، ففرعا إذ رآياه ، ووثبا على أقدامهما وثية واحدة .
ثم ما لبثا أن اختلف شأنهما ، فأخذ لإدوار بطرف شاربه بعث
به ويقلب عينيه في السماء كأنه منجم يفتش عن النجم السابع
والسبعين بعد المائة والخمسة والعشرين مليوناً كما يصنع المنجمون .
وأطرفت ماجدولين إلى الأرض فسكنت في إطرافها سكناً
عميقاً لا تتخلله حركة ، ولا نامة ، فظل استيعن يردد نظره
بينهما باهتاً مشدوهاً لا يقول لهما شيئاً ، ولا يفهم من موقفهما
أمراً ، ثم مشى خطوة إلى ماجدولين ، وقد أخذ الذهول مأخذه
من عقله فنسى المنظر الذي رآه منذ لحظة ، وأنشأ يخاطبها باسم
متطلقاً ويقول لها : لقد انقضت أيام شقائنا يا ماجدولين . ولقد
أصبحت والحمد لله صاحب ثروة لا أقول إنها عظيمة ، ولكنها
كافية لسعادتنا وهاتنا ، فجئت إليك أنتنجز وعدك ، وأخطبك
إلى أليك ، ثم أذهب بك إلى جوتنج لأريك البيت الجديد الذي
ابتعته لك منذ عهد قريب ، وسرّين حين تربته أنه على الهيئة
التي تمنينا أن يكون عليها ليلة ركبنا زورق البحيرة ونحدثنا عن
آمالنا وأمانينا ؛ فارتعدت ماجدولين وامتنع لونها وقالت بصوت
ضعيف خافت كأنها تهمس في نفسها ببعض الأحاديث « إني
أهتلك بصلاح حالك يا سيدي » فعجب استيعن لذلك واستطير
عقله وقال في نفسه : ما هذا الذي أسمع ، إنها تهتني بصلاح
حالي كأنها ترى أن لي حالاً خاصة بي مستقلة عن حالها ، فليت
شعري ما يالها ! وما هذا السكون المخيم عليها ! وما هذا الوجه
الغريب الذي تلقاني به !؟ لقد كنت أخشى أن أقتلها فرحاً وسروراً ،
فإذا هي تقتلني همّاً وكمداً ، ثم نسي هذا المنظر الأخير كما
نسى الأول ، فأخرج من جيبه خاتم الخطبة ومشى إليها خطوة
أخرى ليقدمه إليها ، فما وقع نظره على أصبعها حتى تراجع

خائفاً مذعوراً ؛ فقد رأى فيه خاتماً غير ذلك الخاتم الذي نسجته من شعره ؛ وكانت تحدّثه عنه في رسائلها كثيراً وتقول له إنه لا يفارق أصبحها لحظة واحدة فاشتدّ خفوق قلبه واضطرابه ؛ وظلّ يدور بعينه حائراً ملتماً لا يعلم أخيراً يرى أم حقيقة ؟ وازدحمت الدموع في عينيه تتبادر إلى السقوط ، فمد يده إلى ماجدولين ضارعاً وقال لها : ألا تستطيعين يا سيدتي أن تقولي لي كلمة واحدة فأني أشعر أنني على وشك الجنون ؟ فرفعت رأسها ونظرت إليه كأنها تريد أن تقول له شيئاً ، ثم عادت إلى إطرأها وسكونها ، وهنا تقدم نحوه لإدوار ووضع يده على كتفيه وقال له : حبك هذا يا استيفن فإنك تقتل السيدة قتلاً ، فانتبه استيفن وكأنه لم يكن رآه قبل هذه اللحظة فصعد نظره فيه وصوبه وقال له : لأنني لم أكن أتوقع أن أراك هنا في هذا المكان يا إدوار ! فقال له : سواء أتوقعت أم لم أتوقع ، فقد كان يجب عليك أن تستأذن قبل الدخول ، ولم يكن يحمل بك وأنت في هذه السن المتقدمة أن تنسي أول درس يتلقاه التلميذ في مدرسته في أدب الزيارة والاستئذان .

فانفض استيفن انتفاضة شديدة وعلت جبينه سحابة بيضاء لم تزل تتسع وتستفيض حتى ليست وجهه كله فصار كأنه البرد الناصع ، واسترخت يداها كما يكسر الطائر جناحيه للوقوع ، وشعر بتخاذل أطرافه فراجع إلى شجرة وراءه فاستند إليها ، ثم نظر إلى إدوار نظرة يقطر منها الدم وقال له تلك الكلمة التي قالها يوليوس قبصر حينما طعن من خلفه ؛ فالتفت فرأى أن الذي طعنه هو صديقه وصفيه « حتى أنت يا بروتس » ؟ وصمت لحظة حتى رجعت إليه نفسه ، ثم التفت إلى ماجدولين وقال لها بصوت خافت متهدج تتطاير معه أجزاء نفسه : أصبح

ما يقول هذا الرجل يا ما جدولين ؟ وهل ترين كما يرى أنني أخطأت في دخولي عليك بغير استئذان ؟ وهل تعتدين أن له شأنًا عندك يسمح له بأن يتولى أمر مؤاخذتي بالنيابة عنك ؟ فاعترض إدوار بينهما ومد يده إليها وقال لها : هيا بنا يا سيدتي فقد طال جلوسنا في هذا المكان حتى مللنا ، فأعطته يدها وتبعته صامتة مطرقة حتى دخلنا البيت وتركاه في مكانه ينظر إليهما وهما يتعدان عنه شيئاً فشيئاً حتى اختفيا وسمع خفق الباب وراءهما فظل شاخصاً إلى الباب الذي دخله لا يتحرك ولا يطرف . ولا تنبث له جارحة . ولا ينص له عرق ، ومرت به على ذلك ساعة ، ثم أخذ يحدث نفسه ويقول :

إن إدوار يخاطبني بلهجة الأمر الناهي كأن له شأنًا في هذا البيت فوق شأني ، فلا بد أن يكون له هذا الشأن الذي يزعمه ، ولا بد أن يكون قد استمده من ماجدولين نفسها ، فقد رأيته بعينها وهو يحترقني ويزدريني ، بل يسبني ويشتمني فلم تقل له شيئاً ، لا ! إنها وافقته على أكثر من ذلك ، فقد مدّ يده إليها ودعاها للدخول معه إلى المنزل ، وهي تعلم أنه لا يريد بذلك إلا طردي ، وإذلالني ، فتبعته طائفة مدعنة . ولم تلفت إليّ ساعة انصرافها التفاتة واحدة تعتذر بها عن عملها هذا ، وها قد مضت ساعة بعد ذهابها ولم تعد إليّ لترى ماذا حل بي من بعدها ، فليت شعري ما دهاني عندها ؟ وما هذا الذي بينها وبين إدوار ؟ إنني أخشى أن يكون خطيئها ، وأن يكون هذا الخاتم الذي في يدها خاتم الخطبة الذي أهدها إليها ، وأن تكون تلك الجلسة التي رأيته يجلسها بجانبه جلسة غرام يتشاكيان فيها الحب ويتبائنان ، فأني كان ما ظننته حقاً ، فهي فتاة مجرمة خائنة ، لأنها وعدتني بالانتظار حتى ييسر الله لي سبيل الرزق فلم تف بوعدها بل أقسمت لي

الإيمان التي لا فسحة فيها على الوفاة حتى الموت فلم تير يمينها .

لا .. لا ، إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك ، لأنها تعلم حتى العلم أنها لي ، وأنتي صاحب الشأن فيها من دون الناس جميعاً ، فقد اشتريتها بدم حياتي وبجميع دموعي وآلامي ، وكابدت في سبيلها من نكبات الدهر وأرزائه ما يخرج احتماله عن طوق البشر ، ففجعت حتى أشرفت على الموت ، وعريت حتى حبست نفسي عن الخروج من غرقي إلا في ذمام الليل وحمايته ، ونمت في الليالي القرة الباردة في ممر الهواء الجارري بلا غطاء ولا دثار ، وخرجت تحت جنح الظلام أفتش في صناديق القمامة عن لقمة متروكة أو عظمة مطروحة أسد بها رمقي ، وبعث الخبز الأبيض بالخبز الأسود لأستطيع أن أجد لقمة لغدائي ، وأخرى لعشائي ، وما زلت أرقع قميصي حتى صار القميص الرقاع وذهب القميص بأجمعه بل ركبت في سبيلها ما هو أعظم من ذلك فقد قتلت أخي ومثلت بالرجل الذي أحسن إليّ في حياته وبعد مماته ، وحدثت نفسي بسرقة ماله ، بل مددت يدي إليه ، فأصبحت بذلك من المجرمين .

إنها لا تستطيع أن تتزع يدعا من يدي ، ولا أن تفصل حياتها من حياتي ، فقد خلقت لي كما خلقت لها ، وها هو اسمي محفور بجانب اسمها على جذور أشجار حديقتهما ، وها هي شجرات رأسها منسوجة في الخاتم الذي ألبسه منذ عامين ، وها هي الأرض والسماء ، والبحيرة والفلك ، والشمس والقمر ، والأشجار والأعشاب ، والطيور والأزهار ، تشهد بحبنا وگرامنا ، ومواقف آمالنا وأحلامنا ، وإيماننا التي أقسمناها ألا يفرق بيننا إلا الموت ، فإذا كانت نفسها قد حدثتها بمقاطعتي ، واتخاذ سبيل في الحياة

غير مسيلي فقد قضت عليّ وعلى نفسها في آن واحد ، لأن الحياة
الواحدة لا يمكن أن تنقسم إلى حياتين تعيش كل منهما مستقلة
عن الأخرى .

ثم تأوه آهة طويلة وقال : من لي بمن أيعمه نصف حياتي على
أن يكشف لي الحقيقة التي أجعلها ؟ ولقد كان جديراً بي أن أقف
في طريقهما عندما حاولا الفرار مني وأبى عليهما أن يتصرفا
إلا بعد أن يعترفا لي بحقيقة أمرهما ، ويمزقا عن وجهيهما هذا
الستار الذي أسبلاه عليهما ، فإن أياً قتلتكما غير ظالم ولا آثم ،
فليس من العدل ولا من الرحمة أن يذهبا إلى خلوتهما لينعما فيها
بما يشاءان أن ينعما به ، ويتركاني في هذا المكان وحدي أعالج
ما أعالج من الموم والآلام .

ثم قام يتحامل على نفسه حتى خرج من باب الحديقة ومشى
يرنح في مشيته ترنح الشارب الثمل ، فما أبتعد إلا قليلاً حتى
سمع صوتاً شديداً يخفق وراءه ؛ فالتفت فلذا إدوار خارج من
الحديقة ممطياً صهوة جواد أصهب فاخْتَبَأَ استيفن وراء ريوّة
على الطريق حتى دنا منه فخرج إليه وأمسك بعناده فذعر
إدوار إذ رآه ولكنه تماسك وقال له : ماذا تريد يا استيفن ؟ قال :
أريد أن أسألك عن سبب اختلافك إلى هذا البيت ، وعن الشأن
الذي لك فيه وما أعرف لك فيه شأناً قبل اليوم ، قال : لا أستطيع
أن أجيبك على سؤالك هذا وأنت آخذ بعنان جوادي لا تتركه ،
فدعه وسلي ما تريد ، فترك استيفن العنان إلا أنه وقف في وجه
الجواد ، فقال له ادوار : لو غيرك سألتني هذا السؤال بهذه اللهجة
الجافة الخشنة التي تخاطبني بها لما كان لما جواب عندي سوى أن
أقول له إني حر مطلق أتصرف في شؤون نفسي كيف أشاء ،

فأزور ما أزور من المجازل وأترك ما أترك منها دون أن أعرف
لإنسان في الوجود حقاً في مراقبتي أو مساءلتي عما أفعل ، ولكن
إكراماً للصداقة التي بيني وبينك أستطيع أن أجيبك على
سؤالك هذا جواباً موجزاً فأقول لك : إني أختلف إلى بيت الشيخ
مولر لأنني خطيب ابته . وسأبني بها بعد شهر واحد ولو شئت
لحضرت حفلة عرسنا ؛ بل أنا أدعوك إلى ذلك : فارتعدت شفتا
استيفن وشعر بالموت يتسرب إلى قلبه قليلاً قليلاً ، وقالت له
بصوت خافت ضعيف : أتعني ماجدولين ؟ قال : نعم ، وليس
لمولر ابنة غيرها ، فأطرق استيفن هنيئة ثم رفع رأسه وقال له :
ولكنك تعلم يا إدوار أنني أحبها وأنها كل حظي في هذه الحياة ،
وأن انتزاعها من يدي إنما هو بمثابة انتزاع حياتي من بين جنبي ،
فهل يهون عليك وأنا صديقك ورفيق صباك وشريكك الدائم في
سراء الحياة وضرائها أن تقتلني ؟ قال : أنا أعلم أنك تحب هذه
الفتاة . وأنتك استمعتها في بعض أيام حياتك الماضية بعض الاستمالة ،
حتى كادت تسقط في أحبولة الشفاء التي نصبتها لها ، لولا أن
تداركها أبوها فاستنقذها من يدك ، وطردها من بيته طرداً قبيحاً ،
وحماها ذلك المستقبل المظلم الذي كنت تهيئه لها ، فقاطعه استيفن
وقال له : ولكنك لم تجبني على سؤالي الذي سألتكه ، قال : وما
سؤالك ؟ قال : سألتك هل يهون عليك قتلي وأنت أخي وصديقي ،
ورفيق طفولتي وصباي ؟ قال : إني ما أردت قتلك بل أردت
حياتك ، فقد تركت لك السبيل بعلمي هذا إلى الرجوع إلى نفسك
والتفكير في شأن حاضرك ومستقبلك . فلعلك إن روأت في أمرك
قليلاً علمت أن خيراً من هذه الحياة المضطربة المبعثرة التي تقضيها
بين أحلام خائبة . وأمال كاذبة : الرجوع إلى أهلك والانصواء
إليهم والسكون تحت أجنحتهم والإذعان لهم فيما يريدون لك من

الخير في تزويجك من تلك الفتاة الثرية التي اختاروها لك . ولا يذهب عليك أن زواجك من فتاة موسرة تطلل بوارف نعمتها ضاحي^(١) فقرك . خير لك من القعود مقعد الذل والمترية بنجاب فتاة فقيرة تضم شقاءها إلى شقائك فتعيا بحسبها معاً . فيها أت ترى أنني أردت لك الخير فيما فعلت ، وأسديت إليك نعمة إن جهلتها اليوم فتعرفها غداً ، وستهدأ عما قليل هذه العاصفة الثائرة في رأسك فتعرف لي مكان اليد التي اتخذتها عدوك وتشكرها لي شكراً جزيلاً .

فما أتى إدوار على آخر كلماته حتى طار الغضب في رأس استيفن . وبرزت من مكعبها تلك السورة التي كانت رابضة وراء سكرته فانقض عليه ولبه^(٢) وهزه هزاً شديداً حتى كاد يقتلعه من سرحه وأنشأ يقول له : الآن عرفت مكان الخديعة التي خدعتم بها تلك الفتاة المسكينة أيها القوم الأشرار . ومن أي باب دخلتم إلى قلبها فعبثتم به . وإلى عقلها فطرتم بصوابه . فقد علمتم ما تضرره لي حين جوارحها من الحب والإخلاص . وأنها لا تبغي بسعادتي بدلاً من أغراض الحياة ومآربها . فألقيت في روعها أنها علة ما ألقاه في هذه الحياة من بؤس وشقاء . وألا سبيل لي إلى أن أنال من حياتي حظاً من سعادة العيش وهنائه إلا إذا أباسني من نفسها وانزعجت يدها من يدي وقطعت ما كان موصولاً عن الود بيني وبينها ، فصدقت حديثكم وأرعجها هذا المصير الذي خيلتم لما أنني سأصير إليه بسببها ، فأذعنت لرأيكم . واستفادت لكم ، وفعلت ما اقترحتم عليها ، رحمة بي وإشفاقاً عليّ . كذلك استطعتم أن تستثمروا ضعفها وتستغلوه لأنفسكم . وما بكم من رحمة بي . ولا بها .

(١) ضحى الفنى : برز الشمس فهو ضاح .

(٢) لبه : أخذ بقلبه أي جمع أثابه .

ولكن هكذا أراد الشيخ الجشع المأفون أن يستمتع بنعمة المال الذي يعبد ويدن به ، فباعك ابنته بيع الإماء في سوق الرقيق ، وهكذا أردت أن تتمتع بشهواتك البهيمية التي لا تفهم من شؤون الحياة شأنًا غيرها ، ولا يعينك من زواجك من مثل هذه الفتاة أمر سواها ، فمثلك من يعجز عن إدراك سريرة نفسها ، وما تضمره بين جوانحها من نبل وشرف ، وكل ما تستطيع أن تفهمه منها أنها فتاة وضيئة حسناء تشبه في بهاها ورواقها رونق أولئك الفتيات الجميلات اللواتي طالما خدعتهن عن أنفسهن ، وقضيت لياليك في مقاصيرهن ، ثم ما لبثت أن نقضت يدك منهن ، وتركتهن يندن حياتهن وآملن ، ولو استطعت أن تسلك إلى المتعة بهذه الفتاة تلك السيل التي سلكتها إلى المتعة بأولئك الفتيات لفعلت ، ولما جشمت نفسك مشقة الزواج منها ، ولأغثتك ليلة واحدة تقضيها في مخدعها عن أن تحبس نفسك عليها الدهر كله .

ومن كان هذا همه من حياته فويل لزوجته منه وويل منها وويل لهما من شقاءهما الدائم الطويل .

فقال له إدوار : إن كنت تريد أن تقول إنها أرغمت على زواجها إرغاماً ، أو خدعت فيه خديعة ، فأنت غطىء في ظنك لأنها قد نسيت كل ماضيها خيره وشره . ولم يبق بين يديها إلا حبها لخطيبها وإخلاصها إليه : وتعليل نفسها باليوم الذي تسعد فيه بجانبه .

فاستطير استيقن غضباً وقال : كذبت أيها الرجل الساقط . إنها أشرف مما تظن . وانقض عليه يريد الفتك به ، فأمسك إدوار يديه . وقال له بنعمة المستعطف المسترحم : أتريد أن تقتلني يا أستيقي ؟ فاستخذى استيقن وتضاعل ، وتراءى له طيف

ذلك الود القديم الذي كان بينه وبينه ، ونظر إليه بعينين مغرورتين بالدموع ، وقال له : لا يا إدوار لا أستطيع أن أفتك لأنك صديقي ، ولقد وقفت مرة في حياتي أسفك بضع قطرات من دمي فداء عنك ، فلا أندم على مغروفي قط ، ولا أسترد يدي التي اتخذتها عند الله فيك أبداً .

ثم ألقى برأسه على قريوس السرج وأخذ يد إدوار بين يديه يبللها بدموعه وظل يناشده ويقول : إنني لا أدعوك يا إدوار باسم الصداقة التي رضعنا ثديها منذ طفولتنا معاً كما يتقاسم الأخوان ثدي أمهما ، ولا باسم المدرسة التي أظللتنا سماؤها وأقفلتنا أرضها خمسة أعوام كاملة آنس بك فيها وتأنس بي ، وأعينك على أمرك وتعيني على أمري ، ولا باسم ذلك الشهيد المسكين أوجين الذي كان كريماً عليك وعليّ ، وكان يرعى لك ودك ويحفظ عهدك ، حتى مات ، وهو يعتقد أنه قد تركني من بعده في كلاءة أخ كريم وصديق حميم ، ولا باسم اليمين التي أقسمتها لي ليلة سفرك من « جوتنج » ألا يهدأ لك في حياتك روح ، ولا يثلج لك صدر ، حتى أنال أمنيتي من حياتي ؛ بل أدعوك باسم الرحمة والشفقة ، لأنك محسن كريم ، ولأني بائس مسكين ، وليس للبائس المسكين من سبيل في حياته غير رحمة المحسن الكريم .

فلم يعبأ إدوار بذلك كله وتغفله وهمز جواده فطار به ملء فروجه ، فركض استيقظ وراءه فلم يدركه ، وكان قد أعياه الجهد فسقط في مكانه ، وهو يقول « لا بد أن يكون ما قاله صحيحاً » .

ولم يزل في سقطته تلك حتى مر به بعض السابلة ، وكان قد رآه عند حضوره فعرفه فأذن به سائق عجلته ، فهرع إليه الحوذي

وأخذ يديه حتى أركبه العجلة ، ثم ذهب به إلى منزله .

فما انفرد بنفسه في غرفته حتى أخذ يصيح صباح المجانين
ويضرب رأسه بالجلدان ، وهو يقول « آه لقد فقدتك يا ماجدولين » .

رسائل استيفن

(١٣٤)

من استيفن إلى ماجدولين

أصبح يا ماجدولين أن ما كان بيننا قد انقضى ؟! وأنا أصبحتنا
متناكرين غير متعارفين لا يذكر الواحد منا صاحبه إلا كما يذكر
لماً من أحلام صباه قد غفت آثاره الأيام والأعوام ؟

أصبح أننا إذا التقينا بعد اليوم في طريق واحد مضى كل منا
في سبيله دون أن يلوى على صاحبه ، أو في مجتمع لا يكون بيننا
من الشأن إلا كما يكون بيننا الشأن إلا كما يكون بين سائر رجال
هذا المجتمع ونسائه ، أو في حلوة لا نجد ما نتحدث به أو لا نتحدث
إلا بحديث الأجواء والأمطار ؟!

ما أسرع تقلبات الأيام وما أغرب تصاريفها وشؤونها ؟!

أفما بين يوم وليلة تهدم جميع الآمال الحسام التي بنتها
وأحکمنا بناءها وبذلنا في سبيلها همومنا وآلامنا وأرقنا من أجلها
كل ما نملك من دموع وشؤون . وتصيح أثرأ من الآثار الدارسة
التي يتحدث عنها التاريخ الحاضر كما يتحدث عن التاريخ
الغابر ؟!

هكذا تقوم الساعة ، وهكذا ترجف الراجفة ، وهكذا تنثر
الكواكب في الفضاء ، وتطوى السماء طي السجل الكتاب .

لقد كنت أحب يا ماجدولين ألا يتولى ذلك الأمر ما غير
الموت ، أما وقد نولناه من أنفسنا بأنفسنا ونسجنا خيوطه بأيدينا .
ونحن أحياء فتلك أعجوبة الدهر التي لم ير مثلها راء ولا سمع
بمثل حديثها سامع ؟

ماذا أنكرت مني يا ماجدولين ؟ وماذا دهاني عندك ؟

لقد أحبيتك حباً لم يحبه أحد من قبلي أحد ، وأخلصت لك
إخلاصاً لا يضمّر مثله أخ لأخيه ، ولا والد لولده ، وأجللتك
لجلال العابد لمعبوده فما خنتك في سر ولا جهر ، ولا كدبتك
في قول ولا عمل . وملأت فراغ حياتي كله بك فلا أنظر إلا
إليك ولا أشعر إلا بك ولا أحلم إلا بطيفك ، ولا أطرب لرؤية
الشمس ساعة شروقها إلا لأنني أرى فيها صورتك ولا لسماع
أغاريد الطير في أفنانها إلا لأنني أسمع فيها نغمة حديثك . ولا
لمنظر الأزهار الضاحكة في أكمامها إلا لأنها تمثل لي ألوان جمالك ،
ولا تمنيت لنفسي سعادة في هذه الحياة إلا من أجل سعادتك ،
ولا آثرت البقاء فيها إلا لأعيش بجانبك ، وأستمع برويتك .

إن كنت ترين أنني لا أستحق محبتك ، وأنني أصغر شأنًا من
أن أملأ فراغ قلبك ، فأحبي في حبي إياك وإخلاصي لك ،
واجيزيني خيراً بما بذلت لك في حياتي من دموع وآلام وشجون
وأحزان ، واعلمي أنك إن استطعت أن تجدي بين الرجال من
يرضيك بجماله أو ماله ، أو حسبه أو جاهه ، فإنك لا تستطيعين
أن تجدي فيهم من يحبك محبة ، أو يخلص لك اخلاصي .

لأنهم قد خدعوك يا ماجدولين ، وزينوا لك حب المال
والشهوات وخيلوا إليك أن الحياة طعام وشراب ، وثوب فاخر ،
وقصر باذخ وعقد ثمين ، وقرط جميل ، وأن الزواج شركة
مالية يتعاون فيها الزوجان على جمع المال واكتنازه ، وما علموا
أن الزواج المالي نوع من أنواع البغاء ، وأن المرأة التي تزوج
الرجل لئلا لا تزوجه كما تزعم ، بل تبيعه نفسها يبعاً كما تبيع
البغي جسمها لعاشقها ، بل هي أحط من البغي شأناً ، وأسفل
غرضاً . لأنها لم تبيع نفسها من أجل لقمة تقيم بها أودها ، أو
خرقة تستر بها ضاحي جلدها ، فينتسح لها صدر العذر في ذلك ،
بل من أجل عقد ثمين تطمع في أن تزين به صدرها أو ثوب
فاخر تكاثر به أثراها ، أو قصر جميل تستمتع في جوه بأنواع
لذائدها .

لا تصدقي يا ماجدولين أن في الدنيا سعادة غير سعادة الحب
فإن صدقت قولك لك منك ، فإنك قد حكمت على قلبك بالموت .

لقد كنت عندي آخر من يحفل بأمثال هذه المظاهر الكاذبة
ويأبه لها ، وكان أكبر ما أعظمك في عيني ، وأجلك في نفسي
واستعبدني لك أنك المرأة التي وجدت فيها وحدها من بين النساء
جميعاً قلباً نقياً طاهراً يفيض بالحب النقي الطاهر الذي لا تشوبه
شوائب التوازع والشهوات ، ولا يكدره مكدر من أعراض
الحياة ومطامعها ، فهل كنت مخطئاً في ظني ؟

لا .. لا . انك لا تزالين صاحبة ذلك القلب الذي أعرفه حتى
الساعة وهذا هو الذي أخافه عليك ، وأرثي لك من أجله .

أنت لا تعلمين شيئاً من شؤون إدوار ، وأنا أعلم من شؤونه

كل شيء وأخص ما أعلم منها أنه لا يحمل بين جنبيه قلباً مثل قلبك ، ولا يفهم من معنى الحب وسره المعنى الذي تفهمين ، ولا يستطيع أن يكون شريكاً لك بحال من الأحوال في شعورك ووجدانك ، وكل شأنه معك أنه رآك فاستملحك فاشتبهك ، والملاحة عرض زائل ، والشهوة ظل متقل . فأخشى عليك أن ينالك بعد قليل على يده ذلك الشقاء الذي تفرين منه اليوم ، وألا ينفعك ولا يجدي عليك شيئاً في ذلك الحين مال ولا نسب ، ولا فضة ولا ذهب ، ولئن تم لك ذلك لأكونن أشقى الناس عيشاً وأعظمهم بؤساً ، لأنني أحبك ، وأحب لك السعادة في كل موطن تكونين فيه ، من أجلك لا من أجل نفسي .

ليت شعري ! هل يصل صوتي إلى أعماق قلبك يا ماجدولين كما كان يصل إليه قبل اليوم ؟ وهل تستطيعين أن تتصورتي كما كنت تصورين من قبل أنني أحبك لنفسك أكثر مما أحبك لنفسي ، وأني فيما أفضيت به إليك من تلك النصيحة إنما أردت سعادتك وهناك أكثر مما أردت سعادة نفسي وهنائها !

(٦٤)

من استيفن إلى ماجدولين

لقلما أبني على ما أرى .

الحياة مظلمة في عيني ، والدنيا موحشة مقفرة لا أسمع فيها حساً ولا حركة الليل متواصل لا يقطع ، وكان الناس رقود في مضاجعهم ليلاً ونهارهم ، لا يستيقظون ولا يستيقنون

ويحيل إليّ أنني أعيش في صحراء نائية متقطعة عن العالم وما فيه ، لا يمر بها طير . ولا يجري فيها نهر ، ولا يبطأ تربتها لإنسان ، ولا يخول في أكثافها حيوان ، وأنني أهمم فيها وحدي ليلي ونهاري ، أطلب الخلاص منها فلا أعرف السبيل إليه ، وأحمل نفسي على البقاء فيها فيقتاني الضجر والضييق .

فمعي يحين حين وتأتي ساعتني فأرتاح من همومي وآلامي ؟
لا شيء يعزيني عنك في العالم يا ماجدولين ، لأنك كنت لي كل شيء فيه فلما فقدتك لم أجد عنك عوضاً ولا بدلاً ، وكنت كمن قام في ساعة واحدة بجميع ما تملك يده فلما خسر خسر كل شيء .

كانت لي آمال كبار ، وأمان حسان . وكانت لي نفس ملوثة بعظائم الأمور وجلالها ، وكنت أشعر بقوة في جسمي لا يقوم لها شيء في هذا العالم . فأصبحت رجلاً ضعيفاً خامداً مثلاً يائساً قانطاً لا أشعر ولا أفكر ولا آخذ ولا أدع ، ولا أنجيه إلى مقصد . ولا أتعلق بفرض ، ولا أجلب لنفسني خيراً . ولا أدفع عنها ضرراً . ولا شأن لي بين الناس أكثر من شأن جثة ملقاة لا روح فيها ، أو حجر مطروح في قارعة الطريق .

ألا تخافين يا ماجدولين أن يأخذك الله بذنبي يوم يأخذ الناس بذنوبهم . ويسألك عن هذه النفس الطيبة الطاهرة التي قتلتها وفجعتها في جميع فضائلها ومواهبها . وأن يتبعك صوتي في كل مكان تكوين فيه . في خلواتك ومجتمعاتك ، ومانمك ويقطتك ، وبين دراعي وزوجك ، وبجانب مهود أولادك ، وبصبيح بك : إنك قد قتلت رجلاً لو عاش لكان أفضل مثال للأزواج الصالحين ،

والآباء الرحماء والأصدقاء والأوفياء . ولكن خير الناس للناس
جميعاً ؟!

ألم تعدني يا ماجدولين أن تسهرى على سعادتي وتحرسها
كما تحرس الملائكة سعادة البشر وهاءهم ؟ فهأنذا أشقى الناس
جميعاً ، وأعظمهم بؤساً وبلاء . فأين ما وعدتني به ؟

تعالى إليّ وقفي أمامي ساعة واحدة لأراك وأرى في وجهك
صورة سعادتي الزائلة وآمالي الضائعة ، وأسمعي صوتك العذب
الجميل الذي أسمعته من قبل ، وألقي عليّ نظرة واحدة من
نظراتك العذبة الرائقة بخبي بها نفسي الميتة ، وقولي لي صدقاً
أو كذباً إنك لا تزالين تحييني وتعطين عليّ ثم لا تريدي على ذلك
شيئاً . فقد أصبحت أقنع منك بكل شيء

أقسم لك يا ماجدولين أنني لو رأيتك في طريقي لهرعت إليك
وجثوت تحت قدميك كما يجثو العابد تحت قدمي معبوده وسألتك
البر والإحسان كما يفعل السائل المستجدي . فإن أعرضت عني
زحفت وراءك على ركبتي وتعلقت بأهداب ثوبك حتى تصغي
إليّ وتسمعي شكائي .

ولكن ماذا أقول لك ؟ وماذا عندي من الأحاديث فأحدثك
به ؟ لا شيء عندي سوى أن أذرف دموعي تحت قدميك ، وأمد
يدي إليك سامتاً ثم أضع حياتي بين يديك فلما أحييتني أو قتلتني .

إنني أتألم كثيراً يا ماجدولين : ولا أحسب أن في العالم نفس
تعمل ما تحمله نفسي من الآلام والأوجاع ، فارحميني واعظني
عليّ ، فإن لم أكن كمواً لمحبتك . فامنحني صداقتك . فإن أبيتها

فاسيلي على ستر حمايتك ، فإن ضننت بها فائزني أن أسير وراءك
في كل مكان تسيرين فيه كما يتبعك كليك الدليل ، لأراك وأسمع
صوتك ، وأستنشق الهواء الذي يحيط بك لأنني لا أستطيع أن أعيش
في العالم دون أن تكون لي صلة بك .

كنت قد وضعت قبل اليوم بين يديك سعادتي وهنائي ، أما
الآن فقد حالت الحال ، وتراجعت الآمال ، وأصبحت لا أطمح
في أن أضع بين يديك شيئاً غير حياتي .

فهل تبقيين عليها ؟

(٦٥)

من استيفن إلى ماجدولين

لي الله من باتس مسكين ، فقد ذبلت زهرة حياتي قبل أن تنفتح ،
ودبت إليّ الشيخوخة وأنا لا أزال في ريعان الشباب ، وانقطعاً
ما كان مشتعلًا في قلبي من الهمة وفي رأسي من الذكاء ، وفي
وفي جسمي من القوة ، وانقطع ما كان موصولاً بيني وبين الناس
جميعاً ، فمات أخي ، وطردني أبي ، وعاداني أهلي ، ولم يكن
باقياً لي في العالم سواك ، ثم انقضى ما كان بيني وبينك ، فأني أرب
لي في العيش من بعد ذلك .

أفئدين لم تؤثر الحياة على الموت يا ماجدولين وقد كان الموت
أروح لي مما أكابده ؟ لأنني لست على يقين مما بعده ، وأخشى
إن حل لي أن ينزع مني ذكرى تلك الأيام الجميلة التي تمتعت
فيها بحبك وعطفك وبجلاوة الأمل فيك ، والتي هي كل ما بقي
في يدي بعد الذي كان ، ولولا ذلك لقتلت نفسي ، ثم استحال

روحي إلى طائر جميل يطيف بك ويرفرف على رأسك حيثما
ذهبت ، ويتناول الحب من يدك مرة ، والقبيلات من فمك أخرى ،
فأظفر منك ميتاً بما عجزت عنه حياً .

إنك سلبتي سعادتي يا ماجدولين ، ولكنك لم تعطيني شيئاً
بدلاً منها أعيش به ، بل تركتني وشأني كما يترك المسافر رفيقه
الجريح الظالم في الصحراء المحرقة لا ظل فيها ولا ماء ، وينجو
بنفسه غير مبال بما تصنع به المقادير من بعده ، فما أقساك ، وما
أبعد الرحمة من قلبك !

ردي عليّ آماني وآمالي ، وليالي التي قضيتها فيك ساهراً
متمللاً ؛ وحياتي التي وضعتها بين يديك ، ووكلت أمرها إليك ،
وأعديدي إليّ عظمي وحناني ، ورحمتي وإشفاقي ، وجميع عواطف
قلبي التي ضننت بها على أهلي وقومي جميعاً وأثرتك بها من
دونهم ، وعقيدتي في الحب والهناء ، وإيماني بالله وبقاء الخير
في الأرض .

ماذا تقترحين عليّ يا ماجدولين ، وأية ذخيرة من ذخائر
الأرض أو كنز من كنوز السماء تحبين أن أضعه بين يديك ؟ أتريدن
قصراً من المرمر الأبيض ، أم صهيحياً مملوءاً باللؤلؤ الرطب ،
أم بساطاً مصوغاً من الجواهر ، أم حلة منسوجة من أشعة الشمس ،
أم تاجاً مرصعاً تتضاءل بين يديه تيجان الملوك والأقيال ؟ لقد
أصبح ذلك كله لك ، وليس بينك وبينه إن أردته إلا أن تعيدي
إلى قلبي الأمل التي سلبتيه فأصبح أقوى الناس جميعاً وأقدرهم
على امتلاك ناصية الكون بأجمعه ، أرضه وسماؤه .

آه ما كان أشد سروري وفرحي يوم أعددت لك ذلك البيت

الصغير في «جوتنج» ، وبنت لك فيه تلك الغرفة الزرقاء الجميلة
ووضعت فيها ذلك السرير ، كنت أرجو أن يكون الدوحة الفينانة
التي أنعم بك في ظلالها ، وأنشأت تلك الحديقة البديعة التي لم أَدع
زهرة تحببها أو يحبها أبوك، إلا غرسها فيها ، وكنت كلما دخلت
ذلك المنزل ووقفت في فناءه لحظة خيل إليّ أنه أهل بك ، وأن
صوتك العذب الشجي يرن في أُنحائه ، وأن أولادنا يلعبون بين
أيدينا في حديقته ، ويقطفون أزهارها وورودها ويقدمونها هدية
إلينا ، بل كنت أتخيل عندما كنت أدخل غرفة زيتك أني أراك
جالسة الى مرآتك فيها تمشطين شمرک الأصفر الجميل . وأنني
واقف وراءك أغمس يدي في ذلك الخليج الذهبي الرجراج وأختلس
منه قبلة بعد أخرى .

أما اليوم فقد ذبل كل شيء فيه وضوى . فانقطع الماء عن
حديقته ، وذوت أشجاره وأزهاره وعصفت الريح بنوافذه
وأبوابه ، وكست التراب أرضه وسقفه فأصبح كالعروس الحسنة
التي نزلت بها منيتها ليلة زفافها .

أصبحت لا تكتين إليّ حرفاً واحداً ، ولا تحبين عن كتاب
واحد من كتبي ، وما كان ذلك من شأنه قبل اليوم ، فاكثي إليّ
كلمة واحدة قولي فيها ما تشائين من خير أو شر ، فقد وطنت
نفسي على احتمال كل شيء .

(٦٦)

من استيقظ إلى ماجدولين

لم تكتبي إليّ تلك الكلمة التي ضرعت إليك فيها ، وعهدي

بك أنك مشيت قبل اليوم على قدميك بضع ساعات كابدت فيها ما كابدت من الأهوال العظام حتى وصلت إلى صديق البريد في قرية بعيدة عن قرينك فبعث إليّ برسانك . فهل ذهب ذلك الماضي بأجمعه ولم يبق في نفسك منه أثر واحد ؟

لا أستطيع أن أصدق ذلك . فكل ما حولك يذكرني بي وبأيامي التي قضيتها معك ، فهناك الشمس التي كما ستبليها معاً طالعة ونودعها غاربة ، والقمر الذي كان يشرف علينا من علياء سماءه ، ويرسل إلينا أشعته القضية البيضاء فتضئنا علالتها معاً . والمقعد الذي كنا نجلس عليه بين الظل والماء وبدا في يدي ورأسك على صدري ، وخذلك تحت متناول لثماني . والبحيرة التي كنا نقضي فيها كل يوم ساعة الأصيل سائرين على ضفتها صامتين نتحدث قلوبنا بما تمسك عنه ألسنتنا . ثم نعود وبودنا أن لو استمر بنا المسير أبداً الدهر إلى دار الخلود ، والغرفة التي التقينا فيها ليلة وبللنا تربتها بدموعنا وأقسمنا بين سماءها وأرضها بمين الوفاء حتى الموت .

إني أناديك في اليوم مائة مرة يا ماجدولين صارخاً مستغيثاً باكياً منتحباً ، لا أهلاً ولا أستيرج ، وأنت لاهية عني بذلك الشأن الجديدي الذي استحدثته لنفسك ، لا تسمعين نائي ، ولا تترئين لمصاي ، وما أعلم أنني أذنبت إليك في حياتي ذنباً واحداً تأخذيني به ، بل أعلم أنني أقترفت جميع الذنوب والآثام من أجلك .

إن كنت مررت مرة في حياتك بامرأة جاثية على قبر روحها تندبه وتبكيه أحر بكاء وأشجاء لأنها كانت تحبه حباً جمّاً . ولأنه تركها في ريعان شبابها فقيرة معدمة . وترك لها أطفالاً صغاراً لا حول لهم في الحياة ولا قوة ، فحزنت لحزنها . وبكيت لكائها .

أو رأيت في طريقك فتاة فقيرة هائجة على وجهها تبكي وتتعب
وتسأل الغادين والرائحين أن يمنحوها درهماً واحداً تتناج به دواء
لأخيها الصغير المريض الذي لا سند له غيرها ، ولا عائل لها
سواها ، فأويت لها ، وأسعفتها بطلبتها .

أو مررت بضفة نهر فرأيت امرأة واقفة به تعول وتصيح
وتستصرخ الناس لوحيدها الذي يغرق في النهر أمامها فلا تجد
من يعينها عليه حتى سقط سقطاً لم يطف من بعدها فجن جنونها
واندفعت وراءه بشاها فطواهما البحر معاً في لحظة واحدة ،
فأعظمت نكبتها ، وبكيت مصيرها .

أو سمعت بقصة ذلك الشيخ المسكين الذي دخل عليه الجند
منزله ، وهو جاث يجانب زوجه المحتضرة وابنته المريضة ليأخذوه
إلى السجن لأنه كان قد سرق من أجلهما بالأمس رغيفاً يقيم به أودهما
فسأل الجند أن يمهله ساعة واحدة حتى يرى ما يصنع القضاء
بعيلته ، فأبوا ذلك عليه فعظمت عليه النازلة فذهبت بعقله ، فعدل
به الجند عن طريق السجن إلى طريق المارستان .

أو سمعت بقصة ذلك الرجل الذي ضل في مفازة مقفرة فاشتد
به العطش وهام على وجهه في كل مكان يطلب الماء فلا يجده حتى
أعياه الجهد ، وعجز عن المسير ، ثم لمح على البعد صفحة ماء
تترقق ، فمازال يزحف على ركبتيه إليها ويخضب الحصى بلمه
المتدفق ، حتى إذا دانها ، ولم يبق بينه وبينها إلا خطوة واحدة
سقط من دونها ميتاً .

أو قرأت قصة تلك المرأة التي رآها الناس في إحدى المجالات
جالسة أمام كوخها ، وفي حجرها كتلة لحم حمراء مختلفة وبين

يديها قدر يتصاعد بخارها فلما دنوا منها حالمم أن رأوا في يدها
سكيناً مخضبة بالدم ، ورأوا قدماً صغيرة بارزة من القدر . فعلموا
أن الجوع قد أفقدها عقلها . وأن هذه الكتلة الحمراء التي في حجرها
إنما هي رضيعها قد ذبحته وأنشأت تقطع أوصاله بمدبنتها وتطبخها
لتأكلها .

إن كنت سمعت بخبر هؤلاء المنكوبين . وسمعت أنين المعذنين
في السجون وصراخ المرضى في المستشفيات . وضحك المجانين
في المارستانات فرثيت لهم ، وأويت لمصابهم . فاعلمي أنني أعطى
من هؤلاء جميعاً ، وأنني أولى منهم برحمتك وإعفائك وعطفك
وحنانك .

لم تبق في بقية تحمل أكثر مما احتملت . وربما لا أستطيع
أن أكتب إليك غير هذا الكتاب فقد بلغ بي الضعف منهته ،
وأظلم بصري فما أكاد أبصر شيئاً . فالوداع يا ماجلولين وداع
الحياة إن كان لا يزال في الأجل بقية ، أو وداع الموت إن كانت
الأخرى .

« انتهت الرسائل »

(٦٧)

من ماجلولين إلى استيفن

لا أكتمك يا سيدي أنني بكيت كثيراً عند قراءة رسائل ولكنني
عدت إلى نفسي وقلت إنها زفرة من زفرات اليأس ستطفئها الأيام
كما أطفأت غيرها من زفرات البائسين ، وربما علمت بعد قليل

من الأيام أن الله قد خار لك فيما كان ، وأنه قد أعد لك من حيث لا تحتسب حياة أسعد وأهنأ من هذه الحياة التي تندهبها وتبكيها .

أنت تعلم يا استيفن أنني فتاة فقيرة وأنتك فتى لا مال لك ، أو لا تملك من المال ما يقوم بشأنك زوجاً ووالداً ، فخير لي ولك أن نفرق وأن يسلك كل منا في حياته الطرية التي يعلم أنها تنتهي به إلى سعادة عيشه وهنائه أحببنا ذلك أم كرهنا ، فتناس كل شيء يا صديقي . وسافر إلى كوبلانس واستصلح عليك أباك وأهلك ، وتزوج من الفتاة التي اختاروها لك ، وحسبك مني أن أكون صديقتك الوفية لك ما حييت ، ولا تحمل في نفسك ضغينة لصديقك إدوار فقد علم الله أنه ليس له يد في شيء مما كان وإنما هو رأي رأيت لنفسه ، ولم أستشر فيه إلا عقلي وضميري ، فأنا صاحبتك والمأخوذة به إن كنت لا بد آخذاً به أحداً ، والسلام عليك من صديقتك التي ترجو عفوك وغفرانك .

(٦٨)

من استيفن إلى ماجدولين

قد نسبت كل شيء يا ماجدولين ، فاختراري لنفسك في حياتك ما شئت ، وها هي ذي رسائلك عائدة إليك فليس من الرأي بقاؤها عندي بعد اليوم . وإني أتقبل صداقتك بالصدر الرحب الذي تقبلت به حبك من قبل . أما التهمة فلإني لا أنقم عليك ولا على خطيئك شيئاً ، بل أسأله الله لكما السعادة في حاضركما ومستقبلكما .

إزدحمت الكنيسة بسكان قرية ولفباخ رجالاً ونساء وظلوا جميعاً ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف ينتظرون حضور العروسين ، ثم ما لبثوا أن سمعوا صوت العجلات وهي مقبلة فنهضوا جميعاً على أقدامهم واصطفوا صفوفاً متتالية لاستقبال القادمين . ثم دخل إدوار آخذاً بيد ماجدولين وهي لابسة ثوباً أبيض ناصعاً كأنما قد قدّ من جرم الرهر وعلى رأسها إكليل من الزهر يتلألأ في شعرها الذهبي الجميل ، ودخل ورأىهما الشيخ مولر وسوزان وأبوها وزوجها واشميد ابن عمه ماجدولين وألبرت ابن عم سوزان وكثير من أهله وأهلها فرأى الناس أجمل فتاة رأوها في حياتهم فدعوا لها ولزوجها بالسعادة والمناة . وملأوا أرجاء المعبد هتافاً بهما وثناء عليهما ، ثم مشيا إلى المذبح وركعا بين يدي القسيس على وسادتين من القطيفة المزركشة فركع الناس بركوعها ، وركع استيقن معهم ، وكان قد جاء إلى المعبد قبل حضور الناس واختبأ وراء سارية من سواريه فلم يشعر به أحد ، وظل يقول في ركوعه بصوت ضعيف خافت لا يحسه أحد « اللهم احرسها بعين عنايتك » وأسبل عليها ستر حمايتك ، وامنحها السعادة والمناة في نفسها وفي عيشها ، واكتب لها في صحيفة حياتها ما كنت أسألك أن تكتب لي في صحيفة حياتي » .

ثم بدأ القسيس يتلو صلاته وجاءت الساعة التي ينطق فيها بكلمته الأخيرة التي لا مرد لها ولا رجعة فيها ، فشر استيقن أن قلبه يخفق خفقاناً شديداً ويضرب ضرباً يعلو صوته على أصوات

التواقيس فأمسك بكفيه على أحشائه وأغض عينيه وقبع في أحماق نفسه واستلهم الله الصبر على نكبته ، ثم غشيته غاشية لم يشعر بما كان فيها حتى استفاق بعد ساعة فإذا الكنيسة خالية مقفلة تمتلج الظلمة في أرجائها وتضرب رياح الليل الباردة في نوافذها وكواها ، فزفر زفرة حرى كادت تتساقط لها أضلاعه وجعل يقول في نفسه : لقد قصي الأمر وخرجت ماجلولين من يدي ، وأصبحت كفي صفراً من جميع آمالي وآمالي ، فما العمل ؟ وكيف أعيش ؟ وأين أقضي بقية أيام حياتي ؟ وأية غاية بقيت لي في هذا العالم أحيا من أجلها ؟ ثم خرج هائماً على وجهه لا يعلم أي فج يسلك من فجاج الأرض ، والأرض أضيق في عينيه من كفة الحابل ، فإذا هو أمام بيت الشيخ مولر فرأى المدعويين منصرفين من الحلقة زمراً فاختمى بركن مظلم من أركان السور حتى انقطع خفق الأقدام ، وعلم أن المكان قد خلا بأهله ، فرمى البيت بنظرة شررة ملتهبة لو اتصلت شرارة من شرارها بسقف من سقوفه أو كوة من كواه لآنت عليه في لحظة واحدة ، ثم ما لبث أن رأى النور قد انطفأ في جميع الغرف والقيعان إلا غرفة واحدة ، فعلم أنها غرفة العرس ، فلم يتمالك أن ثار من مكمنه ثورة الأسد المهتاج وأخذ يدور حول السور ذهاباً وجيئة وهو لا يعلم لم يدور ، وأين ينتهي ؟ حتى وقع نظره على ثغرة مفتوحة فيه فوقف أمامها لحظة ، ثم حدثته نفسه باقتحامها فرأى حجراً ضخماً معترضاً في فجوتها ، فما زال به حتى زحزحه عن مكانه . ثم انحدر إلى الحديقة غير خائف ولا وحل ولا مبال بما أقدم عليه . وأخذ سمته إلى سلم الدار حتى بلغه فصعده بخلط الخطي اختلاساً حتى وصل إلى باب الغرفة المضئة فوقت به وأحس أصواتاً من ورائه . فشر برعدة تتمشى في جميع أعضائه ، وخيل إليه أن قلبه ينحدر في هوة عميقة لا

قرار لها وأخذ يقول في نفسه : إنها الآن له وبين يديه لا يحول دونها حائل ، وكأنني به وهو يضمها الآن إلى صدره ويلصق فمه بفمها ، ويوسعها لثماً وتقيلاً فتعطيه من نفسها ما يعطيها من نفسه ، ثم نظر من ثقب الباب فلم ير شيئاً أمامه فوضع أذنه عليه وأصغى إلى حديثهما فرتت في مسمعه أصوات الضحكات والقبلات ، وسمعها تقول له فيما تتناجيه به « أنت حياتي التي لا حياة لي بدونها » فجن جنونه وحدثه نفسه أن يضرب الباب بقدمه ضربة هائلة تطير به ثم يقتحمه عليهما فيقتلهما ويخضب سرير المرس بدمهما ؛ ثم يقتل نفسه على أثرهما ، واستنصر قوته على ذلك فخذلته ، فوقف بين الإقدام والأحجام يغلي دمه في عروقه غليان الماء في مرجله ، ويمزق صدره بأظافره تمزيقاً شديداً ، حتى استلأ قميصه دماً ، وتناثرت أفلاذ جلده بين أصابعه ، وهو لا يشعر بالأم ، بل لا يعلم أنه يصنع من ذلك شيئاً حتى أعياه الجهد ، فزلت به قدمه فاقتلب إلى أسفل السلم ، وهو بين الحياة والموت .

ولم يزل في سقطته تلك حتى استيقظت الخادم « جفيايف » مبكرة قبل أن يستيقظ أحد من أهل البيت وضيغانه فرأته صريعاً في مكانه ، فراعها أمره ، وأدهشها وجوده في هذا المكان ، ثم رأت الدم العالق بثوبه وأظافره فظنته قتيلاً فحاولت أن تصيح فغناها صوتها ، فأكبت عليه لتعلم ما شأنه فأحست رجع أنفاسه ، فهذأت قليلاً ، وعلمت أنه في غشية جديدة فأشفقت عليه ، وكانت تحبه وتكرمه ، ولم تزل تنضح جبينه بالماء وتمسح صدره حتى استفاق فدار بعينه حول نفسه فذكر ما كان ورأى جفيايف بين يديه فاحمر وجهه خجلاً وسألها هل عرف شأنه أحد غيرها ؟ قالت لا . فاعترف لها بمجمل قصته ، وناشدها الله والمودة أن تكتم عليه ما كان ، فوعدهت بذلك فقام يتحامل على نفسه حتى

خرج من المنزل ومشى في طريق قريته .

(٧٠)

الهذيان

قالت جوزفين زوج فرتز للطبيب . وكانت تتولى تمريض
استيفن : لقد أصبحت أخشى على الرجل أن يصيبه شر عظيم ،
وأخاف ما أخاف عليه أن تنزل بعقله نازلة من نوازل الجنون ،
فقد أصبح لا ينطق إلا باسم تلك المرأة ، ولا يفكر إلا فيها ،
ولا يرى في يقظته أو في منامه غيرها ، فيتخيلها تارة مقبلة عليه
فيتسم لها ويتهلل ويفتح ذراعيه لاستقبالها ، وأخرى منصرفة
عنه فيضرع إليها ويهتف باسمها هتافاً عالياً ويحاول النهوض من
فراشه لإدراكها والتشبث بها فهو إما ضاحك أو باك أو هاتف
أو ضارع أو مسترحم . ولئن دامت له حالته هذه بضعة أيام
أخرى ذهب النكبة بعقله أو بجيائه ، وما أحسب أن شيئاً غير
ظفره بتلك المرأة أو اتصاله بها يشفيه من دائه ، فقال الطبيب :
لقد خاطرت اليوم بأخر ما في كنانتي من الأسهم ، فسافرت إلى
قرية ولقباق وقابلت ماجدولين على غير سابق معرفة لي بها ووصفت
لها حالة المريض في جنونه واستهتاره بها ، وقيامه وقومده بأمرها
ليله ونهاره ، رسألته أن تزوره زورة واحدة عسى أن تنفعه
وترفه عنه بعض ما به ، فأبى زوجها عليها ذلك إباء شديداً ،
فلم أزل به أسترحمه وأستعطفه وأنشده الله والمروءة حتى أذعن
بعد لأي ، واشترط أن يصحبها في زيارتها فقبلت ذلك منه على
مضض ، وقد تركهما الآن يتهيآن للحضور على أثري .

ثم مشى إلى المريض وجس نبضه وأمر يده على رأسه وقال :
يا للعجب ! لقد قصدته ليلة أمس مرتين في ساعة واحدة فما أجدي
ذلك عليه شيئاً ، ثم جلس بجانبه ينضح جبينه بالماء ويمرعه بضغ
قطرات من الدواء .

وإنه لذلك إذ قرع الباب قرعاً خفيفاً ففتح فدخلت ماجلولين
وبرأهما إداوار ، فلم يشعر استيقظ بهما عند دخولهما ، ثم فتح
عينيه بعد قليل ونظر إلى جوزفين وقال لها : أين ثيابي التي أمرتك
بإحضارها ؟ أما تعلمين أن اليوم يوم الأحد ، وهو موعد ذهابي
إلى الكنيسة للاحتفال بعقد زواجي ؟ فأطرقت المرأة واجمة ،
وأدارت ماجلولين وجهها حتى لا يرى أحد اصفرارها . فتقدم
نحوها الطبيب وسألها أن تدنو منه وتناديه باسمه لعله يعرفها ،
فدنت من سريره ووقفت أمام وجهه ، فنظر إليها نظرة ذاهلة ،
ثم أدار رأسه وأغمض عينيّه ، فعلمت أنه لم يعرفها فنادثته باسمه
بذلك الصوت الرحيم العذب الذي طلما سمعه من قبل فملك عليه
مداركه ومشاعره ؛ فكأن موجة كهربائية اندفعت في جسمه دفعة
واحدة ، فانتفض من مكانه وفتح عينيه وتناهض متكئاً على إحدى
يديه ، وظل يضرب يديه على جبهته كأنما يستحي في ذهنه ذكرى
قديمة طال عليها العهد ، ويدبر رأسه يمنة ويسرة ويقلب نظره في
وجوه الجالسين حتى وقع على ماجلولين ، فأخذ يحدق في وجهها
تحديقاً شديداً ، ثم ابتسم ومد يده نحوها وقال لها : شكراً لك يا
ماجلولين فقد جشمت نفسك مشقة المجيء إليّ ، وقد كنت على
وشك أن أذهب إليك الساعة لولا أن النوم طرقتني فقلبتني على
أمرى ، فهلمي بنا الآن فقد حان الوقت ، وما أحسب إلا أن
أصدقائنا ينتظروننا الآن في الكنيسة ، وكأنني أراهم ، وقد جلسوا
في دهليزها صفوفاً متتالية ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف يترقبون

حضورنا ، وأرى القسيس يعد لنا وسادتين من القطيفة المزرکشة لتركع عليهما أمام المذبح ، وكأنني أشم رائحة البخور متصاعدة من الموقد ، وأسمع أصوات التواقيس تفرع قرعاً متتابعاً ، ثم صعد نظره فيها وصوبه وقال لها : ما أجملك يا ماجدولين ، وما أجمل هذا الثوب الأبيض الذي ترتدينه ، إنك لا يتقصك الآن غير إكليل الزهر . ثم مد يده إلى أزهار كانت بجانبه فأخذ يصفّر منها إكليلاً جميلاً ويتأنق في تنسيقه وتنظيمه ، ثم نظر إلى الطبيب ، وقد خيل إليه أنه الشيخ مولر فقال : اثنني يا أبتاه أن أضع هذا الإكليل على رأس ابتك ، فنظر الطبيب إلى ماجدولين نظرة استعطاف يسألها فيها أن ترحمه ، وألا تنغص عليه هناءه الذي يتخله ، فوضع استيفن الإكليل على رأسها ، وهي واجمة صفراء كأنما قد انتفضت من كفن وقال لها : أتذكرين يا ماجدولين يوم وضعت على رأسك منذ عامين في ساعة من ساعات أنسا ولحونا إكليلاً مثل هذا الإكليل فضاء لنا بذلك خيراً وقلنا : ليس بكثير على الأيام أن يصبح جداً ما لحونا به ، وحقيقة ما حسبناه خيالاً ؟ فهذا قد صدق اليوم فألنا ، وصحت آمالنا وأحلامنا ، فالحمد لله على ذلك وله الشكر على آلائه ونعمائه .

ثم نظر إلى جوزفين وقال لها : إني أشعر بضيق في صدري لا أعلم له سبباً فافتحي هذه النافذة لأستشق هواء هذا الصباح الجميل ، ففعلت ، فأخذ يقلب وجهه في السماء ويقول : ها هي ذي الطبيعة تهلني إلينا في يوم عرسنا أجمل ذخائرها وأعلاقتها ، وهواءها العليل ، وشمسها الساطعة ، وسماءها الصافية الجميلة ، فشكراً لها على يدها عتدنا ، وشكراً للدهر الذي أنالني أمنيقي وأنظرني بها بعد أن كنت على وشك اليأس منها ؛ ثم التفت فوقه نظره على إدوار فهش له وابتم في وجهه وقال له : شكراً لك

يا صديقي ، ما أحسب إلا أنك الذي أشرت على ماجدولين بزيارتي في منزلي ولولاك لحال بينها وبين ذلك الحياء الذي لا يفارقها في جميع آناء حياتها ، فامدد إليّ يدك وكن أول من يهتني بسعادتي من بين أصدقائي فأنت أكرمهم عليّ جميعاً ، وأثرهم عندي ، أتذكر يا إدوار أيام كنا نعيش في هذه الغرفة الصغيرة التي نحن فيها الآن عيش البؤس والشقاء ، وكنا نساقي من الورد كتوساً تنسينا حلاوتها مرارة الحياة وآلامها ، وكنت لا أجلس إليك مجلساً إلا قصصت عليك فيه شأني مع ماجدولين ، وأبكك وجدي بها ، ورجائي فيها ، وقلت لك كلما رأيتك تنظر إليّ نظرات المفزع والسخرية : إنها قد أقسمت لي يمناً محرّجة ألا يفرق بيني وبينها إلا الموت ، وإنها لن تخيس بعهداها أبداً . وإن هذه السحابة السوداء التي تراها متلبدة في سماء حياتي لا تستطيع أن تثبت طويلاً على أشعة الحب الحارة المتدفقة ، والحب إله قادر لا يعجزه شأن في هذا العالم ، ولا يثبت على قدرتها شيء ؟ فما أنت ترى أنني لم أكن كاذباً في تصوراتي وأحلامي ، وأن أمانتي وآمالي لم تكن كما كنت تظنها خيالات شاعر ، ولا هواجس مجنون .

ثم تناول يد ماجدولين وأموى بضمه إليها ليقبلها فلمع أمام عينيه شعاع خاطف من أشعة الخاتم الماسي الذي يتألق في أصبعها فاضطرب ومر بخاطره مرور البرق منظر ذلك الخاتم بعينه يوم رآه في يدها للمرة الأولى ، وهي واقفة بجانب إدوار في حديقة منزلها فتراخت يده وامتقع لونه وانطفأ ذلك الشعاع الذي كان يلعب في عينيه وارفض جبينه عرقاً وأخذ صوابه يعود إليه شيئاً فشيئاً ، فظل يقول بصوت خافت متهدج : لا ... لا ، لا حتى لي في تقبيل يدها ، لأنها ليست لي ولا شأن لي عندها ، ثم تناول غطاءه فأسبله على رأسه وأخذ يبكي بكاء شديداً ، ويقول للطبيب :

ليخرجوا عني جميعاً فلا شأن لهم عندي ، ولا شأن لي عندهم ،
فاغرورت عينا ماجدولين بالدموع ومدت يدها إليه كالضارعة
وهمت بالركوع بجانب سريره فجذبها لإدوار جذباً شديداً فتبعته
متثاقلة - خطوة والثقة ، وهي تقول بينما وبين نفسها « وارحمته
لك أيها البائس المسكين » .

وما انقضى النهار حتى ترك إدوار قرية « ولقباخ » ، وسافر
بزوجه إلى « كوبلاس » .

(٧١)

اليأس

لبث استيفى في سرير مرضه شهرين كاملين كابده فيهما من
آلام النفس والجسم ما قدر له أن يكابده ، ثم أبل قليلاً فهجى
فراشه وأخذ يهيم على وجهه ليله ونهاره ، ينام حيث يجد مضجعاً
ليناً أو خشناً ، ويأكل حيث يجد لقمة ، ييضاء أو سوداء ، لا
يستقر بمكان ، ولا يأوي إلى ظل ، ولا يتعهد جسمه أو ثوبه بما
يصلح شأنهما ، واستبد به الحزن فذل جسمه ، وغارت عيناه ،
واسترسل شعر رأسه ولحيته ، وأضت نضرة وجهه شحوباً ، وحمرة
خديبه اصفراراً ، وأصبح آية السابلين ، وعبرة الغادين والرائحين .

وكان لا يمر بكوخ صديقه « فرتر » إلا اتفاقاً ، فإذا مر به
خرج الرجل إليه وزوجه وأولاده وتعلقوا به وتناشدوه الله والمودة
أن يدخل معهم كوخهم ، فيدخل فلا يلبث إلا ساعة أو بعض
ساعة حتى يلزمه الملل فيثور ثورة الوحش المحتاج ويفر من بينهم

راكضاً وقد عاد إلى شأنه الأول .

وكثيراً ما كان يمر في تطوافه بمنزله الصغير الذي بناه في «جوتنج» وبني فيه صروح آماله الزاهية وأمانيه الضائعة فيصرف وجهه عنه ولا يطبق النظر إليه ، وربما انكفاً راجعاً حين يلمح أول شرفة من شرفاته حتى لا يمر به ، ولا يقع نظره عليه .

وكان إذا ركب رأس طريق مشى فيه قدماً لا يقف ولا يترث ولا ينظر يمنة ولا يسرة حتى يعترضه نهر أو جدار أو يرى بين يديه مجتمعاً من الناس فيستفيق من ذهوله ويعود أدرجه .

ولقد استمر به المسير يوماً في بعض غلواته حتى وصل في منتصف النهار إلى «كوبلانس» فأخذ ييم في شوارعها وطرقاتها ، والناس ينظرون إليه وإلى منظره الغريب وشعره المشعث اللامر ونظراته الحائرة المتبددة ويعجبون لأمره .

وإنه لذلك إذ مرت على القرب منه عجلة فسمع فيها ضحكاً عالياً خيل إليه أنه يعرف نغمته فالتفت فإذا ماجدولين وإدوار فصعق في مكانه وتراجع إلى جدار كان وراءه فاستند به إليه وهو يقول : «ما أسعدهما وأنا عيشهما» : إنهما بينان سعادتهما على أنقراض لقائي ، ثم ذهل عن نفسه وظل في ذهوله ساعة فلم يستفيق حتى رأى حلقة من الناس محيطة به ورأى قوماً يتصاحكون ويتغامزون ويشيرون إليه إشارات المزاء والسخرية فرماهم بنظرة شرراء رجفت لها قلوبهم وخطا خطوة واسعة إلى الأمام فهالهم منظره وتفرجوا له عن طريقه ، فسار في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى بلغ ضاحية المدينة فرأى نهراً جارياً على رأس مزرعة خضراء فجلس على صفته يؤامر نفسه على الموت ويقول :

لقد كذب الذين قالوا إن الانتحار ضعف وجبن ، وما الضعف
ولا الجبن إلا الرضا بحياة كلها آلام وأسقام فراراً من ساعة شدة
مهما كابد المرء من الفصص والأوجاع فهي ذاهبة ولا رجعة لها
بعد ذلك .

وهل يوجد في باب الجهالات أقبح من جهالة الرجل الذي
يفضل حياة يموت فيها مائة مرة على موة سريعة عجلي تريخه من
هذه الميتات المتقطعة المتداولة ؟

إني لا أدري لم يضق الرجل بثوبه فيزعه ، ويسمج في نظره
منزله فيهجره ويترم بصاحبه فيفارقه ، ويثقل على ظهره حملة
فيلقى به ، فإذا ضاقت به حياته لا يخلصها ، ولا يحدث نفسه بالخلاص
منها ، والحياة إذا بوئت كانت آلم للنفس وأثقل موثونة عليها من
ثوب ضيق ، أو حمل ثقيل .

إننا لا نخاف الانتحار إلا لأننا نحب الحياة ، ولا نحبها على ما
هي حافلة به من الكوارث والمحن إلا لأننا جهلاء أغبياء ، نطمع
في غير مطمع ونرجو ما لا يمكن أن يكون ، فمثلنا في ذلك كمثل
لاعب القمار يزداد طمعاً في الربح كلما ازداد خسارة ، فلا يزال
يخسر ، ولا يزال يطمع ، حتى تصفر يده من كل شيء .

إننا لم نأت إلى هذا العالم باختيارنا ، فلم لا نخرج منه متى شئنا ؟
وإننا لم نكتب على أنفسنا عهداً بين يدي أحد أن نبقى فيه بقاء الدهر ،
فلا يسمى سعيها في الخلاص منه خيانة وغدر ، أو كفراناً بنعمة
الله وإحسانه ؟

إنها هفوة هفاها شيشرون الروماني في ذلك العهد القديم حينما

قال : « إن كان لصاحب الراية في الحرب حق في إلقائها على عاتقه كان للإنسان حق في قتل نفسه » وجاراه المجتمع الإنساني كله على هفوته هذه حتى اليوم دون أن يخطر على بال فرد من أفرادها أن يقول له : إن لصاحب الراية الحق كل الحق في إلقائها عن عاتقه إذا ثقل حملها عليه .

أعجب من ذلك أنهم لا يذكرون الانتحار إلا ذكروا اسم الله بجانبه واقتنوا في تصوير غضبه ونقمته على المتحرين ، والله أعدل وأرحم من أن يبتلي عبداً من عبيده ببلية لا تطيب له معها الحياة ، ثم يأبى عليه إلا أن يربط بجانبها مدى الدهر ، ولا يبتغي لنفسه طريقاً إلى الخلاص منها .

وكذلك صحت عزيمته على الانتحار ، وأخذ يفكر في الصورة التي يفارق فيها الحياة عليها فلم يزل يقلب وجوه الرأي في ذلك حتى اهتدى إلى صورة أعجبه خيالها الشعري ، وهي أن يكتب كتاباً إلى ماجدولين ييثها فيه آلامه وأحزانه ويحدثها عن عزمه على الانتحار وعن المكان الذي سيلقي نفسه فيه من النهر ثم ينزع من أصبعه خاتمه المنسوج من شعرها ويضعه على فمه ويضع يده عليه ويقبله بلهفة شديدة ثم يلقي نفسه في الماء على هذه الحالة ، فإذا أتت ماجدولين وأخرجته من النهر ورأت هذه الصورة المخزنة التي مات عليها أثر في نفسها لإخلاصه ووفائه ، وأسفت على نفسه أسفاً عظيماً ، وألم بنفسها الدم على فعلتها معه ، فلا تزال تذكره طول حياتها وتدب مصرعه ومضيره حتى تلحق به .

وهنا رنت في أذنه تلك الضحكة العالية التي سمعها منذ ساعة وهي راكبة عجلتها مع زوجها ، فطار ذلك الخيال من رأسه

واضمحل في مسراه اضمحلال الأبحرة الذاهبة في آفاق السماء ،
وعادت له أناته ورويته وقال في نفسه إن من كان مثلاً في خيانتها
وغدرها ، وصلابة قلبها وقسوته ، لا يبالي ما أقدم عليه من شتونه ،
فربما ورد عليها كتابي فأغفلته ثم سميت بخبر موتي فتنفست تنفس
الرحمة والدعة واغتبطت بينها وبين نفسها بانقشاع تلك الغيمة
السوداء التي كانت تغطي سماء حياتها ، وأعجبها أنها قد أصبحت
آمنة مدى الدهر من أن يذكرها مذكر بخيانتها ، أو يترأى لها
في مسلك من مسالكها شبح تلك الحيانة التي اقترفتها .

ثم أن أنة مؤلمة وقال : « ويل لي من بائس مسكين ! لقد
استحال عليّ كل شيء حتى الموت » .

(٧٢)

السعادة

قال فرتز لاستيفن وقد ركب معه في زورقه ساعة الأصيل
فسار بهما يشق عباب الماء شقاً : رفه عليك قليلاً يا سيدي فذلك
أمر قد فات واستبد به من قلر له ؛ وليس لي في فائت حيلة ولا
لما قضى الله مرد ، ولو شئت أن أقول لك لقلت : إنه غير جميل
بك في فضلك وأدبك ، ووفور عقلك واكتماله ، وعزة نفسك
وأنتها أن تحبس حياتك كلها على امرأة قد علمت ألا خير لك
فيها ، وأنها قد خانتك وخذلتك ، وبلغت بك في الشقاء المبالغ
التي لم يبلغها أحد وطعت قلبك تلك الطعنة النجلاء التي لا يثل
منها جريحاً إلا بمعوثة من رحمة الله وإحسانه وإنها - وأنت تشقى
الشقاء كله في سبيلها - تقضي ساعات ليلها ونهارها بين ذراعي

زوجها هائلة مغتبطة ، غير حافلة بك ولا أسفة عليك ، ولا ذاكرة لك ذمة ولا عهداً ، فأين شرفك وإياؤك ؟ وأين عزة نفسك وأنفتها ؟ وأين ترفعك الذي أعرفه لك ويعرفه لك الناس جميعاً عن مواطن المهانة والضعفة ؟ الحق أقول إني لا أعرف سهماً أخيب من سهلك ، ولا رايأ أضعف من رأيك ، ولا حياة أضيع من حياتك .

لقد سلبتك هذه المرأة يا سيدي زهرة عمرك ، فحسبك ذلك واستبق لنفسك ما بقي منه ، وتمتع فيه بما أعد الله لك في هذه الحياة من اللذات ومتع لا تنفد ولا تبلى ، واطلب السعادة إن أردتها بين أحضان الطبيعة وأعطافها ، وفي كل ما يحمل بساط الأرض وتظلل قبة السماء ، فالطبيعة أم حنون تضم بين ذراعيها أولادها اليوساء المحزونين فتمسح همومهم عن صدورهم ، ودموعهم عن مآقيهم ، وتملأ قلوبهم غبطة وهناء .

أطلب السعادة في الحقول والغابات والسهول والجبال ، — والأغراس والأشجار والأوراق والأثمار ، والبحيرات والأنهار ، وفي منظر الشمس طالعة وغاربة والسحب مجتمعة ومتفرقة ، والطير غادية ورائحة ، والنجوم ثابتة وسارية ، واطلبها في تمهد حديقتك وتخطيط جداولها ، وغرس أغراسها ، وتشذيب أشجارها ، وتنسيق أزهارها ، وفي وقوفك على ضفاف الأنهار ، وصعودك إلى قمم الجبال ، وانحدارك إلى بطون الأودية والوهاد ، وفي إصغائك في سكون الليل وهدوئه إلى خرير المياه ، وصفير الرياح ، وحفيف الأوراق ، وصرير الجنادب ، وتقيق الضفادع ، واطلبها في مودة الإخوان وصداقة الأصدقاء ، وإسداء المعروف وتفريج كربة المكروب ، والأخذ بيد البائس المنكوب ، ففي كل منظر من هذه المناظر ، أو موقف من هذه المواقف ، جمال شريف طاهر

يستوقف النظر ، ويستلهي الفكر ويستغرق الشعور ، ويجي ميت
النفس والوجدان ، وعلأ فضاء الحياة هناء ورغداً .

إنكم تأبون يا أهل المدن إلا أن تشتروا سعادة الحياة بلمائكم
وأرواحكم والسعادة حاضرة بين أيديكم لا ثمن لها ولا قيمة ،
ولكنكم تجهلون وتعرضون عنها وتظنون ألا وجود لها إلا في
أحضان النساء ، وبين أستارهن وأرائكهن فتبدلون في سبلها
من دموعكم وآلامكم ، ما لا قبل لكم باحتماله ، فلا تلبثون
أن تدبل حياتكم ، وتضوى أجسامكم ، وتنطفئ جذوة نفوسكم
قبل أوانها ، فتموتوا أضيع ميتة وأخسرها ، لا أملاً أفدتم ولا
حياة حفظتم .

لأنما يشقى في هذا العالم أحد ثلاثة : حاسد يتألم لمنظر النعم التي
يسفها الله على عباده ، ونعم الله لا تنفذ ولا تفي ، وطماع لا
يسريح إلى غاية من الغايات حتى تنبعث نفسه وراء غاية غيرها
فلا تفي مطامعه ، ولا تنتهي متاعه ، ومقترف جريمة من جرائم
العرض والشرف لا يفارقه خيالها حيثما حل وأينما سار ، وما
أنت يا سيدي بواحد من هؤلاء ، فمن أي باب من الأبواب
يتسرب الشقاء إلى قلبك ؟ .

أنت شاعر يا مولاي ، وقلب الشاعر مرآة تراءى فيها صور
الكائنات صغيرها وكبيرها ، دقيقة وجليلها ، فإن أعوزتك تلك
السعادة فتنش عنها في أعماق قلبك ، فقلبك الصورة الصغرى
للعالم الأكبر وما فيه .

السماء جميلة ، والشعر هو الذي يستطيع أن يدرك سر جمالها ،
ويحترق بنظراته أديمها الأزرق الصافي فيرى في ذلك العالم العلوي

الثاني ما لا تراه عين ، ولا يمتد إليه نظر .

والبحر عظيم ، والشاعر هو الذي يشعر بعظمته وجلاله ، ويرى في صفحته الرجاجة صور الأمم التي طواها ، والمدن التي محاهها ، والدول التي أبادها ، وهو باق على صورته لا يتغير ، ولا يتبدل ، ولا يبلى على العصور والأيام .

والليل موحش ، والشاعر هو الذي يسمع في سكونه وهلوته أنين الباكين وزفرات المتألمين ، وأصوات الدعاء المتصاعدة إلى آفاق السماء ويرى صور الأحلام الطائفة بمضاجع النائمين ، وخیالات السعادة والشقاء الهائمة في رؤس المجلودين والمحلودين^(١) .

والشاعر يرى الجمال في كل شيء يتناوله سمعه وبصره حتى في الزهرة الذابلة والنبته الحائلة ، والنحلة الطائرة ، والفرشة الحائمة ، وفي مدارج النمل ، وأفاحيص القطا ، والنوى المنهدم ، والجلدث البالي ، والشبح المخيف ، والخيال الرائع ، وفي الضفدعة الملقاة على شاطئ البحر ، واللودة الممتدة في باطن الصخر ، فهو من خياله الواسع في نعمة دائمة لا تنفد ولا تبلى .

أنت كالطائر السجين في قفصه ، فمزق عن نفسك هذا السجن الذي يحيط بك ، وطر يميناً حيك في أجواء هذا العالم المنبسط القسيح ، وتقل ما شئت في جنباته وأكتافه ، واهتف بأغاريذك الجميلة فوق قمم جباله ، وروؤس أشجاره ، وضافد أنهاره ، فأنت لم تخلق للسجن والتقيد ، بل للهتاف والغريد .

فأطرق استيقن ساعة ، ذهبت بها نفسه كل مذهب ، ثم رفع

(١) المجنود : صاحب الجلاء في الخط ، والمحلود : المرحوم .

رأسه وقال : إني أحاول ذلك يا فرتز منذ أيام طوال فلا أستطيعه ، ولو كان لي فيما قضى الله حيلة ! سحقت قلبي بقدمي سحقاً ، ثم أسلمت ذراته إلى الرياح الأربع تذهب بها حيث تشاء ولكن لا سبيل إلى ذلك ، وإنما هو بلاء قد بليت به لحين قد أريد لي ، على أني أعاهدك منذ الساعة عهداً لا أخيس به ألا تراني بعد اليوم ذاكرة لها ، ولا باكية عليها ، أما بما يضره القلب من ثكل ولوعة فأسأل الله أن يعينني عليه ، فقال له فرتز : ذلك كل ما أريده منك ، والله يتولى شأنه ويعينك على بقية أمرك .

(٧٣)

المسلو

الحب قطرة غيث صافية تنزل بالتربة الطيبة فتثمر الرخمة والشفقة والبر والمعروف ، وبالتربة الخبيثة فتثمر الحقد والغضب والشر والانتقام ، وكان استيقن ، طيب القلب ، طاهر السريرة فاستحالت تلك الآلام التي كانت تعتلج في نفسه إلى وجدان طاهر شريف يشعر ببؤس البائسين فيرثي لهم ، وفجعة المتضجرين فيبكي عليهم ، ولقد وفي بعهده الذي عاهد عليه صديقه فرتز فأمسك عن ذكر ماجدولين والتفكير فيها ، وأخذ نفسه بنسيانها ونسيان ماضيها معه فاستقام له بعض الذي أراد وتراجعت آلام نفسه وأحزائها إلى زاوية منفردة من زوايا قلبه فكمنت فيها فلم يعد يشعر إلا في القينة بعد القينة ، ولا يذكرها إلا كما يذكر المستيقظ حلماً ذليلاً من أحلامه المزعجة ساعة أو بعض ساعة ، ثم يمضي لسييله .

وكان أكبر ما أعانته على هدوئه وسكونه أنه أخذ نفسه بعمل الخير والمعروف فوجد فيه لذة تفوق لذة تلك الآمال والأحلام ، فولع به ولماً شديداً ، وأصبح لا يسمع بمكروب قريب منه أو ناء عنه إلا ذهب إليه وأعانه على نكته جهد استطاعته ، ولا يطرق عليه باب في دجى الليل أو ضحوة النهار طارق لحاجة من الحاجات إلا أخذ يده فيها واحتملها في نفسه أو في ماله ، واتخذ أسرة صديقه فترز أسرة له فعالها ، ووساها وخلط نفسه بها ، وأصبح أخاً لكبيرها ، ووالداً لصغيرها ، ووجد في نفسه من الأنس بها والاعتباط بعشرتها ما كان يتمنى لنفسه طول حياته أن يكون له بين زوجته وأولاده ، وعاد إلى فنه القديم ، فن الموسيقى ، وكانت قد شغلته عن تلك الشئون الماضية ، فتعهده بنفسه واستجابه واستجد جميع آلاته وأدواته ، فكان إذا جن الليل وخلا بنفسه قام إلى قيثارته فلعب بأوتارها أو جلس إلى البيانوفوق عليه بعض الألحان القديمة الحديثة توقيعاً يبيد فيه إجمادة لا عهد له بمثلها من قبل ، فقد صقلت تلك الآلام الماضية التي كابدها في حياته صفحة نفسه وأثارتها وملأتها شعوراً ووجداناً وسمت بها إلى سماء فوق سمائها الأولى ، فتجلت بجلالها وروقتها في نبرات صوته حين يتنغم ، وحرركات أنامله حين يوقع ، وما هي إلا أيام قلائل حتى ارتقى به الأمر إلى منزلة الابتكار ، فوضع ألحاناً جديدة عزنة كانت تنفجر من ذلك القلب المصلوح تنفجر المياه الصافية من صلبوع الأحجار ، فتساب في أفئدة البائسين والمحزونين ، وتغفل في أعماق قلوبهم حتى تبلغ سويدها .

وما كان استيفن عالماً من علماء الموسيقى ، ولا حافظاً من كبار حفاظها ، ولا كان نصيبه من الإلمام بقواعدها وأصولها أكثر من نصيب زملائه ولداته ، ولكنه كان ذا قلب ، والقلب هو

الينبوع الثجاج الذي يتفجر منه الشعر والموسيقى وسائر الفنون الأدبية ، وليس أشعر الشعراء أحفظهم لقواعد اللغة وقوانينها ، بل أدقهم شعوراً وألطفهم حساً ، وليس أفضل المبتدئين أعلمهم بفنون النغم ، وضروب الإيقاع ، بل أنطقهم قلباً وأفصحهم فؤاداً ، وما ملك نوايغ الممثلين أفئدة الناس وقلوبهم في مواقف تمثيلهم ، ولا استدرؤا دموع الباكين من محابرها إلا لأن لهم الموباً حزينة متفججة تتأثر بصور الوقائع التي يمثلونها ، فإذا بكوا صدقوا في بكائهم وإذا تفججوا تفججوا بقلوبهم ، ولا يفهم لغة القلب غير القلب ، ولا يشعر بسر النفس غير النفس ، ورب أنه بسيطة ساذجة يسمعها السامع في جوف الليل من ناكل منكوب تأخذ من نفسه ما لا تأخذ قطعة شعرية بليغة مملوءة بفرائب المعاني وبدائع التصورات ، ينظمها شاعر غير باك ويفنيها مغن غير محزون ، وما قواعد الشعر والموسيقى والرسم والتصوير إلا حدود يقي بها المقلدون المحتنون الوقوع في الخطأ الفني ، أما الملهمون فما أغناهم برقة وجدانهم ، ولطف حسهم وصفاء نفوسهم ، وسلامة طباعهم ؛ عن التمثيل والاحتذاء .

(٧٤)

من ماجدولين إلى سوزان

كنت أرجو أن تطول عشترا في « كوبلانس » أكثر مما طالت ، وألا يفرق بيني وبينك إلا الموت ، ولكن هكذا أراد زوجك أن يطوي بك هذه المرحلة البعيدة ، وأن يجرمني أعز عديقة كنت لا أجد لذة العيش إلا بجوارها ، ولا أستطيع طعم

الحياة إلا معها ، ولعلك هانئة في موطنك الجديد كما كنت هانئة في « كوبلانس » .

أنا سعيدة والحمد لله ، لا أشكو شيئاً غير فراقك ، وحرمانني روئيتك ؛ وإدوار لا يزال يحبني وينزل عند رغباتي ويتفقد جميع مرافقي وحاجاتي فله الشكر على ذلك .

لا أكتملك يا سوزان أني كنت أشعر في نفسي ببعض الحزن على ذلك الفتى ، المسكين الذي لقي في سبيل الشقاء العظيم الذي تعلميته ، ولقد سررت اليوم سروراً عظيماً حينما علمت من أخباره أنه قد نسي ذلك الماضي جميعه خيره وشره ، وأنه قد عاد إلى رشده وصوابه ونزع عن تلك التصورات الغريبة والخيالات السوداء التي كانت تخالط عقله ، وتذهب براحته وسكونه ، وأصبح يأنس بالناس ويشعر بلذة المخالطة والاجتماع ويعيش في بيته الذي بناه في « جوتنج » عيشاً هادئاً ساكناً لا يمازجه حزن ولا كدر ؛ بل سمعت عنه ما هو أكثر من ذلك ، وهو أنه يشغل بفن الموسيقى اشتغالاً يستغرق جميع مشاعره وعواطفه ، وأنه قد برع فيه براعة غريبة لا يبلغ مبلغه فيها إلا القليل من الناس ، ويقول الذين حدثوني حديثه إن شأنه في ذلك الفن سيكون شأناً عظيماً ، وربما بلغ فيه بعد قليل من الأعوام مبلغ النابيين من نوابغه وأفذاذه ، فحمدت الله على ذلك حمداً كثيراً ، لأنني كنت أشعر في أعماق نفسي بالحزن عليه والرتاء له ، بل النقمة على الدهر من أجله ، وكان يحيل إلي أنه لو مات في سبيله هذه لتقص عليّ عيشي ، ولقصيت بقية أيام حياتي محزونة النفس ، موحشة القلب حتى يوافيني أجلي .

اكتبني إلي كثيراً يا سوزان ، وحديثني عن كل ما يحيط بك

من الأشياء ، فذلك ما يعزيني عن فراقك بعض الزاء .

(٧٥)

من ماجدولين إلى سوزان

أنعي إليك مع الأسف والذي فقد مات رحمة الله عليه بعد مرض لازمه خمسة أشهر ، وكنت قائمة بتمريضه كل هذه المدة في « ولفياخ » حتى مضى لرحمة ربه ، ولم أعد إلى « كوبلانس » إلا منذ أيام قلائل وهذا ما حال بيني وبين الرد على كتبك التي أرسلتها إليّ فسأعني في تقصيري وابكي معي ذلك الأب اليرحيم الذي أحبني في حياته فوق ما يجب الآباء أبناءهم ومات وهو لا بأسف على فقد شيء في الدنيا سواي ، ولقد كنت أسمع قبل اليوم أن الفتاة التاكل لا تبكي أباه وهي متزوجة ، كما تيكه وهي عذراء ، فأرتاب في ذلك ارتياباً كثيراً ، حتى مات أبي فبكيت بكاء لا تيكه متزوجة ولا عذراء ، فرحمة الله عليه وعلى أيامه النر الحسان ، وعلى نفسه الطيبة الطاهرة .

ولقد عزاني عن فقدته بعض الزاء أن كثيراً من صواحي وأصحاب زوجي كتبوا إليّ كتب تعزية رقيقة حملت عن نفسي بعض همومها وأشجانها ، والذي عجبت له كل العجب وملاً نفسي دهشة وحيرة أي وجدت بين تلك الكتب كتاباً من استيفن أرسله إليّ من « جوتنج » يعزيني فيه أجمل تعزية وأرقها ويتفجع فيه على الميت تفجعاً عظيماً ويخطبني بتلك اللهجة التي لا يحاطب بها المرء إلا أكرم أصدقائه عليه ، وأثرهم عنده ، فعجبت لأمره كثيراً وقلت في نفسي إن كان الرجل لا يزال يضر لي في قلبه

حتى اليوم بقية من ذلك الإجلال القديم بعد الذي كان بيني وبينه ،
فهو أكرم الناس خلقاً وأشرفهم نفساً وأعلامهم همة ، على أن
الذي سرفني في عمله هذا أكثر من كل شيء أنه قد غفر لذلك
الشيخ المسكين تلك الإساءة التي كان يظن أنه أسلفها إليه فمضى
لربه طاهر النفس ، نقي الصحيفة ، لا يحمل تبعة ، ولا يجر
وراءه إثمًا .

ألا تمجيبين معي يا سوزان لهذا الإنسان الغريب الذي كنا
نتهمه بالأمس في عقله ونزل به الى مرتبة المخالطين المفرورين
الذي لا يصلحون لشأن من شؤون الحياة ، كيف استحالت حاله
وهذأت ثورة نفسه ، وأصبح رجلاً كريماً مهذباً عاملاً مستقيماً
طيب السريرة والنفس ، لا يحقد ولا يضطغن ، ولا يأبى أن
يغفر الذنب الذي لا يغفره أحد ، وينسى الإساءة التي لا ينساها
إنسان ؟ أهديك يا سوزان تحيتي ، وبلغني فردريك تحيتي وتحية
إدوار .

(٧٦)

من ماجلجولين إلى سوزان

لم تكني إليّ يا سوزان منذ ثلاثة أشهر إلا كتاباً واحداً لا
يزيد على خمسة أسطر وهو قليل لا يقنعني منك ، فإن لم تكني
إليّ لتعزيتي وتسرية هموم نفسي أكتبني إليّ لأعلم أنك سعيدة
هائلة في موطنك الجديد .

أشعر يا سوزان منذ مات أبي أنني ضيقة الصلر خائرة النفس ،

ولا أهوي ما الذي طرأ على إدوار ، فقد تغير بعض التغير عما كان عليه وأصبح لا ينظر إليّ بالعين التي كان ينظر بها إليّ من قبل ولا أريد أن أقول إنه أبغضني أو تبرم بي أو فتر عن خدمتي والقيام بشأني ؛ بل أريد أن أقول إنني أصبحت أرى في عينيه قصراً عني وازوراراً لا عهد لي بهما من قبل وصارت ابتسامته مزيجاً من المجاملة والحب ، وكانت خالصة للحب قبل ذلك ، رأصبحت تتخلل أحاديثنا فقرات طويلة موحشة ما كانت تتخللها قبل اليوم ، وكنت لا أذهب معه في الحديث ملهياً أستحسن فيه أمراً أو استهجنه إلا ذهب معي فيه ، فأصبح يستهجن أكثر ما أستحسن ، ويستحسن أكثر ما أستهجن ، كأنما يعتمد مفايظي ومبادئ ، وصار يأنس بالزائرين والوافدين ويطلق جلوسه معهم ، وقلماً كان بهم بهم أو يهش للقائهم أو يستخفه شيء غير الجلوس معي والحديث إليّ ، وكنت لا أبتسم إلى رجل من الرجال ابتسامة ود أو مجاملة أو أتسبط معه في حديث إلا وجم لللك وجوماً يظهر في عينيه وفلتات لسانه ، فأصبح لا يأبه لشيء من ذلك ولا يحفل به ، والغيرة دخان الحب ، فإذا انطلقت ناره انقطع دخانه .

لا يحزنك من ذلك شيء يا سوزان ، فربما كنت واهمة أو متخيلة ، وربما كتبت إليك بعد قليل أنني هائلة سعيدة ، وأن هذا الوهم لا أثر له في نفسي .

(٧٧)

من سوزان إلى ماجلولين

لاشك أنك واهمة يا ماجلولين ، فإن إدوار يحبك حباً

شديداً ، ولا يؤثر على رضاك غرضاً من أغراض الحياة ومآربها ،
وأرى لك أن لا تتغلغل بنفسك هذا التغلغل كله في بواطن الأشياء
وأعماقها ، فعفو الحياة خير من مجهودها ، والسعادة كأنزهره
لا تزال ناضرة ماقتع رائيتها منها بمنظرها وأريجها ، فإيا جور
إلى لمسها والعيب بها ذبلت وذوت وذهب جمادى وروادى وأهديك
تحيتي وسلامي .

(٧٨)

من ماجدولين إلى سوزان

لقد وقع لي منذ أيام أمر غريب لا أجد لي بداً من الإقضاء
به إليك :

دعيت أنا وإدوار منذ أيام قلائل إلى حفلة أنس قال صاحبها
حين دعانا إليها إن الذي سيقوم بأدوار الغناء والتوقيع فيها صديق
له من مهرة الموسيقيين وحذاقهم ، فسألناه عن اسمه فأبى إلا
أن يباغتنا به مباغته ، وقال إنه حديث عهد بذلك الفن وإن هذا
أول عهده بالغناء في المجمع العامة ، وظل ينثني عليه ثناء عظيماً ،
ويذهب في تقريره والإشادة به كل مذهب ، فلم يكن لي هم
عندما ذهبت إلى تلك الحفلة إلا رؤية ذلك الموسيقي الماهر واستماع
أغانيه وألحانه ، فظلت شاخصة إلى كرسي البيانو أنتظر ذلك
الذي سيقدم من بين الحاضرين فيجلس عليه حتى رأيت في
نحيلةٍ ساهم الوجه تراءى بين أعطاله غايل العزة والشرف قد
مشى إلى ذلك الكرسي حتى جلس عليه بلباقة وظرف فتألمته
فلذا هو « استيفن » وما كدت أعرفه فقد اختفى من وجهه

ذلك الإنسان الأشعث الأغبر اللشن الأعضاء والملامح ، وحل
عقله إنسان آخر ظريف متأنق هادئ الحركات حلو الشماثل
يكاد يحسبه الناظر إليه للمرة الأولى جميلاً ، وما هو يجميل
ولا مستملح ، ولكنه جمال نفسه قد فاض على جسمه فكساه
روقه وبهائه .

ثم بدأ التوقيع فأنشأت أنامله تلعب بأوتار البيانو فكأنما كانت
تلعب بأفئدتنا وقلوبنا ، وأخذ يفني في أثناء توقيعه غناء مشجياً
عزفاً خيل إلينا ونحن نسمعه أننا قد انتقلنا من هذا العالم إلى علم
آخر من عوالم الأرواح ، وأن ما نسمعه ليس صوتاً صاعداً
من عالم الأرض بل هابطاً من آفاق السماء حتى أتى على النعمة
الأخيرة فلم يملك السامعون أنفسهم أن هرعوا إليه جميعاً وداروا
به يهتونه ويقرظونه ويرددون في أحاديثهم أنهم ما سمعوا في
حياتهم توقيعاً أفضل من توقيعه ولا أحياناً أبدع من ألبانه وهو
يشكر لهم ثنائهم عليه واحترامهم به ويبتسم لهم فيما بين فلك
إبتسامة هادئة غريبة ، لا يعلم الناظر إليها أمتكلفة هي أي هي
إبتسامته التي لا تنفجر عن غير ما شفتاه ؟ وكيفما كان الأمر فقد
خيل إليّ أنني رأيت فيها معنى دقيقاً لا أحسب أن أحداً من الناس
أدركه سواي ، وهو أنها مصبوغة بصبغة رقيقة من الحزن العميق .

ولقد كادت تحدثني نفسي لكثرة ما نالني من الطرب وخالط
قلبي من الجذل والسرور أن أذهب إليه أهته كما يفعل سائر
الناس ، فلم أستطع حتى أرى رأي إدوار ، فلم ألبث أن رأيته
يمشي إليه فتبعته حتى هتاء فهتاته مثله وكنت أتوقع أن أرى على
وجهه عند رؤيتنا حالة من حالات الغضب أو الارتباك ، فلم
أر إلا رجفة خفيفة مرت بشفتيه عندما نظر إلينا ثم عاد إلى إبتسامته

وتطلقه وانثأ يحدثنا بسكون وهلهو كأنما هو يتم حديثاً كان
 بيننا وبينه من قبل ، فعلمت أن الرجل قد حيا من سجل حياته
 تلك الأعوام التي شقى فيها ، وبها معها ذكرى علاقتنا ببؤسه
 وشقائه ، وأصبح لا يرى بين يديه إلا امرأة قد منحتة في عهد
 من عهود حياتها الماضية ودها وإخلاصها وإلا رجلاً قد صادقته
 وآخاه وقاسمه ببؤسه وشقائه في أيام طفولته وصباه ، ثم لا يزيد
 على ذلك شيئاً ، فلم يتقض الليل حتى ذهب ما كان بينه وبيننا
 من الوحشة والجفاء ، وذهبتا معه في الحديث مذاهب مختلفة .
 ووعده إدوار أن يزوره في منزله في عهد قريب ، ثم افرقتا .

(٧٩)

من ماجلولين إلى سوزان

لا أزال يا سوزان ضيقة الصدر ، كثيرة الهم ، ولا يزال
 إدوار قريباً مني بعنايته واهتمامه ، بعيداً مني بقلبه وعواطفه ،
 فقد ملأ فراغ قلبه بشؤون مختلفة لا أعرفها ولا آبه لشيء منها ،
 ولم يترك فيه للحب إلا زاوية صغيرة محدودة لا تتسع ولا تنقبض ،
 ولا تجد العواطف لنفسها فيها مجالاً ، فهو يحبني حباً هادئاً فاتراً
 ربما لا يزيد عن محبته لحيوله وعجلانه ، وقصوره وبساتينه ،
 وأحسب لو أنه أراد أن يزيد على ذلك شيئاً لما استطاع ، لأن
 نفسه ليست تلك النفس الشعرية المتلألئة التي تذهب في الحب
 كل مله ، وتطير في سمائه كل مطار ، ولأنه لا يفهم من
 الحب أكثر من ذلك المعنى المادي البسيط الذي يفهمه الحيوان
 الأعجم ، بل لا يدرك من شؤون الحياة جميعها غير ما يقع تحت
 حواسه ومشاعره .

والآن أستطيع أن أعترف لك يا صديقي بأنني ما شعرت في يوم من أيام حياتي معه على حبي وإعجابي به بأن نفسي خالطت نفسه ، أو لامستها أو امتزجت بها ذلك الامتزاج الذي يحيل النفسين المختلفين إلى نفس واحدة ، بل كنت أرى دائماً أنه وإن كان يحبني ويستهم بي ويذل لي من ذات نفسه وذات يده كل ما يستطيع أن يبذله زوج لزوجته فهو عاجز عن أن يشعل في قلبي نار ذلك الحب الشرعي الجميل الذي لا تقنع المرأة من الرجل بدونه ولا تأنس منه بشيء سواه ، ونار الحب إن لم يتعمدها متعمدها بالتأريث والتأجيح فترت وانفثت واستحالت جلوتها إلى رماد ، والحب كالمطائر لا حياة له إلا في الغدو والرواح ، والتفريد والتفكير ، فإذا طال سجنه في قفص القلب تضعف وتهالك ، وأحس رأسه يائساً ، ثم قضى .

وأعظم ما أشكو من الموم في حياتي معه أنني أصبحت أشعر منذ أيام طوال أنني أعيش في عزلة منقطعة عن العالم كله لا أنيس لي فيها ولا سمير ، فإذا مر بخاطري فكر من الأفكار أو اختلج في نفسي غرض من الأغراض ، أو خفق قلبي خفقة سرور أو حزن أو ارتياح أو انقباض ، لا أستطيع أن أفضي إليه بشيء من ذلك غافة ألا يفهمه أو يفهم منه غير ما أريد فيزدريه ويزدريني من أجله ، ويوسعي هزماً وسخرية فلا أجد لي بداً من أن أتكمسه في نفسي ، وأطويه بين أضالعي .

ألا ترين بعد هذا يا سوزان أنني في أشد الحاجة إليك ، وإلى بقائك بجانبني ، لتأخذني بيدي في ظلمات حياتي وتحملي عني بعض همومي وأشجائي : فهل بقدر لي الله أن أراك بين يدي في عهد قريب ؟

الوحدة النفسية

لقد صدقت ماجدولين فيما قالت ، فقد ملها إدوار بعد
 عامين اثنين من زواجه منها ويرم بها وانتهى أمره معها بما ينتهي
 به كل زوج تعقده يد الشهوة ، ولقد مل منها أكثر من كل
 شيء تلك الوحشة التي كانت سائدة على نفسها ، وذلك السكون
 المقيم على عواطفها ومشاعرها وذهابها في تهوّر وآرائها
 مذهب الخيال الشعري الذي لا يألفه ، ولا يأنس به ، ولا يلتئم
 مع طبيعة نفسه ومزاجها فلقد كانت نفسه نفساً مادية ضاحكة
 ونفساً نفساً روحية مكتسبة ، وقد تكلف كل منهما الخروج
 عن طبعه بركة من الزمان لغرض طارئ من أغراض الحياة ،
 فخرجها عن طبعها ذلك الألاء الساطع الذي يهر عينها عند
 انتقالها من القرية إلى المدينة وتلك الضوضاء العظيمة التي أحاطت
 بأذنيها وحالت بينها وبين سماع صوت قلبها ، وأخرجها من
 طبعه أنه أحبها واقتن بها ، وكان لا بد له من أن يقع من نفسها ،
 وينزل عند رغبتها ، فتجمل لما في أحاديثه ومنازعه ، وتصورات
 وآرائه ، بما يتجمل به كل رجل لكل امرأة عند خطبتها حتى
 اتصالاً بصلة الزواج فأخذتا يتراجعا شيئاً فشيئاً إلى طبيعتهما وسجيتهما ،
 ويدهبان في الحياة مذهبهما الذي فطرا عليه ، فتنافرا وتناكرا ،
 واستوحش كل منهما من صاحبه ، ولقد يكون إدوار خير
 الأزواج لو أنه تزوج امرأة مثل سوزان مادية النفس .

وقد تكون ماجدولين أسعد الزوجات لو أنها تزوجت رجلاً
 مثل استيفن شعري الطبيعة ، وما خلعت سوزان ماجدولين في

تزين هذا الزواج لها وإغرائها به ، ولا أرادت بها في ذلك سوياً ،
لأنها لم تر لها إلا ما ترى مثله لنفسها ، ولا سلكت بها إلا الطريق
التي سلكت مثلها في حياتها .

والهفوة التي يهنوها الرجال والنساء جميعاً في مسألة الزواج
أنهم يتساءلون عن كل شيء من جمال أو مال ، أو خلق أو
ذكاء أو علم أو عقل أو عفة أو أدب ويفكرون النظر في ملاك
هذه الأشياء جميعها وزمامها ، وهو الوحدة النفسية بين الزوجين ،
فالنفس نفسان : مادية تقف عند مظاهر الحياة ومرائها ، وروحية
تتغلغل في أعماقها وأطوارها ، وأصحاب النفس الأولى هم أولئك
الجامدون المتبلدون الذين يدورون في الحياة حول محور أنفسهم ،
ولا يفكرون بشيء فيها إلا بما يتصل بمطامعهم أو بشهواتهم والذين
إذا شغفوا بشيء شغفوا باعتبار علاقته بأجسامهم لا بنفوسهم ،
وإذا أعجبوا بمنظر من المناظر أعجبوا به من حيث قيمته ومنفعته
لا من حيث بهائه ورويقه ، وإذا وقفوا أمام قصر باذخ جميل
شغلهم النظر في غلته وثمرته عن الشعور بجماله وعظمته ، وإذا
أشرفوا على الطبيعة ضاقت صدورهم بمنظر غياضها ورياضها
وأجسامها وأحراشها واستوحشوا منها وحشة السائر في فلاة جرداء
أو الهائم في مغارة جوفاء ، وإذا صادفوا الناس صادفهم على
المنفعة أو الشهوة ، أو عادوهم فيها ، يضحكون والعالم
بأك ، ويعرسون والدنيا في ماتم ، ولا يبالون أهلك الناس
أم بقوا ، ما داموا باقين ، وسعدوا أم شقوا ماداموا سعداء
منتبطين ، وأصحاب النفس الثانية : هم أصحاب الملكات الشريفة
الذين صفت قلوبهم ، فأصبحت كالمرآة المجلوة فيردى فيها
العالم بما فيه من خير وشر ، ففرحوا بخيره وحزنوا لشره ورقت
أفئدتهم ، فشمروا بالأم المتألمين فتألموا معهم ، وبكاء الباكين

فبكوا عليهم ، وخفت أرواحهم فطاروا بأجنحتهم في آفاق السماء وحلقوا في أجوائها فأشرفوا على الطبيعة ، ورأوها في جميع مظاهرها ومراقيها ، فوجدوا في رؤيتها من اللذة والنبطة ما زاحم في قلوبهم حب المال والشهوات ، فاعتدلوا في مطاعمهم ، وترفقوا في مساعيهم ، وازدروا كل لذة في الحياة غير لذة الحب ، وكل جمال غير جمال الخيال .

ولا تلتئم النفس المادية بالنفس الروحية بحال من الأحوال ، ولا تأنس بها ، ولا تجد لذة العيش معها ، وليس الذي يفرق بين الصاحين أو الزوجين أو العشيرين تفاوت ما بينهما في الذكاء أو العلم أو الخلق أو الجمال أو المال ، فكثيراً ما تصادق المختلفون في هذه الصفات ، وتجادونوا وصفت كأس المودة بينهم ، وإنما الذي يفرق بينهما اختلاف شأن نفسيهما ، وذهاب كل منهما في منازعه ومشاربه ورغباته وآماله وتصوراته وآرائه غير مذهب صاحبه ، وأن يكون أحدهما مادياً ضاحكاً للحياة سعيداً بضحكه ، والآخر روحياً باكياً عليها سعيداً ببيكائه ، وهذا هو الذي كان بين لإدوار ومجدولين .

ولم يكن الجمال وحده هو كل مزايا ماجدولين ، بل كان أقلها شأنًا وأدناها قيمة ، ولكن لإدوار لم يستطع أن يفهم شيئاً غيره أو يعنى بأمر سواه ، فما هو إلا أن حصل في يده واستفد منتمته به حتى بدأ الملل يدب في نفسه ديباً خفياً ، فلم تشعر به ماجدولين في مبدل الأمر ، ثم أخذت تحسه شيئاً فشيئاً ، فذعرت وارتاعت ، وملأ الريب ما بين جوانحها ، وما هي إلا أيام قلائل حتى أخذت تنقشع عن عينيها تلك الغيابة عن صورة الرجل الذي تماشره وتزعم أنها تحبه ، فرأت صورة لا تعجبها ،

ولا تروقها ، ولا تخالط نفسها ، ولا تمازجها ، وعادت إلى ماضيها معه ، فأخذت تقرأ صفحاته صفحة صفحة حتى أتت على آخرها ، فتبين لها أنها لم تكن تحبه ، أو أنها كانت تحب فيه شيئاً غير نفسه ، وأن الصلة التي بينها وبينه إنما هي صلة الزوجة بالزوج ، لا صلة القلب بالقلب ، ففكرت أنها لم تحسن الاختيار لنفسها ، وأن شقاء طويلاً ينتظرها فيما بقي لها من أيام حياتها .

(٨١)

من سوزان إلى ماجدولين

أراك تحدثيني في كتبك كثيراً عن استيفن ، كأنك قد نسيت أنه أصبح رجلاً غريباً غنك لا شأن لك به ، وأن ما كان بينكما قد انقضى وذهب لسيّله ، وأغرب من ذلك أنك تكتفين عنه بلهجة أفضل من اللهجة التي تكتفين بها عن زوجك ، وأخاف أن يكون لالتقائه بك في تلك الحفلة التي قصصت عليّ قصتها صلة بهذا الأكم الجليل الذي أصبحت تشعرين به اليوم ، فما عهدتك قبل الآن باكية ، ولا شاكية ، ولا ناقمة من زوجك شأناً من شؤونه ، ولا متبرمة بشهرته ، ولا ضيقة الصدر بأطواره وأخلاقه ، ولا طائر في سماء الخيال ليلك ونهارك تفتشين عن الحب الشعري وتلمسينه تلمس من لا يرى لنفسه غناء عنه ، ولا يعرف معنى للحياة بدونك . فخذني حذرک من نفسك يا ماجدولين ، واعلمي أن ما كان يعتد بالأمس هفوة من الهفوات لصغيرة يصبح اليوم جنوناً مطبقاً لا يمائله جنون ، ولا يوحشك منك ما أقوال لام : فأنا لا أنهلك ، ولا أرتاب فيك . وأنت

أعلم بذلك ، ولكني أخشى عليك أن يتلاقى في مكان واحد من قلبك ذكرى ماضيك ، وهناء حاضرك ، فيصطربا ، فينقص عليك أولهما ثانيهما ، فلا الماضي تتركين ، ولا بالحاضر تسعين .

هكذا ما أريد أن أقوله لك ، وهذا ما أطلب إليك أن تتعهديه من نفسك وتتولى حراسته من قلبك أن يأتي يوم لا ينفعك فيه تعهد ، ولا انتقاد .

(٨٢)

من ماجلولين إلى سوزان

لا علاقة لاستيفن بهذا المم الذي أشعر به ، وليس بيني وبينه أكثر مما يكون بين صديقين احتمل أحدهما في سبيل الآخر في عهد من عهوده الماضية أقصى ما يستطيع احتماله من المشقة والمؤونة ، فعرف له الآخر يده ، وشكرها له وجازاه ودأ بود ، ومعروفاً بمعروف .

أما هذا الذي تريد أن تذهبي إليه في كتابك فأقسم لك أني لا أعرف له أثراً في نفسي ، ولا أحسب أن له أثراً في نفسه ، فقد رأيته في تلك الليلة التي قصصت عليك قصتها ، ثم رأيته بعد ذلك مرتين ، فلم أر في نظرات عينيه ، ولا ملامح وجهه ، ولا نغمة في حديثه أثراً من ذلك الحب القديم الذي تعرفينه ، وكل ما يستطيع الناظر إليه أن يلمحه في وجهه تلك المسحة الرقيقة من الحزن التي تراءى في عينيه حين ينظر ، وفي ابتسامته حين يتسم وما هو بجزين ولا مكثب ، ولكنها صورة الألم القديم

قد رسمها الماضي على وجهه ثم ذهب فبقيت هي من بعده دليلاً
عليه كما تبقى صورة الجرح بعد التئامه ، فاطمني يا سوزان
ولكن رأيك في اليوم رأيك بالأسى ، ولا يقيم هذا البعد الذي
بينني وبينك حجاباً بين نفسي ونفسيك .

(٨٣)

قلب استيفن

فيه ذكر استيفن ، وعظم شأنه ، وأصبح نابغة من نوايح
الموسيقى ، وانتشر له صيت بعيد في جوتنيج وما يليها من البلدان ،
ثم امتد صيته إلى كوبلانس ، فزاره في قريته كثير من المغنين والممثلين .
واقترحوا عليه تلحين القطع التمثيلية ، وأجزلوا له الأجر عليها ،
فلحنها أفضل تلحين وأبرعه ودرت عليه أخطاف الرزق ، وسال
وأديه بالذهب سيلاً ، وكان أبوه قد مات وورثته تلك الصباغة
من المال التي كانت في يده ، فكان إذا ذهب إلى كوبلانس
ليقضي فيها ليلة أو ليلتين لبعض شؤونه الخاصة نزل في بيته
وزاره فيه أصدقائه وخلاته ، والمعجبون بفضله ، والمعترفون
بصنائه وأياديه .

ولقد وجد في تلك اللحظة التي انتهجها لنفسه في حياته بعض
العزاء عما لقي في ماضيه ، إلا أنه كثيراً ما كان يحلو بنفسه في
هدوء الليل وسكونه فتمر أمام نظره على الرغم منه جميع آلامه
وهموه الماضية فيذكر الليلة التي خرج فيها من كوبلانس شريد
طريداً لا يجد مواسياً ولا معيناً ، والليلة التي ذهب فيها إلى عرس
سوزان لرؤية ماجدولين فضربه أحد الزائرين على وجهه سوطاً

فأدماه ، واليلة التي كابد فيها الأهوال العظام في غرفة قريبة ليلة وفاته حتى أشرف على الجنون ، واليلة التي قضاه طريحاً تحت سلم دار ماجدولين حتى الصباح وهي خالصة بزوجها في غرفة عرسها تعانقه وتقبله وتقول له : «أنت حيائي التي لا حياة لي بدونها ، ويرأى له مرة شيخ أخيه «أوجين» وهو ساقط في حومة الوغى تحت ستابك الخيل تلوسه وتخوض في أحشائه ، وآخرى منظر ماجدولين وهي جالسة مع إدوار على مقعد حديقتهما تناجيه بالحب ويناجيها ، إلى ما بقى من أيام بوته ، وليالي شقائه ، ثم تمثل أمام عينيه روضة آماله وهي مورقة خضراء يتسلسل ماؤها ويتفرق هواؤها ، ثم يراها وقد عصفت بها ريح الحوادث فصوح نبتها ، وذبل زهرها ، واستحالت إلى قفرة جرداء لا يترنح فيها غصن ، ولا يهتف بها طير ، فيخيل إليه أنه يعيش وحده متقطعاً عن العالم كله ما فيه ، لأن ماجدولين ليست بجانبه ، وأن ما يتمتع به من مجد ومال لا قيمة له عنده لأنها لا تقاسمه إياه ، وأن هذه الألحان التي يضمها والأصوات التي يغنيها إنما هي مآثم يقيمه بنفسه على نفسه وعلى آماله الناهية ، وأمانيه الضائعة ، فتمتلىء نفسه غمماً وحسرة فلا يجد له سبيلاً سوى أن يتناول قيثارته فيضمها إلى صدره ويثبها هموم قلبه وآلام فؤاده ويبيكي ما شاء الله أن يفعل حتى يجد بعض الراحة في نفسه فيأوي إلى فراشه وينام نوماً طويلاً ثم يستيقظ بارئاً مستيقظاً .

ولم يزل هذا شأنه حتى التقى بماجدولين في تلك الليلة التي قصت هي قصتها على سوزان فاغتبط بمرآها اغتباطاً ممزوجاً ببعض الألم لذكرها وذكرى ماضيه معها ، إلا أنه تجلد واستمسك وكاتم نفسه غصتها فلم تشعر بشيء مما دار في نفسه حتى انصرفت .

وما هي إلا أيام قلائل حتى زاره إدوار في بيته كما وعده واعتذر إليه عن فعلته التي فعلها معه فقبل عثره قبول من لا يرى من قبوله بدأ يل زعم له حين جرى بينهما ذكر ذلك الماضي وشؤونهم أن حبه لماجدولين لم يكن إلا خدعة النفس ونزعة طائشة من نزعات الشباب ، وأنه قد بدأ يعمل بماجدولين ويأجمها فلم يعد يحفل بأمرها ، ولا يفكر في ماضيها ولا حاضرها ، وأصبح ولا هم له إلا أن يجد صداقته مع رجل قد أصبح من أصحاب الشأن العظيم والمظهر الفخم ، والثروة الطائلة ، فصدقه في زعمه وسكن إليه وذهب في مجاملته والتودد له كل مذهب ، ثم رد له استيفان الزيارة في بيته في اليوم الثاني ورأى ماجدولين وحادثها وتبسط معها تبسط من لا يحفل بحاضرها ، ولا يعني بماضيها ، ثم لم يزل يراها بعد ذلك في منازل بعض أصدقائه ، أو في المحفلات العامة ، وحدها ، أو مع إدوار فيحسن ملتقاها ، ويؤثرها بعطفه ورعايته ، إلا أنه كان يتجنب جهده أن يجلس معها مجلساً منفرداً أو يتحدث إليها حديثاً خاصاً لأنه كان قد أخذ نفسه بنسيانها ونسيان ماضيها ، فلا يجب أن يستثير ذلك ، ولأنه كان لا يزال يمسك في نفسه بعض العتب عليها في غلوتها به فلا يجب أن ترى ذلك في نعمة حديثه ، أو لحظات عينيه ، أنفة وكبرياء وذهاباً بنفسه مذهب من لا يبالي بمن لم تبال به ، ولم ترع له ذمماً ولا عهداً .

وجملة حاله معها أنه كان يجمع لها في قلبه في آن واحد بين عاطفتين مختلفتين عاطفة الرضا ، وعاطفة السخط ، فهو يحبها لا يستطيع مقاطعتها ويحدها عليها فلا يريد أن تشعر بحبه إياها .

قلب ماجلولين

ما زال الملل يأخذ من نفس لإخوار حتى مل يته واجتواه ،
وأنشأ يطلب لنفسه السعادة خالجه بعدما فقدتها داخله ، فأخذ
يتلهى بتلك الشؤون التي يعالج بها قراء القلوب أمراض ملهم
وسأمتهم ، فقامر ثم ضارب ثم ولع بالشراب ثم قضى بعض
لياليه خارج منزله ، فاشتد ذلك على ماجلولين ، ونال منها
مثلاً عظيماً ، وساء ظنها بالحياة وما فيها ، فقيح في نظرها كل
مظهر من المظاهر المادية التي أحببتها هنية من الزمان واستهامت
بها فعافت المراقص والمحافل وزهدت المظاهر والمفاخر ، وملت
كل شيء حتى ثيابها وزيتها ، وأصبحت لا تفكر ليلاً ونهارها
إلا في الكلمة التي قالها استيفن في بعض كبه الماضية ولا تصدق
يا ماجلولين أن في الدنيا سعادة غير سعادة الحب ، فإن صدقت
فويل لك منك فإنك قد حكمت على قلبك بالموت .

إلا أنها راضت نفسها مع الأيام على مكروهاها ، واصطبرت
للحالة التي طرأت عليها صبراً جميلاً لا يتغلا تذر ولا شكوى
فقد علمت أن القدر قد جرى في أمرها بما هو كائن ، وأنها قد
أصبحت زوجة لرجل قد أقسمت له بين يدي الله يمين المحبة
والولاء ، فلا بد لها من الوفاء له ، والإخلاص إليه ، واحتمال
كل مكروه في عشرته حتى يقضي الله في أمرهما بقضائه .

وكان يعزبها عن شقاها بعض العزاء أنها كانت ترى استيفن
من حين إلى حين ، وتحضر بعض مجالسه واجتماعاته فتسمع في

حديثه ذلك الأسلوب الشعري البديع ، وتلك التصورات السماوية العالية التي طالما سحرتنا وملكت عليها قلوبنا وأهواءها ، ونرى تلك الشهرة العظيمة التي تنتشر له شيئاً فشيئاً في أقطار البلاد فتمتلئ نفسها إكباراً ، وإعظاماً ، ولا يملك قلب المرأة من الرجل مثل الشهرة وامتداد الصيت ، وكان يداخلها شيء من إعجاب بنفسها كلما ذكرت أنها قد نزلت في عهد من عهود حياتها الماضية منزلة الحب من ذلك القلب الطاهر الشريف ، فتجد في سعادة الماضي وذكراه بعض الغزاء عن شقاء الحاضر .

إلا أن أمراً واحداً لم يخطر ببالها ، ولم يدخل في أحاديث نفسها وهو أن تعود إلى حبه بعد ما نفقت يدها منه ، أو أن تكون الصلة التي بينها وبينه صلة حب وغرام .

(٨٥)

من ماجلولين إلى سوزان

قد اطلعت منذ أيام قلائل على سر هائل لينني لم أطلع عليه وليتني مت قبل أن أعرف منه حرفاً واحداً .

قد أفلس إدوار وباع جميع ما يمتلك ولا تزال عليه بقية من للدين لا سبيل له إلى أدائها ، وهأنذا أعد عيني لبيع جواهري وحلاي علي أستطيع أن أستنفذ البيت الذي نسكته ، ولا أدري ما يكون شأننا بعد ذلك ، ولقد فاتحته ليلة أمس في هذا الشأن فراوغني قليلاً ثم اعترف لي بكل شيء وقال : إنه إنما أتى من قبل المقامرة أولاً ، والمضاربة آخرأ ، وأن طمعه في الثروة

واستهتاره بها هو الذي أقعده إياها ، ضاعته في ذلك عتاً لا أظن
 أنني أنقلت عليه ، ولكن أتدري يا سوزان ماذا قال لي ؟ قال :
 إنه لم يخطئ في حياته إلا في أمر واحد ، وهو أنه تزوج من
 زوجة فقيرة لا تستطيع أن تمد له يد المعونة في ساعات شدته
 ولقد صدق فيما قال ، فليس للرجل الغني أو يتزوج إلا امرأة
 غنية تلائم نفسه نفسها ، وليس للمرأة الفقيرة أن تتزوج إلا
 رجلاً فقيراً يشابه عيشه عيشها .

إنني لا أبكي يا سوزان على فقري ، فقد قضيت أكثر أيام
 حياتي فقيرة معلمة لا أملك من متاع الدنيا شيئاً ، بل على ذلك
 الجنين المسكين الذي يخلج في أحشائي والذي سأله غداً للفقير
 والمربة والذل والشقاء .

لقد أصبحت لا أسأل الله إلا مودة عاجلة فذهب بي وبه
 وترجيني وترجيه من شقاء الحياة وعناها ، والويل لي وله إن
 عشت بعد اليوم ساعة واحدة .

(٨٦)

الغرفة الزرقاء

مرض إدوار على أثر تلك النكبة التي نزلت به مرضه شديدة
 كادت تغرق فيها نفسه ، ثم أبلى بعض الإبلال فاقترح عليه
 استيقظ - وكان قد لازمه مدة مرضه ، ومد إليه يد المعونة في
 نكبته - أن يسافر معه إلى «جوتنج» ليفرج قليلاً عما به ، ففعل
 وسافرت معهما ماجدولين حتى بلغت بهم العجلة ضاحية القرية ،

فاستقبلهم « فرتر » وزوجه وأولاده على ضفة النهر فرحين مغتبطين ، وكانوا على موعد منهم ، فصافح استيفن فرتر وعانقه معانقة الصديق لصديقه ، وقبل جبين جوزفين ، وضم الأولاد إليه وأنشأ يقبلهم ويدبر لهم خديه فيقبلونه ويهتفون له ويقولون : لقد طال غيابك عنا في هذه المرة يا سيدي حتى ظننا أنك قد آثرت الإقامة في « كوبلانس » على الإقامة بيننا ، وقال أكبرهم وكان في الثالثة عشرة من عمره - : هاأنذا ألبس الرداء الجديد الذي أرسلته إليّ فشكراً لك يا سيدي ، فسأله : هل أصبح يستطيع نشر شراع الزورق وحده بلا مساعد ولا معين ؟ قال : نعم وأستطيع أيضاً أن أطويه وقت اشتداد العاصفة ، قال : سأرى الآن ذلك أيها الملاح الصغير ، وقال أوسطهم وكان في التاسعة من عمره : لقد بلى حذائي يا سيدي فهل جئتني بحذاء جديد ؟ قال : نعم لقد جئتكم جميعاً بأحذية جميلة ، وقبعات فاخرة .

فرح الأولاد وتهللت وجوههم ، وأحاطوا بأمهم يهمسون في أذنها بهذا النبا الجديد ، وتشبثت يردائه الطفلة الصغيرة وقالت له : لقد ولدت الشاة التي أهديتها إليّ صغيراً أبيض اللون أسود العينين فتعال معي أريك إياه ، فتبسم وضمها إليه وقال لها : سأذهب معك يا فكتورين عما قليل ، ثم التفت إلى ماجدولين وقال لها : إنهم يحبوني كثيراً ، وأنا الآن أعيش بينهم كأنني أعيش في أسرتي بين أهلي وقومي ، فارتعدت ماجدولين واصفر وجهها وظلت تقول في نفسها : « لقد أصبح سعيداً بنفسه ، وكان يظن أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً بدوني » ثم ركبوا الزورق جميعاً وأخذ الملاح الصغير ينشر الشراع ويصيح استيفن . ها أنذا يا سيدي أنشر الشراع وحدي بلا مساعدة ولا معين ،

فيقول له : أحسنت يا بني أحسنت ! حتى عبروا النهر إلى الضفة الأخرى ، فاعتمد إدوار على ذراع استيفن ومشوا جيباً على أقدامهم إلى المنزل ، وكان على كتب منهم ، فتقدم فرتر وكان معه مفتاح الباب ففتحه . فدخلوا الحديقة ووقع نظر ماجدولين على حائط السور فرأىها مكسوة بغلالة بديعة من أزهار البنفسج تدور بها من جميع جوانبها ، فذكرت ذلك الكتاب الذي كتبه إليها استيفن منذ خمسة أعوام قبيل زفافها إلى إدوار ، وقال لها فيه : إنه قد كسا سور البيت الذي ابتناه لها في جونتج بأزهار البنفسج التي تحبها ، ثم التفت فرأت حوض الماء المقام في وسط الحديقة ، ورأت حوله ذلك السياج الذي قال لها استيفن في كتابه إنه قد أقامه حوله خوفاً على أولادهما من السقوط ثم لمحت في زاوية من زوايا الحديقة كرسياً طويلاً موثقاً من مقعدين متقابلين ، وأرجوحة صغيرة من أراجيح الأطفال ، فعجبت من احتفاظه بهذه الآثار التي تؤله وتذكره بشقائه الماضي ، ثم قالت في نفسها : ما أحسب أنه تعمد إبقاءها والمحافظة عليها ولكنه تركها وشأنها فبقيت في مكانها على حالها .

وهنا شعرت بتلك الغضاضة التي يشعر بها الذليل في موقف ذله ومهانتة ، وظلت تقول في نفسها : إنه ما عفا عنها ، ولا غفر لها سيئتها عنده ، ولا أمسك عن عتابها وتأنبها ، ولا أعطاه من نفسه هذا الوجه من الرضا ، إلا لأنه يحقرها ويزدرجها ، ويرأها أصغر في عينيه من أن يأخذها بذنب ، أو يعتد عليها بسية ، وإن هذه النظرة العذبة التي أصبح ينظر بها إليها إنما هي نظرة العزيز المترف التي يلقونها على البائس الشقي الذي يستحق عطف ومسامحة ، فأخذ من نفسها هذا الخاطر مأخذاً شديداً ، وأحزنها ، وقابها غصة وألماً أنها قد فقدت كل ما كان

لها في قلبه حتى منزلة الاحترام .

وكان استيفن قد أنشأ في طرف من أطراف الحديقة غرفاً أعدّها لثامه وجلسه ونزول ضيفاته وترك المنزل جميعه لا يطرقه ولا يأوي إليه طلباً لراحة نفسه من آلام الذكرى وهمومها ، فأعد لإدوار غرفة منها ذهب به إليها ساعة وصوله ، وكان إدوار يشكو بقية من الألم في جسمه فما أخذ مضجعه من فراشه حتى استغرق في نومه وأقبل الليل فمادت أسرة فرتز إلى بيتها ولجأ بستاني الحديقة إلى غدحه وبقي استيفن وحده مع ماجدولين وهي المرة الأولى التي جلس إليها منفرداً منذ أن افترقا فمادت إلى ذهنه تلك الصورة القديمة التي كان يتخيلها في ماضيه لسعادته وهنائه ، وظل يقول في نفسه : ها هو البيت وها هي الحديقة ، وها هو النبت والشجر ، والليل والقمر ، والسماء الصافية والأشعة المترققة ، والنسيم العليل ، والسكون السائد ، وها هو حوض الماء تسبح فيه الأسماك غادية ورائحة ، وها هي ماجدولين جالسة ليس بيني وبينها حائل ولكني لا أستطيع أن أمد يدي إليها ، بل لا أستطيع أن أملك نظري منها لأن بيني وبينها حل شدة هذا القرب بعد ما بيني وبين ذلك النجم المثلث في أفق السماء .

وظل مستغرقاً في خياله هذا ، حتى فاجتته ماجدولين الحديث وقالت له : ما أجمل دارك يا استيفن وما أبدع منظرها ، إنها أجمل مما كنت أتوقع ، فخیل إليه أنها تهزأ به وتستهين بكلامه فلا تبالي أن تذكره بها ، فلداخله ما لم يملك نفسه معه وقال لها : إن من يعيش في قصر جميل فخم كقصرك الذي تميشين فيه في كوبلانس لا يعبأ بمنزل صغير كهذا المنزل ، فسمعت أنه يوثبها

ويعرض لما بتلك الإساءة التي أسلفتها إليه فيما مضى فتألمت في نفسها ألماً مزوجاً يبعث الغبطة والارتياح ؛ لأنها علمت أنه لا يزال يفكر فيها ، ولا يزال يضممر في نفسه بقية من ذلك الحب القديم ، وأرادت أن تتغلغل إلى أعماق نفسه فقالت له : حيثما يجد المرء سعادته في مكان مهما صغر شأنه فهو أجمل القصور وأفخمها ، فنظر إليها نظرة منكسرة كاد يقول لما فيها إنه ليس بسعيد ؛ وإنه أشقى إنسان على وجه الأرض ، ثم استردها سريعاً ، فلم تشعر بها وظل صامتاً .

فذهبت معه في الحديث مذاهب أخرى ، حتى مضت قطعة من الليل فنهضت من مكانها ، ونهض بنهوضها ، وتمشياً قليلاً في أنحاء الحقيقة حتى مرا بسلم الطبقة العليا فقالت له : هل تأذن لي يا ستيفن أن أصعد إلى هذه الطبقة لأراها ، وهل تفضل بالصعود معي إليها ؟ فاضطرب قليلاً ثم قال لها : لك ما شئت يا سيدتي ، وصعد معها ذلك السلم الذي لم تطأه قدمه منذ خمس سنين حتى بلغا أعلاه ، فمشى إلى الغرفة الأولى وفتح بابها وقال لها : هاهي الغرفة التي كنت أعددتها للخلوصي ودراسي ، ولا حاجة لي بها الآن ؛ فقد اتخذت من بين غرف الحديقة بدلاً منها ، ثم تركها وفتح باب الغرفة الثانية وقال : وهاهي الغرفة التي كنت أعددتها لمقام أبيك رحمة الله عليه أيام كنت أظن أنه سيأكنني في هذا المنزل ويعيش معي فيه . فرأت فرشاً جميلاً وأثاثاً حسناً وأصص زهر وريحان قد يست وجف ورقها وتناثر في أنحاء الغرفة ، فشعرت باقباض في نفسها لذكرى أبيها ؛ واغرورقت عينها بالدموع ، ثم انتقل إلى الغرفة الثالثة ومد يده إلى مفتاحها ثم استردها وقال بصوت خافت متهلج : عفواً ياماجولين فلاني لا أستطيع أن أفتح هذه الغرفة لأنها

الغرفة التي كانت معدة لأخي أوجين ، وقد آليت على نفسي
 أن لا افتح بابها ما حييت ، فأثر في نفسها منظره ، وأكبرت
 حزنه وألمه ، وقالت له : أحزين أنت حتى اليوم على أوجين
 يا استيفن ؟ قال : نعم حزناً لا يفارقني حتى الموت ، ثم مشى
 إلى الغرفة الأخيرة ومد يده إلى مفتاحها بهلوه وسكون ففتحتها
 ثم انحرف عنها قليلاً وأطرق برأسه ولم يقل شيئاً ، فألقت عليها
 ماجدولين نظرة أملت بجميع ما فيها ، فرأت غرفة جميلة راحة
 قد دهنت جدرانها باللون الأزرق ، وبسط في أرضها بساط
 أزرق ، وأقيم في أحد أركانها سرير من النحاس الأبيض مغطى
 بلامه حزيرية زرقاء ، ورأت منضدة جميلة قد صفت عليها
 أدوات زينة النساء ، وخزانة للملابس ، ومرتبة كبيرة وكرسي
 طويلاً ذا مقعدين ، وبضعة مقاعد أخرى كلها زرقاء اللون ،
 وقد علتها جميعها طبقة رقيقة من الغبار ، فعلمت أنها أمام الغرفة
 الزرقاء التي حدثها عنها في بعض رسائله الماضية وقال لها إنه
 قد أعدها مخدعاً لنومهما ، وأنه إنما اختار لها هذا اللون لأنه لون
 البنفسج الذي تحبه ، فثارت في نفسها تلك الذكرى القديمة ،
 ومشت ما بين قمة رأسها وأخمص قدمها رعدة شديدة كادت
 تنزائل لها أعضاؤها ، واشتد خفق قلبها واضطرابه ، ثم نظرت
 إليه فإذا هو مطرق صامت ، وإذا دموعه تنحدر على خديه
 يتبع بعضها بعضاً ، فهالها منظره ، وازدحمت الدموع في عينيها
 تتبادر إلى السقوط ، فأخذت يده بين يديها وقالت له : ما بك
 يا استيفن ؟ وكأنما قد راعه أن يفضح الدمع سره الذي كان
 يكتمه منذ عهد طويل ، فاجتذب يده من يدها برق وقال لها :
 لقد هاجني ذكر أخي أوجين ، وأشار إليها بالنزول ، فنزلا
 حتى وصلا إلى مكانهما الأول من الحديقة ، فقالت له : رقه

عليك قليلاً يا صديقي فليس فيما قضى الله حيلة ، ولا لفائف مرد ، ولقد مات أخوك ميتة كريمة لم يمتها أحد قبله ، فليكن صبرك عليه كريماً كميتته ، فرفع رأسه إليها وقال لها : إنني أستطيع أن أنسى كل عهد من عهود حياته الماضية ، ولا أستطيع أن أنسى تلك الأيام التي أحبيتها فيها وأحبني ، وأخلصت له فيها وأخلص لي ، ولقد جمعت بيني وبينه المصائب مذ كنا طفلين صغيرين ، وألفت ما بين قلوبنا الكسرين حتى أصبحنا قلباً واحداً ، يشعر بشعور واحد ، ويتألم بألم واحد ، ولا تزال حاضرة أمام عيني حتى الساعة تلك الأيام التي قضيناها معاً في مدرسة جوتيج بعيدين عن أبويننا ورحمتهم وعطفهم لأن أمننا كانت قد ذهبت إلى قبرها ، وأيانا كان يقسو علينا ، ولا يحفل بنا ؛ وقد بوأ عيشنا بوئاً يمي به الصغير ويطير له لب الكبير ، ويلغنا في الشقاء المبالغ التي لا يبلغها إلا اليتامى المنقطعون عن الأهل والرحم ، أو أبناء السبيل المشردون في آفاق البلاد ، وكنا نرتدي أرث الثياب ، ونأكل أتفه الطعام ، ولا نحتدي إلا الأحذية المرقعة ، ولا نلبس إلا القلائس المخرقة ، ولا نجد ما نستعين به على إصلاح شأن ملابسنا وأجسامنا ، فكنا نلاقى بسبب ذلك من معلمينا أشد العقاب وأقساه ، فنحتمل الألم بصبر وجلد . ولا نستطيع أن نعتذر إليهم عذراً شديداً ، نقيم به وجهنا لأننا إن فعلنا قد عققنا أبانا وتركتنا للألسنة سيلاً إليه ، وهذا ما لا نحب أن يكون ، وكان طلبة المدرسة في شأننا قسمين ، هازيء لا يزال يسخر بنا ، وراحم لا يزال يتوجع لنا ، ودمعة الراحم كابتهامة الساخر وكلاهما يؤلم النفس وعلوها غصة وأسى ، فكنا نضيق بالخالين ، ونألم في الموقفين ، وكثيراً ما كان يأمرنا معلمونا كلما زارهم زائر كريم بالإنزواء في الركن المظلم من أركان قاعة الدرس حتى

لا ينجحوا بنا أمامه فإذا انصرف عدنا إلى مقاعدنا كما كنا ،
فكنا نجد في نفوسنا من المصض والألم ما لا يعلم سبيله إلا الله ،
وكان الطلبة يخرجون جميعاً في أيام الآحاد مع المعلمين للتنزه في
الأحراش والغابات أو على ضفة النهر أو على سفح الجبل في
أزياء جميلة وشارات حسنة ، ما عدانا فقد كان معلمنا يتطلب
علينا العمل في ذلك اليوم حتى يأمر بسجنتنا في بيت الدجاج تبرماً
بنا ، واستقلاً لزيارتنا وهيتنا ، فإذا خلا بنا المكان اختلف شأننا
اختلافاً عظيماً فأظل أبكي وانتحب ، وبطل أوجين يلعب ويمرح
لأنه كان على صغر سنه أوسع مني صلوا وأكثر احتمالاً ،
وكان لا يعرف سبيلاً لتعزيتي وتسرية هموم نفسي غير هذا
السييل ، فلا يزال بغني ويصبح ويقلد أصوات الحيوان ، ويطارد
الدجاج والأوز ويفتن في مجونه ولهوه ، حتى تهلك نفسي ،
ويحف مدمعي ، ولا أرى لي بداً من الماضي معه في شأنه ، وكنت
أرحمه وأحنو عليه حتى أحم على رضيعها ، فلا أستطيع أن
أراه باكياً أو شاكياً أو مستوحشاً أو متألماً ، وكان ينجح إلي أنني
لو رأيت دمة واحدة تجري على خذه لقتلت نفسي حزناً وكمداً ،
وكثيراً ما كنت أتمارض ساعة الغداء أو أظهار بالشبع إن رأيت
الطعام قليلاً في أيدينا حتى يستطيع أن يأخذ حظه منه ، فلا أرى
على وجهه صفرة الجوع ، وطالما ضمنت في الليالي الباردة غطائي
إلى غطائه وأسبلته عليه من حيث لا يشعر رحمة به وحنواً عليه ،
حتى إذا أصبح الصباح ورآني نائماً بجانبه بغير غطاء ضمني إلى
صدره وقبلني ، وقال إنك تقتل نفسك يا استيفن من أجلي !
ولم يزل هذا شأننا حتى وفد علينا إدوار ، وكان منكوباً
بمثل نكبتنا ففاسمنا نحن الثلاثة هذا الشقاء وتعاونوا عليه برهة
من الزمان حتى فرقت بيننا الأيام .

وهنا اختفى صوته بالبكاء فلم يستطع المضي في حديثه وأطرق
إطراقاً طويلاً ثم رفع رأسه ، فإذا عيناه محمرتان من البكاء
فالتقى على ماجلولين نظرة طويلة دامعة وقال لهما : أتدريين يا
ماجلولين ماذا صنعت بهذا الأخ الذي كنت أحبه أكثر من كل
إنسان في العالم ، وكان يحبني أكثر مما أحبه ؟ قالت : لا أعلم
أنك صنعت به شيئاً ، قال : إنني قد قتلته ، فذعرت ماجلولين
واصفر وجهها وقالت : إني لا أفهم ما تقول ! قال : كتب إليّ
من ميدان القتال أن سرجه بال ممزق يوشك أن يخلده في الميدان ،
وأنه في حاجة إلى عشرين فرنكاً لبيتاع بها سرجاً جديداً ، وكنت
قادراً عليها فضنتت بها عليه ، فاقطع به سرجه أثناء المعركة
فداسه حوافر الخيل فمات ، فاستعبرت ماجلولين باكياً ، وقالت :
وا أسفاه عليه وعلى شيابه الغض وغصنه الباسق الضير ، فحلق
استيفن في وجهها تحديقاً وقال لهما : وهل تدريين لم ضنتت عليه
بهذا المال الذي سألتني ؟ قالت : لا . قال : لأنني كنت لا أملك
سواه ، وكنت بين أن أرسله إليه لبيتاع به السرج الذي يريده ،
أو أنفق في السفر إلى كوبلانس لأراك ، فأثرت رؤيتك على
حياته ، فتكست ماجلولين رأسها ، واحمر وجهها حياءً وخجلاً ،
وظل جسمها يرتعد ارتعاداً شديداً — ثم عاد إلى حديثه يقول :
وهل تعلمين ماذا تم لي بعد أن سافرت إليك هذه السفرة ؟
فصمت ماجلولين ولم تقل شيئاً ، فقال : ذهبت إليك في ملعب
الأوبرا فلم أجده فانتظرتك طويلاً فلم تأت فقلقت عليك
قلقاً عظيماً ، وذهبت إلى بيت سوزان لأقف على أمرك فرأيت
هناك وليمة حافلة فسألت عنها فعلمت أنها عرس صديقتك ،
فأيت أن أذهب دون أن أراك ولو على البعد لحظة واحدة :
ثم انصرف لشأني وكان لا بد لي من أن أحتال لذلك احتيالا ،

فأختلطت بالخدم كأنني واحد منهم وكانت ثيابي أشبه بثيابهم حتى تمكنت من الدخول إلى فناء القصر ، ووصلت إلى باب قاعة الرقص فنظرت من زجاجها فرأيتك ترقصين مع إدار تلك الرقصة التي كنت تفتحين بها حياتك الجديدة معه ، وبيننا أنا كذلك إذ دفع الباب دفعا شديداً وخرج منه أحد الزائرين فأمرني أمراً لم أحسن القيام به فضربني على وجهي سوطاً لا يزال أثره باقياً على خدي حتى الساعة .

وهنا وضع يده على خذه كأنما قد وقع السوط عليه في هذه اللحظة وانفجر باكياً بصوت عال وتركها مكانها ومشى في الطريق الموصل إلى مخدعه فلحقت به عند باب المخدع وتشبثت ببردائه ومدت يدها إليه ضارعة وقالت له : ألا تستطيع أن تعفو عنه يا استيفن ؟ فاجذب رداءه منها ، وألقى عليها نظرة شرراء هائلة ، وقال لها : اذهبي أيتها السيدة إلى مخدع زوجك فإنه مريض ، وربما كان في حاجة إليك ؛ ثم دخل مخدعه وأقفل بابه فلبثت في موقفها ساعة باهتة مذهولة ، ثم انصرفت إلى مخدع زوجها .

في هذه اللحظة علمت أنه لا يزال يحبها . ويستهم بها ، وأنها تحبه حباً يستعبدها ، ويملك عليها كل عاطفة من عواطف قلبها ، وإن قد حيل بينها وبينه إلى الأبد ، فقضت في مضجعها ليلة ليلاء ما يكاد يغرب لها نجم ، ولا يطلع لها فجر ، وما كان ليله بأقر من ليلها .

من ماجدولين إلى سوزان

لم يبق لي بدّ من أن أعترف لك بكل شيء .

قد أصبحت أحب استيفس حياً لم أضمر له مثله فيما مضى
من أيام حياتي ، لأنه حب بلا أمل ولا رجاء .

لا . بل أعتقد أنني ما سلوته يوماً من الأيام ولا سيته .
وافني كنت أخلع نفسي وأكذبها حينما ظننت أنني أستطيع
أن أحيأ بدونه ، أو أسكن إلى عشرة إنسان سواه .

إنه لا يزال يجني ويستهم بي . ولا يزال يذكر ذلك الماضي
كأنه لا يزال حاضراً بين يديه ، وقد كنت أجهل ذلك سنة .
ولا أرى له أثراً في وجهه ، حتى جلست إليه منذ ليالٍ جلياً
منفرداً فجرى بيبي وبينه حديث ثارت فيه عواطف نفسه ثورة
شديدة ، فبكى وتألّم وغضب واحتدم ، فعلمت أنه لم يس
شيئاً وأنه إنما كان يكانمني لواعج نفسه وآلامها ، ويطوي أحناء
ضلوعه على مهجة تتحرق لوعة وأسى ، فرتيت له وبكيت
ابكانه ، وأكبرت فيه تلك العاطفة الشريفة عاطفة الولاء والإنلاص
لامرأة قد غدرت به أقبح غدر ، وخانته أفظع خيانة ، ولأثت
عليه فضاء حياته بوساً وشقاء .

إنه لم يفكر في الزواج حتى الساعة . ولم يفتح باب الطقة
العليا من منزله التي كان أعدها لسكنائنا إلا مرة واحدة منذ ليال .
وكان ذلك من أجلي ، ولا تزال غرفة العرس باقية على عهداها

كما هي ، ولقد رأيتها فرأيت الغبار منتشراً فوق سريرها ومقاعد
وأستارها فشعرت عند النظر إليها بما يشعر به المائل أمام جدث
بال قد ضمه إليه ، وطوى به بين ترابه وأحجاره .

لقد خسرت يا سوزان كل شيء ؛ ولم يبق في يدي من جميع
أمانتي وآمالي أمل واحد ، فقد ضاعت الثروة التي بعت سعادتي بها ،
وتنصص علي الزواج الذي وضعت فيه جميع آمالي ، وخرج من
يدي ذلك الرجل الذي أحبيته أكثر من كل إنسان في العالم ، والذي
لا أستطيع أن أحب إنساناً سواه ، ولا أعلم ماذا بقي لي في ضمير
الدمر بعد ذلك من مخاوف وأهوال .

إنني أشعر بخوف شديد ترتعد له مفاصلي ، وأظن أن ساعة
العقاب قد دنت ، ولقد أذنبت ذنباً عظيماً ، فلا بد أن يكون
عقابي عظيماً .

(٨٨)

من ماجنولين إلى سوزان

قد حلت النكبة الكبرى ، فقد تركني إدوار وسافر إلى جهة
لا أعرفها سوى ما يقول بعض الناس من أنه ركب البحر من هامبورج
إلى أميركا ، ولا أعلم أصداً ما يقولون أم كذباً !

وكان استيفن أحسن الله إليه قد أصلح له بعض شأنه بعد نزول
تلك النكبة به . وبذل له من المعونة ما لا يبذله أخ لأخيه . ولا
حميم لحميمه ، ولكنه لم يثل من عثرته هذه حتى عاد إلى سيرته
الأولى واندفع في المقامرة اندفاع المجنون فما هي إلا أيام قلائل

حتى استبدان نيفاً مائة ألف فرنك ولم يبق له بد من السقوط .
فبعت جميع جواهري وحلاي علي أستقذه من سقطته فلم أصنع شيئاً ، ثم استيقظت صباح يوم من الأيام فذهبت إلى مخدعي فلم أجده ، فسألت عنه الخدم فأخبرني أحدهم أنه لمحّه خارجاً في الغلس من باب القصر ويده حقيبة سفر . ولا يعلم أين ذهب .
ثم علمت بعد ذلك أنه باع القصر إلى أكبر غرمائه وأخذ بقية ثمنه وهرب وترك سائر الغرماء وشأنهم دون أن يوفيهم ديونهم ؛
فعرفت أنه — وقد فعل هذه الفعلة التي لا يقدم عليها رجل شريف غير عائد من بعدها أبداً ، ولم أر بداً من أن أقوم عنه بوفاء بقية ديونه ضناً بكرامته وإبقاء على شرفه ، فبعت في سبيل ذلك البيت الذي ورثته عن أبي في ولقباخ والمزرعة التي بجانبه ، وقد سألت عنه في كل مكان وسافرت للتفتيش عنه في كل جهة أعلم أن له شأنًا فيها أو صلة بها فلم أقف له على أثر . ولا يعلم إلا الله كم ذرفت من الدموع وكابدت من الآلام منذ حلت تلك التكبّة بي حتى اليوم ، ولقد أرسل إليّ بالأمس مالك القصر الجديد ينذرني بالخروج بعد شهر واحد ، وبلغ في ذلك إلحاحاً شديداً ، ولا أدري ماذا أصنع ولا أين أذهب ؟ فليس لي قريب آتوني إليه ، ولا حبيب أرجو معونته ، ولا أملك ما أستعين به على قضاء ما قدر لي أن أقضيه في هذا العالم من أيام حياتي ، وقد انقطع استيفان عن زيارة كوبلانس فأصبحت لا أراه ، ولا أسمع به ولا أعلم سبب إنقطاعه ، ولقد حدثني نفسي كثيراً بالانتحار فحال بيّني وبين ذلك أنني إن قتلت نفسي قتلت معي هذا الجنين المسكين الذي لا ذنب له ، وكثير على الأم أن تمد يدها لقتل ولدها . فتعالي إليّ يا سوزان أو ائلفني لي أن آتي إليك ، لا ، بل لا نه من جيبك إليّ ، لأنني لا أستطيع أن أحتمل مشقة هذا السفر

البعيد وأنا في الشهر الأخير من حملي .

إنني أنتظر كتاباً منك بعد أيام قلائل . فلم يبق لي في العالم من أعتد عليه أو أرجو معونته سواك .

(٨٩)

من ماجدولين إلى سوزان

كنت أنتظر أن يأتيك منك كتاب بالأمس فلم يأتي ، فليت شعري ماذا حدث ؟ أمريضة أنت ؟ أم شغلك عني شأن عظيم لا يسمح لك بمراسلتي ؟ أكتبني على كل حال . فقد بلغت بي الشدة متهاجاً ، وانقطع عني الناس جميعاً فلا أرى أحداً من صواحي ولا من أصدقاء زوجي .

الحياة مظلمة في عيني ولقد بكيت كثيراً حتى جفت مدامعي وفكرة الانتحار تعاودني اليوم أكثر من ذي قبل ؛ ناظري في أمري يا سوزان واكتبني إلى يا سوزان . اكتبني إلى أنك قادمة أو ائذني لي بالسفر إليك فإن لم يأتيك منك كتاب غداً ، فلا أعلم ماذا سيكون شأني بعد غد .

(٩٠)

من فردريك إلى ماجدولين

أكتب إليك كتابي هذا وسوزان في أشد حالات مرضها وقد

أمرني الطبيب أن أجنبها كل ما يؤثر في نفسها من سرور أو حزن :
وقد جنبتها كل شيء حتى الاطلاع على الرسائل التي ترد عليها
من صواحبها ، وقد سهوت بالأمس ففصفت كتابك الأخير
الذي أرسلته إليها عفواً فألمت بطرف من الشدة التي تكايدنيها
فأسفت لذلك كثيراً ، وهممت أن أطلعها على الرسالة أو أكتب
إليك على غير علم منها بالحضور إلينا ، ولكنني أشقت عليها
أن يقتلوا الحزن لمصائبك ، أو الفرح بروثيتك فرجائي إليك أن
تنتظري بحضورك بضعة أسابيع حتى أحتال للأمر أو نهأ عن سوزان
صلتها ، والسلام عليك من صديقك الذي يرى لك ويتأمل لك .

(٩١)

الجزء

رأت ماجدولين ذلك الكتاب فرايا أمره ووقع في نفسها
أن سوزان ليست بمريضة ولا عاجزة عن قراءة رسائلها كما يقول
زوجها ، وإنما إنما تريد مدافعتها والتخلص منها ، فها لها الأمر
وتعاضلها وظلت ساعة بين الشك واليقين حتى دخلت عليها فتاة
من صواحبها وصواحب سوزان كانت تختلف إليها من
حين إلى حين فسألتهما ماجدولين متى كان آخر عهدهما برسائل
سوزان ؟ فقالت : قد جاءني منها كتاب بالأمس تهني في بعيد
ميلادي وتقترح عليّ أن أسافر إليها لأقضي عندها في « برلين »
فصل الربيع ، فكبت إليها شاكرة لما تهنتها ، وأستعفيها من
السفر . فصمتت ماجدولين ولم تقل شيئاً حتى انصرفت الفتاة
فقالت بينها وبين نفسها : لا عتب عليها فيما فعلت ، إنما هي

الإرادة الإغية تأتي إلا أن تجازيني غداً بغدرك وكفرانا بكفرا .

(٩٢)

الدموع الأخيرة

استيقظ سكان قرية ولباخ في صباح أحد الأيام فإذا بهم يرون تلك الفتاة التي فارقتهم بالأمس وهي أنصر الفتيات وجهاً وأسعدهن حالاً . قد عادت إليهم صفراء متضعفة شاحبة اللون بالية الثوب . تمشي مشية الذليل المهين ، وتقتلع قدميها في مسيرها اقتلاعاً . فمجبوا لأمرها ورثوا لها . ولم تزل سائرة في طريقها حتى مرت أمام ذلك البيت الذي قضت فيه أيام طفولتها وصباها وسعدت فيه بالحلب الشريف الطاهر أياماً طوالاً حتى فارقتهم فقارقتها هباء الحياة ورغدا . فحفظ قلبها خفقة الألم والحزن . ووقفت أمامه ساعة تقلب نظرها في جنباته وأعمائه ، فرأت السكون غميماً والوحشة سائدة ، فعلمت أنه لا يزال مهجوراً وكان باب الحديقة مفتوحاً فحدثتها نفسها بدخولها . فدخلتها وخطت فيه بضع خطوات . فلمحت البستاني وزوجته جالسين إلى أصل شجرة من الأشجار العظام يطبخان طعامهما ، فمشت إليهما حتى صارت على كعب منهما ، فأنكرها إذ رأياها ثم عرفاها ، فانتفضا من مكانهما انتفاضاً ، ومشيا إليها فحيياها ، ونظر الرجل إليها نظرة واجبة مكتوبة وقال لها : ما الذي طرأ عليك يا سيليقي ؟ فأفضت إليه بجملة قصتها ، ثم قالت له : أريد أن أستأجر الغرفة العليا من المنزل لأقضي فيها شهراً أو شهرين . وربما لا أحتاج إليها أكثر من ذلك فاستأذن لي صاحب البيت في أمرها . فاستعبر

الرجل باكياً وظل يعجب لتقلبات الأيام وتبدل صورها وألوانها ،
وينتدب ذلك الزمن الذي قضاه في خلعتها وخدمة أبيها ، وما
هي إلا ساعة حتى أعد لها الغرفة التي أرادتها ، فصعدت إليها
فوجدتها باقية على عهدهما أيام كانا استيقن يسكنها وذكر ذلك
اليوم الذي صعدت فيه إليها بعد سفره وأصلحت من شأنها وبللت
تريتها بدموعها حزناً على فراقه ، وظلت تقول في نفسها : قد
كنت أبكي قبل اليوم على فراقه ، أما اليوم فقد أصبح ذلك الفراق
قطيعة دائمة لا واصل لها ، فمن لي بدموع تميني عليها ؟
وخلت بنفسها تتذكر أيامها وهمومها وأشجانها ، وتلوف آخر
ما أبقى لها الدهر في أحضانها من دموع ومن هو أولى بالبكاء والمم
منها وقد ضربها الدهر بجميع ضرباته وتكر لها كل وجه من وجوه
الحياة ، فهجرها زوجها وخانتها صديقتها ، وقم عليها الرجل
الذي تحبه ، وفقدت الثروة التي بذلت في سبيلها سعادتها ، وأصبحت
لا تستطيع أن تطلب الراحة من طريق الموت ، لأنها لا تستطيع
أن تقتل ولدها ولا أن تجدها في الحياة لأنها لا تملك ما تستعين
به على عيشها ، وما هي إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض فلم
يحضر غير زوجة البستاني وعجوز من جاراتها القديمات فولدت
طفلة جميلة لم تبسم عند رؤيتها إلا لحظة واحدة ، ثم أخذت تبكيها
بكاء الثاكل وجيدها ساعة موته ، وما كادت تنهض من قفاسها
حتى جاءها الخبر بأن إدوار قد انتحر شتقاً في فندق من فنادق
« شيكاغو » كان ينزل فيه منذ سافر إلى أمريكا ، على أثر ليلة
قضاها في المقامرة وخسر فيها كل ما كان بيده من المال ، فسقطت
عند سماع الخبر مغماً عليها وهي تقول : « وايم ولاده » !

ثم استفاقت بعد حين فإذا هي تمثال صامت ، جامد ، لا
تنطق ولا تبكي ولا تشكو ولا تتألم ، ولا تضم طفلتها إلى صدرها

إلا إذا أزعجها بكأوتها ، ولا تطلب الطعام في غداة ولا عشي ، ولا تتناول منه حين يقدم إليها إلا المضعة أو المضغتين : ثم ترفع يدها عنه ، وتمر بها الساعات الطوال وهي ذاهبة يبصرها في السماء لا يعلم إلا الله أين تذهب ، ولا أين تتغلغل نفسها في ظلمات هذا الوجود . فإذا ثابتت نفسها إليها سألت البستاني هل أتاها كتاب . أو سأل عنها أحد ؟ فيجيبها أن : لا ، فتعود إلى صمتها وذمها .

(٩٣)

قلب استيقظ

أصبح استيقظ بعد انتفاض جرح قلبه عليه في تلك الليلة التي حدث فيها ماجدولين ثائراً مهتاجاً ، ولا يهدأ ولا يستريح ، ولا يسكن إلى نوم ولا يقظة ، ولا يهنأ باجتماع ولا خلو فبدأ له أن يسافر إلى بعض مقاطعات الشمال ليروح عن نفسه همومها وآلامها . فسافر سفرة طويلة زار فيها كثيراً من المدن واجتمع بكثير من علماء الموسيقى والمغنين وكتاب الروايات الغنائية الذين سمعوا به ولم يروه ، فاحتفلوا به احتفالاً عظيماً وأجملوا مودته وعشرفته ، ونظم في تلك السفرة بعض القطع الشعرية الجميلة ولحنها ولحن كثيراً من أغاني الروايات التمثيلية التي لا تزال خالدة حتى اليوم ، فازداد صيته انتشاراً ، وبلغ من العظمة أوجها الأعلى وأجمع الذين سمعوا غناؤه أو توقيعه أن سماء ألمانيا لم تطلع فيها منذ مات « بتهوفن » شمس مثل شمس : ولا أشرق فيها نجم أسطع من أنجمه : وظل في حياته هذه بضعة أشهر حتى ورد إليه في أحد الأيام كتاب من أحد أصدقائه في كوبلانس بخبره

فيه خبر إدار ، ويقص عليه قصة سفره وانتحاره ، فحزن عليه وعلى مصيره حزناً شديداً وبكاء الوفي الكريم الذي لا يأسى أن ينسى في موقف الموت كل شأن من شئون الحياة ، ولم يذكر له في تلك الساعة من ماضيه إلا شيئاً واحداً فقط ، وهو أنه كان صديقه ورفيق طفولته وصباه ، وأنيس وحدته في أيام بؤسه وشقائه لا يزيد على ذلك شيئاً ، ورأى أن لا بد له من العودة ليرى ما حل بمجذولين بعد نزول تلك النكبة بها ، وليمد إليها يد موته في بأسائها التي صارت إليها ، فاسافر إلى كويلانس فقصى فيها ليلة ، ثم ذهب إلى جوتنج وظل يسقط أنخبارها حتى عرف عنها كل شيء ، وعلم أنها تعيش مع طفلتها عيش البؤس والشقاء في القرعة العليا التي كان يسكنها من بيتها الأول فسمي في تلك الساعة موجدته عليها ، واستحال غضبه ونقمته إلى رحمة وشفقة ، فركب عجلته في الصباح وسافر إلى ولقباخ حتى بلغها ضحوة النهار ، فأخذ في طريقه إلى بيت الشيخ مؤلر حتى بلغه ، فسأل البستاني عنها فقص عليه مجمل قصتها ، ووصف له حياتها الفرية التي نحيها منذ عادت إلى القرية ، وذكر له صمتها وسكونها ، وذهولها واستغراقها ، واستبداد الهم بها استبداداً يكاد يقتلها ، ويأتي على حياتها فقال له استأذن لي عليها فلاني أحب أن أراها ، قال : إنها تقضي أكثر أوقاتها جالسة على ذلك المقعد الذي كتما تجلسان عليه معاً في أيامكما الماضية ، وقد تركتها الساعة هناك ، فاذهب إليها إذا شئت ، فمشى إليها حتى رآها جالسة على الهيئة التي وصفها الرجل فلم تشعر به حتى صار أمامها فانتفضت إذ رآته انتفاضة تزايلت لها أعضاؤها ، وتساقطت فيها نفسها ، فلم تستطع النهوض من مكانها ، وارتج عليها فلم تنطق بحرف واحد ، فجلس يمينها وقلبه يلذوب حسرة وأسى ، وأخذ

يعزيها عن نكبتها ؛ ويتوجع لما حل بها ويعظها بالصبر على مصابها ،
فتابت إليها نفسها شيئاً فشيئاً ، ونظرت إليه نظرة منكسرة وقالت
له : قد كنت أحتمل هذه النكبات كلها بصبر وجلد لو أنك
عفوت عني يا استيفن .

فأطرق ملياً ، ثم رفع رأسه إليها وقال لها : أما العفو فإني
لا أستطيعه لأنني لا أستطيع أن أنسى ، فاصفر وجهها اصفراراً
شديداً ؛ وشمرت أن روحها تسرب من بين جنبيها قطرة قطرة
ونظرت إليه بعينين تفرق في إنسانيهما الدمع وقالت له :
ألا يذكرك يا استيفن هذا المكان الذي نجلس فيه بشيء من
ماضينا ؟ قال لا يذكرني إلا بشيء واحد ، وهو أنني شهدت
فيه ذلك المشهد الذي فججني في جميع أمانتي وآمالي ، وقتل
قلي قطة لم يحيا من بعدها حتى اليوم ، قالت إنك تقسو عليّ
كثيراً يا استيفن ، ولو شئت لرحمتني وأشفقت عليّ .

فنظر إليها نظرة شديدة ، وقد تمثلت أمام عينيه جميع الآلام
الماضية دفعة واحدة وقال لها : ذلك شأن المرأة في كل زمان ،
وفي كل مكان ، تزعم أنها ضعيفة واهنة ، وأن الرجل قوي
مقتدر ، فهي تسأله عن كل شيء ، ولا تسأل نفسها عن شيء ،
ألم تكوني قاسية عليّ يوم تركتني في هذا المكان وحدي منذ خمسة
أعوام أقاسي أعظم ما تاسي امروء في حياته من الموم والآلام ،
وأخذت بيد خطيبك على مشهد مني ومرأى وذهبت به إلى
غرفتك دون أن تلتفتي إليّ التفاتة واحدة لترى ما حل بي من
بعدك ، وهل أنا باق على قيد الحياة أم ذهبت النكبة بما بقي من
رمقي ؟ ألم تكوني قاسية عليّ أيام أرسلت إليك تلك الرسائل
التي صرعت إليك فيها ضراعة لا تحتملها نفس من نفوس البشر

فأغفلتها وأهملتها ، ولم تعبني بدموعي الغزار التي سكبتها فيها ،
ولم تكتبني إليّ إلا كلمة واحدة بعد حين قطعت بها آخر خيط
كان في يدي من خيوط الرجاء ؟ .

لإني لا أزال أذكر حتى الساعة أنك سألتني في تلك الرسالة
أن أتنامى ذلك الماضي ؛ وأن تحمل الصداقة بيتنا محل الحب ،
فها أنذا قد جثت إليك باسم الصداقة التي تواقنا عليها منذ ذلك
المهد أنفقلك وأتمهد شأنك وأهيم لك حياة هنيئة تحيينها مع
طلقتك في أي مكان تشائين آمنة غلرات الدهر ونكباته ما مد
الله في أجلي ، فاستعبرت باكية ومدت يدها إليه ضارعة وقالت :
أهذا كل ما بقي لي في قلبك يا استيفن ؟ فهاجت وجده مدامعها ،
وانبشت من مكانها في لحظة واحدة جميع عواطف قلبه المختلفة ،
وظلت تتداول نفسه واحدة بعد أخرى ، فذكر حبه لإياها وحاجته
إليها ، وأنه لا يستطيع أن يعيش سعيداً في الحياة بدونها ، ثم
ذكر خيانتها وغلرها ، وقسوتها عليه ، وزرايتها به وبآلامه
ودموعه ، فمحت عاطفة الغضب من نفسه عاطفة الحب ، ولكنه
ما لبث أن رأى دموعها المنهمرة على خديها ، ومنظر يأسها
وشقاها ، ويديها المملودتين بالضراعة إليه ، حتى عاد إلى بحطفه
وإشفاقه ، وحادثه نفسه أن يأخذها بين ذراعيه ، ويضمها إلى
صدره ، ويقول لها : قد نسيت كل شيء يا ماجبولين فعالي
إليّ فإنني لا أستطيع أن أعيش سعيداً في الحياة بدونك . ثم
مرت بخاطرهم مرور البرق تلك الساعة التي وقف فيها على باب
غرفتها ليلة عرسها وسمعها تلقي بنفسها بين ذراعي زوجها
وتقبله وتستقبل قبلاته ، فثارت في نفسه عاطفة العزة والأففة
التي لم تغارقه في يوم واحد من أيام حياته وقال في نفسه : لإني
لا أمد يدي إلى فضلات الرجال ، ولا ألبس أكفان الموتى .

وكذلك ظل يقاب ساء بين أيدي هذه العراطف المختلفة ، وهو صامت مذهول ، وماجدولين ناظرة إلى شفتيه نظرة المتهم إلى شفتي قاضيه . تنتظر تلك الكلمة التي تفصل في أمرها ، فترفعها إلى سماء السعادة التي لا سماء فرقتها . أو تهوى بها في مهواة الشقاء التي لا قرار لها ، ثم مدت يدها إلى يده فأخذتها برقق وضمتها إلى صدرها وانشأت ثقيلها . وتبللها بدموعها ، فتناسى في تلك الساعة كل شيء ، وحنأ عليها وأهوى بفمه إلى فمها ، حتى إذا لم يبق بين تلامس شفتيهما إلا ممر الهواء بينهما إذ سمعها تقول له وهي ترتعد بين يدي « أنت حياتي التي لا حياة لي بدونها » وهي بعينا الكلمة التي سمعها منها منذ خمسة أعوام وهي تقولها لزوجها ليلة زفافها في غرفة عرسها . فما رنت في أذنه حتى وثب على قدميه وثبة الخائف المختل . وانتزع يده من يدها . ودفعها عنه دفعا شديداً ، فسقطت تحت المقعد ، وقال لها بصوت شديد قارع : لم يبق لك في قلبي شيء أيتها السيدة منذ ذلك اليوم الذي وضع الكاهن فيه يده على رأسك ورأس زوجك وبارككما ودقت على أثر ذلك أجراس الكنيسة مؤذنة بانقضاء كل شيء .

ثم تركها مكانها ومشى خافض الطرف ، مطأطئ الرأس ، حتى وصل إلى باب الحديقة فرأى البستاني واقفاً في مكانه فأخرج من جيبه كتاباً مختماً وقال له : أعط هذا لماجدولين ، ثم ركب عجلته وذهب في سبيله .

فمشى البستاني إليها فرآها ساقطة تحت المقعد تعالج سكرة كسكرة الموت فما زال حتى رجعت إليها نفسها ، فأعطاه الكتاب فأخذته من يده صامتة ، وصعدت إلى غرفتها وقد لبس

وجعلها ذلك اللون الذي يخشى وجوه المتدين بالموت ، تقصت
ليلتها ساهرة بجانب صياحها ، تكب مرة ، وتدف دموعها
أخرى ، وتضم إلتلتها إلى صدرها نيماً بين ذلك ، حتى انصلح
عمود الصباح .

(٤٤)

الكارثة

قال فرتز لزوجته والشمس تشرف على الدنيا من وراء
خلدها والكون يسح عن عينيه سنة الكرى : أما أنا فإني باق
هنا لأنني أريد أن أصطاد لاستيقظ نوعاً من السمك قال لي صباح
الأمس إنه يجب أن يكون على مائدته اليوم ، واذهي أنت إليه ،
وانتظريه حتى يستيقظ ، ولا تأخذي معك من الأولاد غير
طلقك الرضيع ، وأغلب أنني أنه لا يستيقظ من نومه إلا متأخراً ،
فقد عاد أمس من تلك السفرة التي سافرنا إلى ولقبناح حربناً
مكتئباً كثير الهم بالشجن ، فسألته عن شأنه فلم يخبرني بشيء ،
فجلست إليه أحدثه أحاديث مختلفة ربيوت أن أمري بها عن
نفسه ، فلم يصنع إليّ ، حتى انتصف الليل ، فأذني الذهاب
إلى منزلي ، فركته وهو يعالج النوم فلا يجد سيلاً إليه قالت :
مسكين هذا الرجل . ما أحسب أن أحداً يبقى في هذه الحياة
شقاءه ، أو لاقي فيها ما لاقاه ، والناس : يونه بعيداً منتظاً ،
ويحصلونه على نعمته ونوائه قال : نعم لقد تلك تلك الغرام
القديم بنفسه فتكة لا سب أنه بارئ منها أبد الدهر ، وراحمته
له ، ووا أفاه عليه ، ذهبي إليه يا جوزفين وانتظري بقطته

واحدري أن يزعمه بكاء طفلك ، وربما لحقت بك بعد قليل ، فذهبت حاملة طفلها على يدها حتى دنت من باب الحديقة فمرت على مقربة منها مرور البرق امرأة مقنعة في أخلاق رثة مشعة ، تسرع في مشيتها وتعتش في ذيلها ، فعجبت لأمرها ولكنها لم تحفل بها ودخلت الحديقة فراعها أن رأت بين يديها في دهليز الباب سقفاً صغيراً كان فيه شيئاً يضطرب ، فدنت منه فرائت طفلاً رضيعاً ملففاً بشبابه بمحصر ثدياً صناعية موضوعة بجانبه ، فذكرت تلك المرأة التي رآها منذ لحظة تسرع في مشيتها كالحائفة المذعورة ، وقالت في نفسها إنه طفلها ما من ذلك بد قد أتمت فيه وحاولت التخلص من عاره فألقته هنا ، وهتفت بالبستاني وكان يعمل في ناحية أخرى من الحديقة فلباها ، فسألته عن السقط ، فدهش إذ رآه وقال : إنه لم يره إلا الساعة ، فلم تر أن تصنع شيئاً دون أن ترى رأي استيفن . فذهبت إلى مخلمه وأشرفت عليه فرأته مستيقظاً في فراشه . فدعاها حين رآها . فدخلت إليه وقالت له : قد كنت أظن أنك لا تستيقظ اليوم إلا ضحوة النهار ، قال إني لم أتم حتى الساعة ، فقصت عليه قصة السقط وأخبرته خبر المرأة المقنعة التي رأتها ووصفت له حالتها في اضطرابها وتحليلها فداخله ريب عظيم . ونفض غطاءه عنه نفصاً وخرج مسرعاً في مبادله حتى بلغ مكان السقط فرآه ورأى الطفل في مضجعه منه ، ورأى بجانبه هنة يبضاء فتأملها فإذا كتاب مختوم . فأخذوه وقرأ في عنوانه « من ماجدولين إلى استيفن » فنفضه بسرعة وأمر نظره عليه إمرأاً فلمح بين سطوره كلمة « الموت » فصرخ في وجه جوزفين : أين ذهبت تلك المرأة التي حدثتني عنها ؟ قالت : ذهبت في هذا الطريق . وأشارت إلى طريق النهر ! فصرخ صرخة عظمى وقال : إنها

ماجدولين ، ولأنها قد ذهبت إلى الموت ، وألقى الكتاب من يده ،
وعدا عدواً شديداً حتى أشرف على النهر فرأى خلقاً كثيراً مجتمعين
على ضفته وكلهم يشير إلى الماء بأصبعه ، فنظر حيث يشيرون
فرأى الغريقة تضطرب في أيدي الأمواج ، وتعد يدها ناحية
الضفة كالمتغيثة ، وكانت الزوبعة نائرة ، والريح تعصف من
كل جانب ، ورأى صديقه فرتر يبحث زوزقه إليها لإتقاذها ،
فأخذ يهتف ويقول : أدركها يا فرتر ، ألقها يا صديقي .
لأنها ماجدولين ، ثم نضا ثوبه عنه وهم بإلقاء نفسه في الماء :
فأشفق عليه الناس أن يصيبه مكروه فاعترضوا سبيله ، فدفعهم
عنه دفعاً شديداً ، واقتحم النهر وظل يسبح وراء الزورق .
والموج يدنو منه مرة . وينأى به أخرى حتى بلغه بعد لأي فتشبث
به ، وكان الزورق قد دنا من مكان الغريقة والغريقة تطفو وترسب .
ويتموج شعرها على سطح الماء مرة بعد أخرى .

في هذه الساعة . والقلوب خافقة : والنفوس ذاهلة . والناس
يهتفون بالدعاء مرة ويصرخون صرخات الفزع أخرى . ثارت
موجة هائلة حول مكان الغريقة كالطود الشامخ . ولبث لحظة
تعج وتصطبغ ، فصاح الناس بصوت واحد : ورحمتك اللهم
وإحسانك ، ثم انحسرت فإذا سطح الماء املس منبسط . وإذا
الغريقة لا عين ولا أثر .

وما رأى استيفن هذا المنظر حتى جن جنونه : وألقى بنفسه
في الماء ، وغاص حيث غاصت فاندفع فرتر وراءه ، وهبط
مهبطه ، وما زالا يرسبان مرة ، ويطفوان أخرى ، ويصارعان
في هبوطهما وصعودهما جبابة الأمواج صراعاً شديداً ، ثم
انفجر الماء عنهما ، فإذا هما صاعدان يحملان الغريقة فوق

أبيهما ، ولا يعلمان أحية هي أم ميتة ؟ وما زالا يسبحان حتى بلغا الضفة فطرحاها ، وأكب الناس عليها يتسمعون ضربات قلبها ، ويتلمسون أنفاسها ، واستيقن واقف ناحية يشخص بصره إليها وينتظر قضاء الله فيها ، ثم انتبه فإذا القوم جاثون من حولها ، وقد رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم ، وأخطوا يهمهمون بصلواتهم فلم أن الأمر قد انقضى ، فسكن للحادث سكناً عميقاً لا تتخلله زفرة ولا أنه ، وجثا بجانب الجاثين يصلي بصلاتهم ، ويدعو بدعاهم ، فأبكى منظره الناس جميعاً ، وهالهم من سكونه وجموده فوق ما كان يهولهم من جزعه وبكائه ، ثم أخطوا ينصرفون واحداً بعد آخر ، حتى إذا لم يبق منهم أحد نهض استيقن من مكانه ومشى إلى الجنة فاحتملها على يديه وسار بها إلى المنزل ، وفرتز يتبعه صامتاً . فصعد إلى الطبقة العليا ودخل إلى تلك الغرفة الزرقاء فأضجعها على ذلك السرير الذي كان بالأمس سرير عرسها ، فأصبح اليوم لحدها الأخير .

وجثا على درجات السرير جثي العابد على درجات الهيكل ، وظل على حاله تلك بضع ساعات لا يطرف ولا يتحرك ، حتى حلت ساعة الدفن فنهض من مكانه وأكب على الجنة وكشف الغطاء عن وجهها ، وتناول من فمها تلك القبلة التي كانت تحرمها عليه الحياة ، حتى أحطها له الموت ، ثم سقط متشياً عليه .

(٩٥)

من ماجلولين إلى استيقن

ماذا . . . نعم بالمال من بعلك يا استيقن ، بل ماذا أصنع بالحياة

جميعها بعد ما فقدتك ، واقطعت أسباب دنياي من أسباب دنياك .

كنت أرجو أن أعيش لك ، وأن أقدم إليك في مستقبل حياتك
هنا أفضل من الهناء الذي كنت ترجوه في ماضيك ، لأكفر
بذلك عن سيئي التي أسلفتها إليك ، فحلت بيني وبين ذلك ،
لأنك كنت واجداً عليّ ، وكنت ترى ألا بد لك من الانتقام
لنفسك ، فقضيت بذلك عليّ وعلى نفسك في آن واحد ، لأنني
أعلم أنك تحبني ، وأنت لا تستطيع أن تهنا بالحياة من بعدي .

كنت أشعر أن بين جنبي ثروة من الحب تملأ فضاء حياتك
هنا ورغداً ، وكنت أرى أن في استطاعتي أن أمنحك في كل
ساعة من ساعات حياتك من السعادة مالا تستطيع امرأة في العالم
أن تمنحه رجلاً في الكثير من الأصوام ، ولم أكن أرجو على
ذلك أجراً سوى أن أراك سعيداً بين يدي ، وأن أعيش بجانبك
عيش النبتة الضعيفة بجانب اللوحة العظيمة يفىء عليها ظلها ،
ويترقق عليها نسيمها .

لمَ لم تعرف عني يا استيفن ؟ ووالله ما أحيت أحداً في الحياة
غيرك ، ولا سكنت نفسي إلى عشرة إنسان سواك ، ولم يستطع
الرجل الذي تقمت مني زواجي منه ، حاسبتي عليه حساباً
شديداً أن يتقص ذرة واحدة من ذلك الحب الذي أضمرته لك
في قلبي مذ عرفتك ، فلو أنك أغضيت عن هفوتي ، وأذنت
لحلمك أن يسع جهلي ، لوجدت بين يديك فتاة عفراء بقلبها
وعواطفها لم تمسها يد ، ولا عبث بفؤادها عابث ، ولا فرق
بينها وبين تلك الفتاة القروية الساذجة التي أحببتها في ولعباخ
جاً جماً ، وعاهدتها على المحبة والولاء .

كانت الكأس مرعة بين أبلدينا . وكان منظرها جميلاً رائعاً
تأخذ العين ، ويهفو له القلب ، وكان جديراً بنا أن نساهاها
قطرة قطرة حتى نأتي على القطرة الأخيرة منها ثم نموت معاً
سعيدين بنشوتها كما عشنا سعيدين بتساقبها ، ولكنك كنت شقياً
سيء الحظ فدفعتها عنك بقدمك دفعاً شديداً فكسرتها ، وأرقت
ما فيها ، فأصبحنا لا نجد لذة الحياة إذا عشنا ، ولا نهناً بضجعة
الموت إذا متنا .

لمَ لم تعف عني يا استيفن ؟ وقد عاقبني الدهر بذنبك عقاباً
أليماً ، وأخذ لك مني فوق ما تستطيع أن تأخذ لنفسك بنفسك ،
فسلبي الثروة التي فتنتني عنك ، والزوج الذي مالاًه على الغدر
بك ، والمنا من الحب التي كانت تلسع في قلبي فتضيء ظلمته
إلى نار آكلة تحرقه وتضطرم في أمحائه ، وتتغلغل في أعماقه وأطوائه ،
ولم يترك في موضعاً واحداً يسمع عقوبتك وانتقامك .

أتدري يا استيفن من هي تلك المرأة التي جلست إليها بالأمس
تقرعها وتؤنبها ، وتعد عليها ذنوبها وآثامها ، وتتلذذ بمنظر ذلها
وضراعتها ؟

إنها لم تكن إلا شبحاً من الأشباح الضئيلة المتهاففة ، قد ذهب
الدهر بجميع قواها ، وضعف جميع سواها ومشاعرها ، ولم
يترك لها من آثار الحياة إلا عيناً تنظر ولا ترى ، وأذناً تسمع ولا
تعي . ونفساً ذاهلة عن كل شيء حتى عن نفسها ، وروحاً تتسرب
من بين جنبيها شيئاً فشيئاً ذاهبة في سبيلها .

تلك هي المرأة التي قسوت عليها ، ولم ترحم بؤسها وضعفها
فمددت إليها يدك القوية القادرة وطعنتها ، وهي جريحة متخنة

تلك الطعنة النجلاء التي نفذت إلى قلبها ، وقضت عليها القضاء الأخير

قد غفرت لك كل شيء يا استيفن ، لأنني أحبك . ولأنني أعلم أنك ما قسوت عليّ هذه القسوة كلها إلا لأنك تحبني . فامنحي عفوك ومغفرتك وأزلي من نفسك المنزلة التي كنت أنزلها من قبل ، والتي أبذل اليوم حياتي في سبيلها ، فإن كنت لا بدّ أخذاً الموتى بذنوبهم فلا تأخذ بذنبي تلك الطفلة اليتيمة المهيئمة التي لا سند لها ولا عضد ، فهي وإن كانت ابنة المرأة التي خانتك ، فهي ابنة المرأة التي أحبتك ، ولأنني أعيدتها بكرمك وفضلك أن تذوق طعم الشقاء على عهدك ، أو أن تحمل بها كرامة من كوارث الدهر بين سمعك وبصرك .

أطعمها وتصدق عليها . فطالما أحسنت إلى أبيها من قبلها . واجعل لها من صدرك الرحيم ملجأً يجد فيه حنان الأم ، ورعاية الأب ، ولا تكلها إلى نفسها تصارع أهوال الحياة وآلامها فتصرعها وتول بنفسك أمرها في الساعة التي تجتاز فيها تلك العقبة الكبرى من عقبات الحياة حتى لا تسقط سقطة تشقى بها أبد الدهر ، واذكر لها دائماً أن أمها كانت تحبها حباً جماً ، وأنها ما آثرت الموت على الحياة إلا لأنها عجزت عن أن تعيش يجانبها ، ولأنها كانت شقية مرزاة فأشفقت عليها أن يطيش إليها سهم من سهام إشفاقها .

الوداع يا استيفن ، الوداع يا أحب الناس إليّ . اني أفارق هذه الحياة وأنت آخر من أفكر فيا ، وكل ما أسف عليه ، فاذكري ولا تنسى ، وتمهد بالزيارة قبري من حين إلى حين ، إن كان مقدراً لي أن يكون لي قبر على ظهر الأرض ، واحتفظ بالودعة التي أودعتك إياها فهي تذكاري الدائم المقيم عندك ، وليهون عليك

فقلدي أن روحي قد امتزجت بروحك امتزاجاً لا يغيره فناء ولا
يل ، فلئن فرقت نيتنا الأقدار في هذه الدار فستلتقي في الدار
الأخرى لقاء لا ينغصه علينا موت ولا فراق .

الوداع يا استيفن ، وآخر كلمة. أقولها لك في آخر ساعة من
ساعات حياتي : «إني أحبك ، وإني أموت من أجلك» .

(٩٦)

المقبرة

استطاع استيفن أن يستيق من غشيته في أصيل اليوم الثاني ،
فتفتح عينيه ودار بهما حوله فرأى فرتر وزوجته وأولاده جلوساً
تحت قلمبه ييكونه ويتوجسون له ، فظل شاخصاً يبصره هنيهة ،
ثم التفت إلى فرتر وألقى عليه نظرة طويلة وقال له : هل دفتسوها ؟
فأطرق فرتر واجماً وقال بصوت خافت : نعم يا سيدي منذ
الأمس ، قال : وأين طفلتها ؟ قال : قد كفلتها جوزفين ، وهي
تتولى لإرضاعها مع طفلتها . قال : وأين ذلك الكتاب ؟ قال :
هــ هو ذا يا سيدي ، وأعطاه إياه ، فأمره بالانصراف إلى منزله ،
فانصرف هو وأمرته ، فلما خلا استيفن بنفسه أخذ يقرأ الكتاب
ونفسه تتطايّر لوعةً وأسى ، حتى فرغ منه ، فبكى ما شاء الله
أن يفعل ، ثم أخطته كلمة شديدة فلحلل عن نفسه وظل مستغرقاً
في ذهنه بضع ساعات حتى انتصف الليل ، فثار من مكانه بقتة ،
وكأنه طاف بقله طائف من الجنون ، وبخرج إلى الحديقة فمشى
في أعماها يتسمع فلم يشعر بحركة ورأى البستاني نائماً في غرفته

ورأى فأسه على بابها فتناولها وفتح باب الحديقة بهلوه وخرج ،
فلما استقبل الفضاء أخذ سمته إلى المقبرة حتى بلغها ، وكان الجو
مكتمهاً والرياح عاصفة والسحب تحجب وجه القمر ولا تنحسر
عنه إلا حيناً بعد حين ، ثم لا تلبث أن تعود إلى تراكبها وتكاثفها ،
وكان يحيط بالمقبرة من جهاتها الثلاث سور متهدم كثير الثغرات
والفتحات ، ويمتد مع جهتها الرابعة نهر جوتنج ، وقد قامت
على ضفته أشجار عالية غيباء تعصف الريح بفروعها وأوراقها
عصفاً شديداً فيتألف من خفيفها وخزير ماء النهر الجاري بجانبها
صوت غليظ أجش يملأ القلوب روعة ورهبة ، فلم يزل استيقن
سائراً في طريقه حتى لاحت له رؤوس تلك الأشجار ، وسمع
خفيف أوراقها ، وخزير المياه المتدفقة من تحتها ؛ فخيل إليه
أنها أشباح سوداء من الجن تتقدم نحوه في جوف الليل واقصة
مرتحة ، وتعلم بأصواتها المخيفة المريعة ، فمشت في جسمه
رعدة الخوف إلا أنها لم تمنعه من المضي في وجهه فاستمر في
سبيله حتى دخل المقبرة ، وكان القمر يظهر حيناً فيرسله إلى
الطريق ، ثم لا يلبث أن يتوارى في غمار السحب فيقف عن
المسير ، فإذا تراءى له رأى على ضوئه نواويس الموتى ، وقد
جفت فوق تربتها تلك الأشجار القصيرة التي أغفل غارسوها
أمرها بعد أن بلى في قلوبهم حزنهم على موتاهم ، ولم يزل يتصفح
أوجه القبور حتى رأى بين يديه قبراً حديثاً لا تزال تربته مخضلة
فاكب عليه يتصفح جوانبه فقرأ على أحدها على شعاع ضعيف
بعثه إليه القمر في تلك الساعة اسم ماجدولين ، فجتا على ركبتيه
وهمهم بصلاة قصيرة ، ثم نهض قائماً على قدميه وتناول الدّاس
التي أتى بها معه وشرب بها الأرض ضربة شديدة ؛ فلم يسع
لضربته صوتاً لشدة عصف الرياح وزفيها في تلك اللحظة ،

ثم أخذ يحضر حتى ضرب ضربة أخرى رنت رنيناً شديداً ملاء أرجاء المقبرة . فاقشعر بدنه ، وبرد دمه في عروقه ، وسقط على ركبتيه ، وسقطت الفأس من يده ، لأن الضربة كانت قد أصابت التابوت الذي يحوي الجثة ، فخيّل إليه أنها أصابت جمجمة الميتة ، وكان القمر قد برز من وراء غمامته في تلك الساعة وأضاء المقبرة كلها ، فتمثل له أن القبور قد تفتحت جميعها ، وأن الموتى قد أخرجوا رؤوسهم منها ، وأخلوا نظرون إلى بيون ملتجة متوقدة ، فطار من رأسه ما بقي فيه من الصواب وترك الفأس مكانها ، وركض ركضاً شديداً ، وهو يتخيل أن الموتى يتأثرون ويركضون وراءه حتى وصل إلى المنزل متطرقاً من الكلال ، وهو يصيح « ما كفاني أن قتلتها حتى مثلت بها » وسمع البستاني صيحته فاستيقظ وذهب إليه فرآه على تلك الحالة ، فقال له : ما بك يا سيدي ؟ فهذا قليلاً عندما رآه ، ونهض من مكانه وقال له : اتبعني ، تتبعه الرجل صامتاً لا يعلم أين يريد ، حتى بلغ المقبرة ، وكان القمر لا يزال مشرقاً في جنباتها فمشى إلى ذلك القبر فاعنّى عليه ، فرأى أثر الفأس في التابوت ، ولم ير شيئاً مما كان تخيله ، فسكن وهداً ، وعلم أنه إنما كان في ثورة من ثورات الجنون ، فأمر الرجل أن يعيد التراب إلى ما كان عليه ، فأعادته ، ثم أمره أن يأخذ فأسه ويعود إلى المنزل ففعل ، وجثا هو بجانب القبر يلثم تربته وأثره ، ويلصق خديه بصفاقحه وأحجاره ، ويكي بكاء شديداً حتى اشتقت نفسه ، ثم انصرف لسيّله . وهو يقول : قد كنت أرجو أن أدفن بجانبك يا ماجلولين فلم أوفق إلى ذلك وأحسب أن ذلك مني غير بعيد .

وأصبح منذ ذلك اليوم خائر النفس ، متقبض الصدر ، كئيماً مستوحشاً ، ينظر إلى الحياة وما فيها نظر الغريب النازل بدار لم

يطرقها من قبل ، ولم يأنس بالمقام فيها ، فهو بعد عدته للرحيل عنها ، ثم ما زال يلج به الأمر حتى أصبح يستوحش من الناس . ويتبرم بمرآهم ، ويستكر سماع أصواتهم ، فانقطع عن الاختلاف إلى من كان يختلف إليه من أسدقائه ومعارفه ، وأبى أن يقابل أحداً من زائريه . وأمسى لا يفارق خياله في نومه ويقظته وذهابه وجيشته منظر ماجدولين ، وهي تفرق في النهر ، وغداؤها الذهبية الصفراء طافية على وجه الماء ، ويدها تتحركان حركات الاستغاثة فلا تجد مغنياً ولا معنياً ، فكان يجد في نفسه لتلك الذكرى ألماً ممضاً يقيمه ويقعده ويذهب براحته وسكونه ، فيصرخ كلما تراءى له ذلك الحيال : نعم أنا الذي قتلتها ، وانزعت حياتها من بين جنبيها ، وفرت بينها وبين فلذة كبليها ، فويل لي ، ما أشقاني ! وما أسوأ حظي ! لقد كتب لي أن أقتل بيدي جميع الذين يحبوني على ظهر الأرض ، وأن أبقى من بعدهم شقياً معذباً أبكيهم وأندبهم . لا أستطيع أن انساهم ، ولا يقيض لي أن ألحق بهم .

ولقد استيقظ صباح يوم من الأيام ضيق الصدر ، كثير الضجير ، فخرج من المنزل هائماً على وجهه ومشى في طريق ممهدة بين المزارع لا يدري أين يذهب ، ولا أي غاية يريد ، واستمر به المسير بضع ساعات فإذا هو أمام قرية ولقباخ فهاجت في نفسه تلك الذكرى الماضية ، ومشى إلى بيت الشيخ «مولر» ، فراعاه وأدهشه أنه لم ير أثراً لتلك البيت ، ولا لتلك الحديقة ، فلا عرف ولا قيعان ، ولا سقوف ولا جذران ولا أشجار ولا أغراس . بل رأى أنقاضاً مبعثرة . وجذوعاً متناثرة ، وأحجاراً ذاهبة ههنا وههنا ، فعلم أن مالك البيت الجديد قد هدمه ، وانزع أشجار حديقته وأغراسها ، فأحزنه المنظر وآلمه ، ووقف أمامه مطرقاً خاشعاً وقوف العابد أمام محرابه ، وللإلى والدروس جلال

في النفس فوق جلال الجدة والعمران ، وظل على ذلك ساعة ،
ثم أخذ يلور بعينه في تلك العرصات الخالية ويتلمس أثراً من
آثار تلك 'العالم التي قضى فيها أيام سعادته الأولى ، كما يتلمس
الساري في ظلمة الليل نجمة القطب في أطباق السحب فلم يجد شيئاً ،
فهتف صارخاً : ماذا صنع الدهر بي وبها ؟ لقد أنكلنيها وأنكلني
كل شيء يعلمها حتى آثارها ، وظل يتناجي تلك الأطلال الدوارس ،
ويستطق نوبها وأحجارها ويسأئلهما عن أهلها وساكنيها فلا يجيبه
غير الصدى المتردد ، حتى عي بموقفه ، فانصرف وقلبه وجبات
كأنها شقائق برق في السماء الوامع .

(٩٧)

بيتهوفن

انقطعت أخبار استيفن عن كوبلانس وأنديتها وجماعها ،
وكان غرة جبينها المتألثة ، وشمس جمالها الساطعة ، فتساءل
عنه أصدقاؤه ومعارفه وصنائع أياديه وفواضله ، والمعجبون بذكائه
ونبوغته ، حتى عرفوا قصته ، وما كانوا يعرفون شيئاً منها قبل
اليوم ، فهالهم الأمر وتعاضلهم ، وأشفقوا أن تختطف يد الدهر
من أيديهم تلك الحياة النضرة الزاهرة التي لم يتمتعوا بها إلا قليلاً
من الأيام ، فمشى بعضهم بلك إلى بعض ، واجتمع منهم جمع
عظيم ضم بين حاشيته كثيراً من كبار الموسيقيين ونوابغ الممثلين
ورجال الشعر والأدب ، فأجمعوا رأيهم على زيارته في قرية ،
والأ يزاولوا به حتى يهجر عزله ويعود إلى حياته الأولى بينهم ،
فكتبوا إليه أنهم المنتون لزيارته غداً ، ثم ركبوا في أسيل اليوم

الثاني عجلاتهم . واستصحب كثير منهم نسائهم وفتياتهم ، وذهبوا إلى القرية فاستقبلهم استيفن على باب داره باسماء متطلقاً كأنه لا يضمر بين جنبيه لوعة ولا أسى ، وكأن قلبه لا يذوب بين أضالعه ذوب السيكة في بوتقتها ، فطمعوا فيه إذ رأوه .

وخيل إليهم أنه قد برىء مما به أو كاد وأن هذه الصفرة الرقيقة التي لا تزال تليس وجهه إنما هي أثر من آثار ذلك الماضي سينهب مع الأيام وكان قد أعد لهم في الحديقة مائدة عظيمة للعشاء ، فجلسوا إليها وكانوا نيفاً وثلاثين رجلاً وامراً وجلس هو بينهم يحلشهم ويطرفهم بملحه ونواجره ، وتجنب في أحاديثه معهم كل ما يتعلق بكارثته ، فلم يجرؤ أحد منهم أن يفاتحه فيها حتى فرغوا من الطعام فضرقوا في أنحاء الحديقة زمراً زمراً يرتاضون ويسمرون ، حتى مضت قطعة من الليل فاقترح أحدهم أن يوثى بالبيانو إلى فضاء الحديقة ليوقع عليه من يشاء منهم . فأتى به ، فجلس إليه الموسيقي « فردريك » ووقع عليه لحناً من ألحان الموسيقى العظيم « بيتهوفن » فطرب له السامعون طرباً عظيماً ، وقال أحدهم : لقد كان بيتهوفن الرسول الإلهي الذي بعثه الله إلى البشر — ليخطبهم بلغته ، فهو الرجل الذي استطاع وحده من دون الموسيقيين جميعاً أن ينطق بلسان الطبيعة ، ويردد أنغامها وأهازيجها وأن يكون في غنائه هادئاً كالماء ، وصافياً كالسماء ، وعميقاً كالبحر ، وصادحاً كالطير ، وخافقاً كالنجم ، فقال الموسيقي « مورات » نعم ، ولكنه كان سيء الحظ عاثر الجلد ، فقد قضى حياته فقيراً معدماً يسعى إلى الكفاف من العيش فلا يجده وخاملاً مغموراً ، يطلب الشهرة من طريق الفن فلا يظفر بها ، حتى مات شريداً طريداً في وطن غير وطنه . وبين قوم وأسرة غير قومه وأسرته ، فقال الشاعر : « سباروف » من منكم يحفظ تاريخ حياته الأخيرة فيقصه علينا؟ فقال استيفن : أنا أقصها عليكم ، لأنني أعلم الناس : فقال كان أستاذي : « مل » : سمع الله عليه

صديقه الذي عاشه في آخر أيام حياته حتى مات وتولى دفنه بيده .
وكان كثيراً ما يقص علي ذلك التاريخ وهو يبكي بكاء شديداً فأنا أرويه
لكم كما كان يحدثني به ثم أقبل عليهم وأنشأ يقول :

لقد قسا الدهر على بيتوفن قسوة عظمى لم يقسها على أحد من قبله
من رجال الفنون والآداب ، فقد وضع للعالم تلك الموسيقى السماوية
العالية التي حاكى بها الطبيعة في نغماتها ودناتها ، وصور فيها أدق
عواطف القلوب وخوابلها ، فلم يحفل بها الناس . كثيراً ، ولم يأبهوا لها ،
وكأنوا قد أنفوا قبل ذلك تلك الموسيقى الصناعية المتكلفة التي كان يتأنتى
الموسيقيون الماضون في تنسيقها وتليجها تأنتى النحات في صنع الدمية
الجميلة التي لا روح فيها ، وافتتروا بها افتتاراً عظيماً فلم يستطيعوا أن
يفهموا غيرها أو يهشوا لشيء سواها ، ولم يكن مصابه يجهل الناس إياه
واحتقارهم له بأقل من مصابه بمجد حساده من أبناء حرفته ، واضغاضهم
عليه ، بل لم يكن له مصاب غير هؤلاء ، فهم الذين وقفوا في وجهه ،
واعترضوا مسيله ، واستقبلوه حين وقف عليهم بتلك القيثارة الجميلة
الرقيقة بابتسامات المزء والسخرية . وذهبوا كل مذهب في النيل منه ،
والولع به ، والغضب من شأنه ، وما كانوا يجهلون فضله ومقداره ، وقيمة
ما استحدثه في الفن من بدائع المبتكرات وغرائبها ، ولكنهم عجزوا
عن الصعود معه إلى ذروته التي صعد إليها فلم يكن لهم يد من أن يثيروا
حول كوكبه الساطع المتألئء في سماء الموسيقى هذه الغيرة السوداء من
المثالب والمطاعن ، فلا يرى الناس أشعته ، ولا يمكنها حتى أن «هايدن
نفسه وكان أكثرهم اعتدالاً وأدناهم إلى العدل والإنصاف لم يستطع أن
يسمح لنفسه بأن يقول عنه في تفريلته أكثر من أنه «عازف ماهر»
فكان مثله في ذلك مثل من يقول عن شاعر مثل شاعرنا «جيتيه» إنه
«يحسن الإملاء» !

ولم يزل هذا شأنهم معه حتى نفصوا عليه حياته ، وذهبوا براحة
نفسه وسكونها وملأوا قلبه وساوس وأوهاماً ، غشاء ظنه بنفسه وأصبح
يرتاب معهم كما يرتابون في اقتداره ونبوغته ، ولولا أن صديقه هومل
كان مرآته الصادقة التي يرى فيها نفسه من حين إلى حين لنفص يده من
الموسيقى نقض اليأس القانط ، ولحرمت الأمة الألمانية هذه التيسارة
البديعة الساحرة التي لم يخلق اقنعا شبيهاً في العالم منذ خلقت الدنيا حتى اليوم
فويل للاشرار الخبيثاء ، ماذا كانوا يريدون أن يصنعوا وماذا كان يكون
شأن الموسيقى في العالم لو تم لهم ما أرادوا ؟

ولم يستطع يتوهمن أن يصبر طويلاً على هذه المظلمة القادحة التي
نالت وضاقت ذرعه بتلك النظرات المؤلمة التي أصبح الناس ينظرون بها
إليه كلما مشى في طريق أو ظهر في مجتمع ، فلم يطق المقام بينهم ، ولا
العيش فيهم . فظل يتقل في أنحاء البرد غلواً ورواحاً ، لا يهبط ببلدة
حتى يطير به الضجر إلى غيرها ، ولا تطلع عليه الشمس في مكان
حتى تغرب عنه في مكان آخر ، وكان له في مبدل أمره ثروة صالحة
يعود بها على نفسه وذوي قرباه ، ولكنه كان من أصحاب الملكات
الشعرية والشعر والحزم لا يجتمعان في رأس واحد ، فلم يزل به إسرافه
وتخرفه حتى أضاعها ، فأصبح لا يملك أداة من أدوات الرزق غير
قيثارته ، وقيثارته سلعة كاسدة في سوق الفنون لا يبتاعها منه أحد ،
فزهل المجامع والمحافل وعاف المدائن والقرى . وفر بنفسه إلى الغابات
والأحراش وقمم الجبال وضفاف الأنهار ، وهناك في خطواته ومعزلاته
حيث لا يسمع صوتاً غير الطيعة ، ولا يرى وجهاً غير وجه الله ، أخذ
يبث قيثارته آلامه وأحزانه ويسكب مدامه الغزيرة بين مثانيها ومثلثها
ويضع وهو جائع طاو صفر اليد والأحشاء تلك الموسيقى العظيمة التي
يعيش الموسيقيون اليوم ببركتها عيش السعداء ، وينعمون في ظلالها بتعمة
العيش الرغيد .

وكثيراً ما كان يستمر به المسير حتى يصل إلى جزر الدانوب فيهم
عاً ، ضفاف ذلك النهر أياماً طويلاً لا يقترش إلا العشب ، ولا يلتحف
غير الطل ، ولا يطعم إلا ما يقلف به إليه النهر من أحيائه ، حتى يعبر
بـ صديقه « هومل » فيعود به إلى العمران .

ولم يقنع الدهر منه بذلك حتى رماه في آخر أيامه بالصمم ، فلم
يأسف لهذه النكبة كثيراً ، بل قال في نفسه : إني أحمد الله على ذلك فقد
كفاني نصف شرور الناس فلمه يكفيني نصفها الآخر ، فلا أرى في
وجوههم ولا أسمع أصواتهم . ولقد صدق فيما قال ، فقد أخذ الناس
يسد نه بعد نزول تلك الكارثة به بالموسيقى المجنون ، فلم يسمع شيئاً
مما يـ لون .

وأصبح منذ ذلك اليوم دائماً ساكناً لا يشكر ولا يتضجر بل لا
يشعر ولا يتلم ، وذهب إلى غابة قريبة من مدينة « بادن » فعاش فيها
وحيداً متزداً لا يسمع إلا صوت قلبه ولا يصغي إلا لتلك النغمات
الداخلية التي تتردد بدون انقطاع في أعماق نفسه ولا يرى أحداً من
الناس غير صديقه « هومل » من حين إلى حين ، فإذا جاءه دلح عليه ما
وضعه من الألحان فيحمله عنه إلى الناس من حيث لا يشعر . وبقي في
مكانه لا يفارقه .

وكان الناس قد أصبحوا يألفون أنغامه بعض الشيء ويصغون إليه
لأن حساده قد هدأوا عنه ، أو انقطعوا عن مناوراته والناس منه ، بل
لأن الطبيعة سلطاناً فوق سلطان الفنون والأحقاد ولأن الناس من المتألمة
في آفاق السماء لا تحتاج أن تدانيهم نور الشمس ، بل تحجبها فيأبى
عن الذين لحظة من الزمان ثم لا تلبث أن تنقشع عنها فإذا هي ملء الدنيا
والأنوار .

ولم يقض في عزلة هذه زمناً طويلاً حتى ورد عليه كتاب من ابن أخت له في « فيينا » كان قد تبناه في صغره وأحبه كثيراً يقول له فيه :
لاني متهم بتهمة عظيمة لا سبيل لي إلى الخلاص منها إلا بحضورك .
فسافر إليه دون أن يقابل صديقه « هومل » ولم يكن معه من المال ما يقوم بنفقات سفره ، فكان يمشي على قدميه حياً ويركب عجلات النقل أحياناً ، حتى نال منه الجهد ، وأصبح عاجزاً عن المسير ، وكان الطريق إلى « فيينا » لا يزال بعيداً فمر ذات ليلة ببيت منفرد في ظاهر إحدى القرى فوقف ببابه وأخذ يقرعه قرعاً خفيفاً فخرج إليه صاحب البيت وسأله : ما شأنه ؟ فقال له : إني شيخ أعمى غرب عن هذه الديار وقد أغلطني الليل وعجزت عن المسير فلا أستطيع المضي في سبيلي ، فأتدب لي بمضجع أؤي إليه بقية ليلتي ، وإن شئت فأمر لي بكسرة خبز أسد بها رمقي فأشفق عليه الرجل وأوى له وأحمله من بيته أكرم محل وأسماءه وكان للرجل إستان في سن الشباب فقامتا بين يديه تخدمانه حتى رجعت إليه نفسه فدعوه إلى المائدة فأكل معهم ، ثم مشى إلى مصطلى في أحد أركان القاعة فجلس إليه يصطلي ويخفف ثيابه وكان صاحب البيت من المولعين بالموسيقى والمغرمين بتوقيعها ليلتهم ونهارهم ، فما فرغ من الطعام حتى جلس أمام " يانو وأخذ يقلب دفتر الموسيقى الذي بين يديه حتى وقع على ما يريد ، فأشار إلى ابنتيه أن تأخذا قيثارتيهما ففعلتا . وأخلوا يعزفون جميعاً بنغمة واحدة فاغبط بيتهم بمنظرهم وإن لم يسمع من غنائهم شيئاً وكل ما استطاع أن يفهمه من شأنهم أن لذلك اللحن الذي يوقعونه سلطاناً عظيماً على نفوسهم فقد رأنا ثماره عند توقيعهم أثرأ شديداً ، ورأى صاحبة البيت ونخادتها تدنرت ما كانتا تشتغلان به من شئون البيت وأعماله ووقفنا للاستماع لقد سكنت أطرافنا وتلألأ وجهاهما ، وذهبنا ببصرهما في السماء كأنما تتبعان أثر تلك النغمات في طريقها إلى الملاء الأعلى ، حتى انتهت القطعة فاغرورت

عينا الفتاة الصغرى بالدموع ، وألقت الكبرى بنفسها بين ذراع عسي
أمرها ويكت بكاء شديداً .

فنهض يتهوفن من مكانه ومنى إليهم وقال لهم . لاني لم أستطع
ان أسمع شيئاً من الحانكم أيها الأصدقاء ، ولكني استطعت أن أفهم أنها
ألحان جميلة مؤثرة فتأثرت معكم وطربت لطربكم ، ولقد كنت قبل
أن تحل لي هذه النكية التي ترونها أحب الموسيقى حباً شديداً ، ولا يلد
لي في الحياة شيء مثل استماعها ، فهل تأذنون لي أن أنظر في دفتر
الموسيقى لأقرأ القطعة التي كنتم توقعونها ؟ فأولموا إليه بالإيجاب فأكب
على الصحيفة فما وقع نظره على القطعة ورأى اسم صاحبها في رأسها
حتى اصفر لونه ، وارتعدت يده ورفض جبينه عرقاً ، ثم أخذ يبكي
بكاء شديداً ، فانتبه القوم إليه ، ونهضوا من مكانهم مذعورين ،
وأحاطوا به يسألونه ما خطبه ، فأشار بأصبعه إلى عنوان القطعة فلم
يفهموا ما يريد ، فقال لهم : إنها قطعتي أيها الأصدقاء وأنا الموسيقي
يتهوفن ، فدهشوا جميعاً ، وظلوا ينظرون إليه باهتين مذهلين ، ثم
رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم وجثوا بين يديه خاضعتين متخشعين ،
وتناولوا يده وأخلوا بقبلونها واحد بعد الآخر ، فكانت هذه الساعة
هي الساعة الوحيدة التي ذاق فيها لذة الاحترام في حياته ، وكانت هي
بعينها الساعة التي رفرغ على رأسه فيها طائر الموت فقد شعر تلك
اللحظة بوخزة مؤلمة في جنبه ، فتساقط في مكانه ، فتلقوه على أيديهم ،
واحتملوه إلى سريره ، وسهروا بجانبه الليل كله يعللونه ويستشفون له ،
فيستفيق مرة ، ويستغرق في غشيته أخرى ، حتى الصباح .

وكان صديقه هومل قد عرف أمر سفره فتبعه في الطريق التي سلكها
وظل يسائل عنه في كل مكان حتى عرف القرية التي وصل إليها ،
والبيت الذي نزله ، فصعد إليه فرآه في سكرته التي يعالجها ، فجلس

بجانبه ييكبه ويتوجع له حتى انتبه له ييهوفن بعد حين . فابتسم له إذ رآه وقال له : هل جيتني بقيثارتني يا هومل ؟ قال نعم يا سيدي وها هي دي ، فتناولها منه وتناهض متكئاً على إحدى يديه ؟ تمكن من الجلوس وأنشأ يوقع على مسمع من القوم لحنه المحزن المشهور « رب لم أشقيتني وما أشقيت أحداً من عبادك » فما أتمه حتى ارتعدت يداه وجحظت الموت . ثم فتح عينيه بعد لحظة فرأى صديقه هومل فأمسك بيده ونظر إليه نظرة طويلة وقال : ألم أكن في حياتي عظيماً يا هومل ؟ قال : بلى وأكبر من عظيم فتهالل بالبشر ووأكبر من عظيم فتهالل وجهه بالبشر وأسبل عينيه وهو يقول « الآن أموت سعيداً ؟ ثم قضى !

وفي اليوم الثاني حمل ذلك الرجل العظيم إلى مقبرة تلك القرية المختير فدفن فيها ، ولم يشيع جنازته غير صديقه هومل وأفراد تلك الأسرة التي مات بينها ، وكان هذا كل حظه من الحياة .

(٩٨)

لحن الموت

ما وصل استيفن في حديثه إلى هذا الحد حتى اصفر لونه ، وتضمن جبينه وأطرق برأسه إلى الأرض ، فانتبه إليه القوم فلماذا هو واضع يده على قلبه ، وإذا دموعه تنحدر على خديه متتابعة ، فقال له أحدهم : ما بك يا استيفن ؟ فرفع رأسه بعد هنيهة وقال : إنما أبكي على هذا الرجل المسكين الذي عاش في حياته شقياً ومات مسكيناً . ولم يتسم له الدهر في يوم من أيام حياته ابتسامة واحدة يكافئه بها على يده التي أسدا إلى هذا المجتمع ، وكأنما قد كتب للعالمين على وجه الأرض جميعاً أن

يعيشوا فيها عيش الأشجار العظيمة في الصحارى المحرقة ، تظلل الناس بوارف ظلها ، وهي تصطي حر الهجرة وأوارها ، ولو أن القلندر انصفهم ووقاهم أجورهم لمساعد أحد في الحياة سعادتهم ، ولا هنىء فيها هناءهم .

فصمت القوم جميعاً ، وقد شعروا أنه إنما يحدث عن نفسه ويرسل في حديثه بعض الزفرات التي تعتلج في صدره .

ولأنهم لذلك إذ نهض من مكانه بغتة ومشى بقدم هادئة مطمئنة حتى وصل إلى كرسي اليانو ، فجلس عليه ثم التفت إلى القوم وقال لهم : هل تأذنون لي أيها الأصدقاء ، وقد قصصت عليكم تاريخ حياة بيتوهفن أن اسمكم لحته الأخير الذي وقع في آخر ساعات حياته ؟ فتهللت وجوههم فرحاً ، وقد ظنوا أنه إنما يريد أن يسري عن نفوسهم تلك الكتابة التي غشيتها منذ الساعة ، فقالوا جميعاً : نعم !

فبدأ يوقع ذلك اللحن « رب لم أشقيتني وما أشقيت أحداً من عبادك ويغنيه بصوت ضعيف خافت ، ثم أخذت عواطفه تشتعل شيئاً فشيئاً ، فعلا صوته وأنشأت نغماته تنتشر في أجواز الفضاء ، فسمع القوم تلك الموسيقى السماوية العالية التي لم يخلق الله لها مثيلاً ، والتي هي غاية ما أنتجه العقل البشري ، فأطرقوا برؤوسهم لإجلال هذه العظمة المشرفة عليهم من سماها ، وخيل إليهم أنهم لا يرون بينهم مغنياً يوقع على أوتاره ، بل ناكلاً متفجعاً يلرف مدامعه ويصعد زفراته ، حتى الموسيقى « مورات » همس في أذن أحد الجالسين بجانبه قائلاً « إن الرجل لا يغني بل يموت ولاني أشم من أنفاسه رائحة الكبد المحرقة » وكان كلما استمر في غناؤه اشتد تأثره والتهبت عواطفه ، وتلون صوته بلون الأنين المحزن ، حتى فني عن نفسه وعما حوله ، واستولت عليه

حالة غريبة من الذهول والاستغراق .

وما أتى على النعمة الأخيرة ، وكانت أعلى النعمات وأطولها وأذهبها .
في أجواز الفضاء ؛ حتى نهض القوم جميعاً على أقدامهم وأخذوا
يصفقون تصفيقاً شديداً ويهتفون : ليحيا استيفن .

ولأنهم يصفقون هذا التصفيق الشديد ويدعون له بالحياة الطويلة ،
يتدافعون إلى مكانه لتهنئته وتمجيده ، إذا بهم ينظرون إليه فيرونه
مثلاً برأسه على ظهر كرسى ، وقد اقشعر وجهه ، وتغيرت سحته ،
وأمسك بكفه على أحنائه ، فطارت ألبابهم ، وطاشت عقولهم ، ومرت
بخواطرهم جميعاً مرور البرق تلك الصورة التي مات عليها يتهوفن في
قصته التي قصها عليهم منذ الساعة ، فتشاموا وانقبضت نفوسهم ،
وأحاط به جماعة منهم فاحتملوه إلى سريره ، وحضر الطبيب ففحصه
ثم نظر إليهم نظرة البأس ، فأطرقوا واجمين مكثيين واحتاطوا بسريره
ينتظرون قضاء الله فيه ، ففتح عينه بعد ساعة ودار بها حوله ونطق
باسم « فرتر » وكان حاضراً قلباه ، فنظر إليه طويلاً ثم نطق باسم
« ماجولين الصغيرة » فما لبث أن جاءه بها ، فضمها إلى صدره وقبلها
قبلة امتزجت فيها عاطفة الرحمة بعاطفة الذكرى ، وظل ينظر بعينه
إلى السماء مرة وإلى فرتر أخرى ، كأنما يوصيه بالطفلة ويستشهد الله
على ذلك . ثم التفت إلى القوم وقال بصوت ضعيف متهافت : « أشهدكم
أيها الأصدقاء أن جميع ما تملك يدي قسمة بين هذين » وأشار إلى فرتر
والطفلة ، ثم عاد إلى ذهوله واستغراقه وأخذ يحود بنفسه وظل على
ذلك ساعة ، ثم فتح عينيه مرة أخرى ، فرأى التسوم سيكون من حوله
ويستنجعون له ، فمرت بشفتيه إبتسامة خفيفة ، كأنما اختبئ بمنذر تلك

العظمة التي تجلّت له في دموع هؤلاء العظماء وأخذ يقلب عينيه فيهم فتقدم نحوه الموسيقي فردريك وكان أعظم القوم شأناً وأكبرهم سناً . وقال له : هل توصي بشيء يا مولاي ؟ فحاول النطق فلم يستطعه . فظل يعالجه حيناً حتى استقاد له . فأنشأ يقول : أوصيك يا فردريك أن تجمع ألحاني كلها في كتاب واحد ، وأوصيك يا سيدروف أن تكتب تاريخ حياتي كما يعلمه فرتر ثم تنشره في الناس : وأوصيك يا فرتر أن تدفني مع ماجدولين في قبرها وأن تتولى شأن هذه الطفلة الصغيرة وتحميها مما تحمي منه أهلك وولده ، حتى إذا يفتت زوجها من الزوج الذي تختاره لنفسها

وأوصيكم جميعاً ألا تخزنوا على موتي . فإني وإن قضيت حياتي شقياً فما أنتم ترون الآن أنني أموت بينكم سعيداً . وكان هذا آخر ما نطق به . ثم أسلم روحه .

وكذلك انتهت حياة هذا الرجل العظيم الذي قتل الحب جسده . ولكنه أحيا نفسه وسجلها في سجل النفوس الخالدة .

(٩٩)

النهاية

أما أسرة فرتر فقد سعد حالها ، وأصبحت في نعمة واسعة من العيش لا ينقصها عليها إلا ذكرى ذلك المحسن الكريم ، وأما ماجدولين الصغيرة فقد تولّى فرتر شأنها ورباها مع ولده « برنار » الذي رضعت معه في صغره - تربية قروية ساذجة بعيدة عن مفاصد المدنية وآفات حتى

شبا فتحابا حباً شريفاً طاهراً فانتهى بهما الأمر إلى الزواج فعاشا أسعد
عيشة وأمنأها . وأما المنزل فقد اشترته جمعية الموسيقى الملوكية في برلين
وحفظته تذكراً لاستيفن ، ولا يزال حتى اليوم مزاراً يزوره الناس
ويشاهدون فيه آثار ذلك التاريخ الذي دونه الشاعر « سيدروف »
ويرون حديقته ، وأزهار البنفسج المنتشرة في أنحائها ، والحوض المقام
في وسطها ، والسياح الدائر من حوله والمقعد الذي جلس عليه استيفن
وماجدولين ليلة عاتبها وغاضبها والغرفة الزرقاء التي كانت غرفة عرس
ماجدولين أولاً ، ولحدها أخيراً ، ومكتبة استيفن ، وقيثارته ، والبيانو
الذي وقع عليه في ساعته الأخيرة « لحن الموت » .

فلإذا فرغوا من زيارة المنزل ذهبوا إلى المقبرة فزاروا ذلك القبر
الذي دفن فيه الشقيان البائسان ، فيبذل تربته بالدمع منهم من نكب في
حياته بمثل نكبتهما أو عاش فيها شقياً كعيشهما .

تمت

مصطفى لطفي المنفلوطي

الذي اغتذى بأدبه ملايين القراء في كل بلد عربي

آثار مصطفى لطفي المنفلوطي

النظرات	٣١ جزء	خلاف
العبرات		خلاف
الفضائل		خلاف
السامر		خلاف
ساجدولين		خلاف
في سبيل الساج		خلاف
مختارات المنفلوطي		خلاف

مع تحيات يحيى الصوفي
مؤسس ورئيس تحرير موقع
القصة السورية
Syrian Story